

سانين أو ابن الطبيعة

تقريب: ابراهيم عبدالقادر المازني
تأليف: ارتزيبا سيف

اهداء الكتاب

إلى ذكرى من لا تزال ذكرها المحبوبة تجدد في قلبي حسرة الوجد
وزفرة الجوى ، إلى من كانت مصدر إلهامى ، وشريكة مجهوداتى فى صفوة
ما سطره يراعى ، إلى الصديقة الوفية ، والزوجة المخلصة التى كنت أجد من
راسخ إيمانها بالحق ورفيع تقديرها للصدق أحث مشجع ومهيب ، كما كنت
أجد فى جميل استحسناتها ، وكرم إعجابها ، خير مكافئ ومثيب — أهدى
كتابى هذا ، — شأن كل ما لبثت أكتب منذ سنين عدة — ليمت إليها بمنزل
ما يمت إلى ، وإن كان لم يحظ من نفيس تنقيحها بأقصى الكفاية ، ولم يستوف
من ثمين تهذيبها أبعد غاية ، إذ بقيت طائفة من أجل أجزائه كانت قد أعدت
كما تعيد فيها نظرة متبنت مستمهل ، ولكن أبى القدر إلا أن يحرم الكتاب تلك
النظرة ، ولو أنى أوتيت سحر البيان مما أعبر به للناس عن نصف ما ضمنت
حفيرتها من رائع الخواطر وشريف العواطف ، لأسديت إليهم أضعاف أضعاف
ما يستفيدون من كل ما أنا كاتبه ، غير مستحث بهمتها الماضية . ولا مؤيد
بحكمتها العالية ؟

« المؤلف »

لم يقف فلاديمير سانين أهم أدوار حياته في بيته بين أبويه وهو الدور الذى يتكون فيه خلق المرء بالاتصال بالعالم والامتزاج بالناس . ولم يكن له من يتعهد أو يهديه ، فتفتحت روحه كما ينمو الغراس في أتم حرية وأكمل استقلال .

غاب عن بيته ستين ، فلما آب كادت تنكره أمه وأخته « ليدا » ولم تكن معارف وجهه وصوته وشماله قد تغيرت إلا قليلا . ولكن شيئا غريباً جديداً ناضجاً حدث على شخصيته فأجبال في محياه ضوءاً وأكسبه معنى لم يسبق بهما العهد . وكانت أوبته مساء فدخل الغرفة دخول من زايها منذ خمس دقائق . وكان يعييك أن تامج في وجهه الساكن أو أن تستكنه من ركني فيه الناطق ببعض السخر — شيئاً من أمارات الإعياء أو دلائل تحرك النفس وهو واقف في الغرفة مديد القامة وسيم الطلعة عريض الكتفين . فقرت ضجة التحية التي استقبلته بها أمه وأخته من تلقاء نفسها .

وجلس يأكل ويترشف الشاي وأخته قبلته تحذجه بنظرها وكانت مسغوفة به شأن مثيلاتهما — أو جلهن — من الفتيات الجاححات الخيال في الولوع بأخواتهن الناتين عنهن . وكانت أبداً تتمثله شخصاً غريباً بالعالم غرابية الأمر مبلغ من تقرأ عنهم في الكتب ، وتتصور حياته وغى دائرة الارحاء . بشتى الفواجع والمآسى ، وتحسب أن حفظه من العيش الشجى والوحدة ، ككل روح ضخمة مستعجمة .

فقال لها سانين وهو يبتسم « لماذا ترمينى بهذه النظرة ؟ » .

وكانت هذه الابتسامه الهادئة والنظرة الفاحصة مألوف مايطالعك من وجهه ولكن العجيب أنهما لم يقعا من « ليدا » موقع الارتياح وكأنما نخيل إليها أن فيهما معنى الرضى عن النفس ، وأنها لايمان عن شىء من الصراع والألم الباطن . فصرفت وجهها عنه ولم تنبس ثم جعلت غير عامدة بظاب صمحات كتاب .

ولما قضوا من الطعام والشراب حاجتهم مسحت أمه شعر رأسه في حذب
وجنو وقالت :

« والآن حدثنا عن حياتك وما صنعت هناك » .

فقال سائين وهو يضحك : « ما صنعت ؟؟ لقد أكلت وشربت ونمت .
وكنت حيناً أعمل ، وحيناً آخر لأعمل شيئاً ! » .

فجری فی وهما بادیء الرأى أنه لا يريد أن يحدثهما عن نفسه ولكن
أمه لما شرعت تسأله عن هذا الأمر بعينه أوداك ألفته يرتاح إلى قص تجاربه .
غير أن المرء لم يكن يسعه إلا أن يحس — لأمر ما — أنه لا يعبأ شيئاً بما يكون
لقصصه من الوقع والأثر في نفوس السامعين . ولم يكن في شمائله — على
دمائتها ورقة حواشيها — ما ينم على تلك الألفة التي لا تكون إلا بين أهل الأسرة
الواحدة . وكأنما كان لطفه ودمائته من عفو الطبيعة كالمصباح يريق ضوءه
على كل شيء بلا تمييز .

وبرزوا إلى شرفة الحديقة وجلسوا على درجها وجلست «ليدا» دونه تصغي
إلى حديثه في صمت ، وأحست في قلبها برد الخليلد وقالت لها غريزتها
النسوية الذكية إن أباها غير ما خالت . واستشعرت الخجل والارتباك في حضرته
كأنه أجنبي منها . وانتشرت على الأرض غيابات العشى وزحفت حولهم
الظلال . وأشعل سائين سيجارة فاختلط شذى الطباقي (التبغ) بأرج الحديقة وقص
عليهما سيرته وكيف رمت به حياته المرامي وكيف طوى كثيراً وتشرد
وكيف خاض لجح الجهاد السياسي وكيف أنه لما أدركه الوني والفتور أفلح
عنها وبكص .

وكانت «ليدا» ماثلة إليه بسمعها دون حراك وعليها من رفة الحسن
والخلاوة ما نفيضه أصائل الصيف على كل فائنة عذراء .

وكانت كلما أوغل في الحديث تزيد افتناعاً بأن حياته ، التي وشاها خيالها
بأبهج الألوان وأشدّها لألاء ، لم تكن في واقع الأمر إلا عادية كأبسط ما
تكون . ولكن فيها على هذا شيئاً عجيباً . وما ذاك ؟؟ هذا ما لم تستطع اكتشافه .
على أنه مهما يكن من الأمر فإن حياته على ما جاء في روايته لم تعد أن تكون

بسيطة مملة فاترة . يظهر أنه عاش حيثما اتفق ولم يعتمد شيئاً يفعلُه على التبعين .
فيوماً يشتعل ويوماً يتبطل . ومن الجلى كذلك أنه كلف بالشراب وأن له خبرة
بالنساء . وأحر بمثل هذه الحياة أن تخلو من الخلوكة أو الشر وهي لاتشبه
في دقيق أو جليل ما توهمته من سيرته — لا فكرة يحيا لها ، ولا هو يكره مخاوقا
ولا تعذب في سبيل كائن ما . ولقد كربها حقاً بعض ماصارحها به وبخاصة لما
قال إنه بلغ من خصائصه ورقة حاله مرة أن رقع سراويله الممزقة بيده .
فلم تملك إلا أن تسأله « أوتعرف إدن كيف تحوك ؟ » وفي صوتها نبرات
الدهشة والزرابة . إذ كانت تعد ذلك هوأناً وضعة ، وترى فيه ما يمايى الرجولة
في الواقع .

فقال سائين باسماء . وقد فطن إلى مادار في خاطر أخته : « لم تكن لى بدلك
دراية في أول الأمر والكنى ما لبثت أن تعلمت بكرهى » .
فهزت الفتاة كتفها بلا احتفال ولزمت الصمت ورمت الحديقة بعينها وخيل
إليها كأنها كانت تحلم بالشمس الضاحية ، فلما فتحت عينها لم تجد غير سماء عائمة
مقرورة .

واكتأبت أمه كذلك وحز في نفسها أن ابنها لم يشغل المركز الذى هو أهل له
بحكم منزلته في المجتمع . وشرعت تقول له إن الأمور لا يمكن أن تظل جارية
على هذا النحو وإنه ينبغى له أن يكون فيما يستقبل من أيامه أرشد وأحزم . وكانت
تكلمه في بادىء الأمر على حذر ثم بدا لها أنه لا يكاد يجعل باله إلى ما تقول
فأخذها الغضب شيئاً فشيئاً ، وألحت عاياه بالكلام ذاهبة إلى العناد والمشادة
شأن العجائز السخيفات من نظائرها لتوهدها أن ابنها يعتمد أن يكايدها . ولكن
سائين لم يعجب ولم يضجر وكأنه لم يفهم ما قالت فظل صامتاً غير مكتثر .
بيد أنه لما سأله « كيف تنوى أن تعيش ؟ » قال مبتسماً « على نحو ما »
وكان صوته الهادى المتزن ونظرته السريعة يوقعان في الروح أن لهذه
الكلمات — التى لم تفهم منها أمه لا ذايلاً ولا كثيراً — دلالة عميقة محدودة عنده .

فتنهدت ماريبا إيفانوفنا وقالت بعد فترة بشيء من القلق: «هذا شأنك على كل حال فتمتد شبيب عن الطوق ولم تعد طفلاً. ينبغي أن تطوف الحديقة فإن مجراها يروق النظر الآن» .

فقال سائين لأخته: «نعم تعالى لتريني الحديقة فقد نسيت شكلها» . فانتبهت «ليدا» من خوارطرها وتنهدت ونهضت ومشيا جنباً إلى جنب في الطريق المفضي إلى قلب الحديقة الجهمية .

وكان البيت على الطريق الأكبر في البلدة ، ولما كانت هذه صغيرة فقد امتدت أرض الحديقة إلى النهر ومن ورائه الحقول . والبيت قصر عتيق في عمده على الجانين رخاوة وله شرفة رحبية وكانت الحديقة على سمتها مهملة هائجة حتى ليحسبها رائها سحابة خضراء باهتة قد نزلت إلى الأرض . وهي بالليل كمشوى الأشباح وكأنما يغشاها طيف حزين يسرى بين أغراسها المتوشجة أرواح وبغدو في قلق على البلاط التراب بذلك البناء القديم . وفي الدور الأرضي جملة الحجر الفارغة تكسوها الأبسطة الحائلة والستائر الخالكة ثوبا مظالم ولم يكن يتخلل الحديقة إلا طريق واحد ضيق أوامر ، مبعثرة في نواحيه الأغصان المصوحة والصفادع المسحوقة . وكل ما في الحديقة من دلائل الحياة الهادئة المطمئنة محشود في ركن واحد منها . وثم على كئيب من البيت ياتمع الرمل الأصفر والحصى وهناك — إلى جانب حوض أنيق من الزهر يومض في نوره الطل — يرى المرء مائدة خضراء يجاسون إليها للطعام أو الشاي في الصيف . فكانت هذه الزاوية الصغيرة التي نفخت فيها الحياة الساسه الساذجة من روحها على نقيض ذلك القصر الضخم المهجور، المقضى عايه بالتداعي المحتوم .

ولما خفي البيت عن أعينهما وأحاطت بهما الأشجار الصامتة الساكنة كأنها الشهود تنظر وتروى . دفع سائين ذراعه فجأة حول خصر ليذا وقال بلهجة جامعة بين الرقة والعنف :

« لقد صرت آية ! وسيسعد بك أول من نجيب من الرجال » .

فأرسات لمسة ذراعه وعضلاته الحديدية هزة نار في عود ليدا اللين
الغض . وصيغ وجهها الخجل ، واضطربت ففتنحت عنه كأنما قاربها وحش
غير مرئي .

وكانا قد بلغا حافة النهر فصعدت إليهما رائحة بليلة رطبة من الأعشاب
المطرقة المترنحة في الماء وبدأت مما يلي النهر الحقول في رداء من غيش الغسق
تحت سماء مترامية تومض فيها طلائع النجوم .
ومال سائين وتناول عوداً جافاً ذاوياً ووقفه وألقى بكسره في تيار الماء
فانداحت في لجته الدوائر وزالت بأسرع مما ظهرت . وحنّت الأعشاب
الناطقة رعووسها كأنما أرادت أن تحي في سائين ندها ورفيقها .

(٢)

كانت الساعة السادسة والشمس مازالت وضاعة ، ولكن الحديقة ارتمت
فيها الظلال الرقيقة . وكان الجو كله ضوءاً وحرارة وسجواً . وكانت ماريّا
إيفانوفنا تصنع مربى ، فانبعثت تحت شجرة اليزفون الأخضر رائحة قوية
من السكر المغلى والتوت البرى . وكان سائين يكدح نهاره في أحواض الزهر
معالجاً أن ينفث الحياة في بعض أعوادها التي أضرب بها التراب والحر .
فقالت له أمه مقترحة : « أولى لك أن تملع الحشائش أولاً . قل لجرونكا
تصنع ذلك لك » .

وكانت ترقبه وتتمحيه بعينها من حين إلى حين من خلال اللهييب الأزرق
المرتعش .

فرفع سائين رأسه وهو متقد وقال باسم : « ولماذا ؟ » ورد شعره
المتهدل على جبينه « لنتم كما شئت فيني أحب كل أخضر » .
— « أما إنك لفتى مضحك ! » .

وهزت كتفها باشمة ، وقد سرها جوابه لأمر ما .

فقال سائين بلهجة الجازم المقتنع : « إنكم أنتم المضحكون » ، ثم انصرف إلى البيت ليغسل يديه ولما عاد تمطى على كرسي ذى ذراعين مصنوع من عيدان الصفصاف وشاع في جواب نفسه الاغتباط وفي صدره ووجهه الانشراح، وأشعرته خضرة الروضة ونور الشمس وزرقة السماء لذة الحياة أيما إشعار . وكان نفوراً من المدن الكبرى يمقت ضجتها . أما هنا فليس إلا الشمس والحرية . ولم يكثر للمستقبل ولا أحس من أجله ديب القلق إذ كان غير متبطر — يتقبل من الحياة ما شاءت أن تهديه إليه وأغمض جفنيه كل الإغماض ومط جسمه واهتز مسروراً لتوتر عضلاته القوية الصحيحة .

وهب النسيم عليلاً وعادت الحديقة كلها وكأنها تزفر وجعلت العصافير هنا وههنا تصخب متناغية عن حيواتها المهمة وإن لم تكن بالمفهومة وكان كلهم « ميل » مستلقياً على الحشائش الطويلة منصتاً وأذناه مرهفتان ولسانه الأحمر متدل من فمه . وأوراق الشجر تهامس وظلالها المستديرة ترتعش على الحصى الأملس .

وهاج ماري إيفانوفنا أن طائر ابنها ساكن وكان حبها له جما كحبها لأبنائها جميعاً فنازعتها نفسها لهذا أن تستيره وأن تجرح احترامه لنفسه لتكرمه على الالتفات إلى كلامها ولتحمله على مشاطرتها نظرها إلى الحياة . وكانت كالنملة قد قضت كل برهة من عمرها المديد في إقامة ذلك البناء الواهى لسعادتها المنزلية . وما كان أطوله وأعراره وأخلاه من بواعث السلوى النافية لللال ! بل ما أشبهه بالثكنة أو المستشفى ! شيد بما يخطئه الحصر من دقائق اللبانت . وتالله ما أعجزها من مهندسة تحسب هذه مباحج الحياة وإن لم تكن سوى متاعب ضئيلة غادرتها في حالة دائمة من الاضطراب والقلق .

قالت : « أتحسب أن الأمور ستظل سائرة على هذا المنوال فيما بعد؟ » . وتضاغطت شفتاها وتظاهرت بأن المرء تسغرق عنايتها . فسألها سائين : « وما ذاتعين بقولك فيما بعد؟ » ثم عطس . فظنت ماري إيفانوفنا أنه عطس عامداً ليهيجها وقطبت وجهها على الرغم مما في هذا الخاطر من وضوح السخافة .

ثم قال سائين وكأنه يحلم : « ما أجل أن يكون المرء هنا معك ! »، فأجابته بلهجة جافية : « نعم فإن المقام هنا ليس بالذميمة جدا »، وسرها من ابنها اطرأه البيت والحديقة وكانا عندها كأنهما من ذوى قرباها الملازمينها .

ونظر سائين إليها ثم قال وعلى وجهه هيئة التفكير : « لو أمسكت عن مضايقتي بكل أنواع الحماقات لعاد المقام خيراً وأحمد » .

ونطق هذه الكلمات بصوت لين المكاسر فخالفت رقة اللهجة جفوة المعنى . فحارت مارياليفانوفنا ولم تدر أترتاح إلى ما سمعت أم تمتعض وتغضب . وقالت وهى مكتئبة :

— « إني لأنظر إليك وأذكر أنك في طفولتك كنت دائماً غريب الحال والآن » .

فقاطعها سائين جلدلاً « والآن ؟ » كأنما توقع أن يسمع شيئاً ليس أمتع منه ولا أبعث على السرور .

فقالت بحدة وهزت ملعقتها : « والآن أراك أشد جنونا منك في أى عهد ! » . فضحك سائين وقال : « هذا خير ! » ثم بعد هنية « هذا نوفيكوف » . وأقبل رجل طويل وسيم الصورة ينسجم على قوامه المعتدل قبض من الحرير أحمر يتوهج في ضوء الشمس وفي عينيه الزرقاوين نظرة فاترة واشية بسناجته وخلوص سريره . وقال بصوت الودود :

« هذا أنتم ! — أبدأ في خصام ! وبالله عليكم فيم تختصمون ؟ » .

— « حقيقة الأمر هى أن أى ترى أن الأنف الاعريقى أليق بى وأسب . ولكنى راض أتم الرضى عن أنى الذى فى وجهى » .

ونظر سائين إلى أنفه وضحك ثم مديده إلى يمين صاحبه الكبيرة الغضة . فقالت مارياليفانوفنا : « كذلك أحسبني أفول ! » .

وضحك نوفيكوف ، وارتد إليهم من جانب الحديقة صدى رقيق كأنما هناك من يشاطرهم جذبهم ومرحهم .

- « أظنني أحزر ما أنبأ فيه . إنكما من مستقبلك في لاجة » .
- فصاح به سانين ذاهباً إلى المداعبة ومتكلفاً الفزع « وأنت أيضاً ؟ » .
- « إنك تستحق هذا عدلاً ! » .
- « إذا اتفقتما على فخير لي أن أنصرف عنكما » .
- فصاحت به ماريا إيفانوفنا وقد حاجت بغتة وغازها أنها حاجت : « كلا ! أنا التي ازايكما » واحتملت قدر المربي وأسرعت إلى البيت ولم تتلفت .
- ووثب الكلب ونصب أذنيه وهو يراقبها ثم حك أنفه بيمينه ورمى البيت بنظرة المستفسر ثم عدا إلى الحديقة .
- فقال سانين وقد سره خروج أمه : « أمعلك سبائر ؟ » .
- فأخرج نوفيكوف علبة وهو يتريث في حركته وقال بصوت رقيق نبرات العتب « لا يحمل بك أن تكايدكما هكذا . إنها سيدة عجوز » .
- « كيف كايدتها ؟ » .
- « إنك ترى . . . » .
- « ماذا تعنى بقولك « إنك ترى » ؟ إنها هي التي لاتزال ورأى . وما أعرفى سألت إنساناً شيئاً فكان ينبغي للناس أن يدعوني وشأني » .
- وصمت كلاهما برهة ثم سأل سانين صاحبه : « وكيف الحال يادكتور ؟ »
- وتأثر بلحظه الدخان المتصاعد من سيجارته وهو يتأوى فوق رأسه .
- « الحال سيء » .
- « كيف ؟ » .
- « من كل وجه . كل شيء ممل وهذه البلدة الصغيرة تأخذ بمخني وليس ما يعمل المرء فيها » .
- ليس ما تعمل ؟ إنك أنت الذي شكوت من أن الوقت لا يتسع للأنفس ؟ » .

- « ليس هذا ما أعنى . إن المرء لا يستطيع أن يظل عمره يعود المرضى . ولا أحد غير المرضى . هناك حياة أخرى غير هذه . »
- « وما يمنعك أن تحيا هذه الحياة الأخرى ؟ »
- « هذه مسألة فيها بعض التعقيد والإشكال . »
- « وما وجه الإشكال فيها ؟ إنك شاب جميل معافى البدن . فإذا تبغى فوق هذا ؟ »
- فقال نوفيوكوف بتهكم خفيف . « هذا لا يكفى فى رأيي » .
- وصحاحك سانين وقال : « لا يكفى ؟ لئنى أراه حظاً عظيماً » .
- « ولكنه لا يكفينى » قالها ضاحكاً بدوره .
- وكان من الجلى أنه ارتاح إلى ما قاله سانين عن صحته وقسامته . على أنه استعجى كالفتاة .
- فقال سانين وكأنه يفكر : « ينقصك أمر واحد » .
- « وما هذا ؟ »
- « صحة الإدراك للحياة . إن الملل يحتم على صدرك . ولو أن ناصحاً أشار عايناك مع ذلك أن تنفض نعلك من هذا المكان وأن تخرج إلى الدنيا الرحبية لأسفقت أن تفعل » .
- « وكيف أخرج » كمتسول ؟ »
- « نعم حتى كمتسول ! إلى كلما نظرت إليك قلت لنفسى : هذا رجل يستهين فى سبيل إبقاء الدولة الروسية دستوراً بأن يسجننى قاعة شلوسلبرج^(١) بقية عمره وبأن يفقد كل حقوقه وحرية كذا . ومع ذلك فما هو والدستور ؟ وما يحنيه منه ؟ أما إذا كانت المسألة مسألة تحول عن أسلوب ملل من الحياة وذهاب إلى جهات أخرى طلباً لمصالح ومتع أخرى راح يسأل نفسه : كيف أرتزق ؟ أأست على كل صحتى وفوقى عرصة للأذى إذا لم يكن لى مرتب معين وإذا لم

(١) قلعه يعمل فيها السياسيون أو كانوا يعتقلون فيها .

أوفق لذلك إلى الزبدة إلى جانب الشاي وإلى قصصان التحرير والياقات الصلبة
وسائر ما هو من هذا بسبيل ؟ - لعمري إن الأمر مضحك ؟ » .

- « لست أرى في الأمر شيئاً مضحكاً على الإطلاق ، فإن المسألة في
الحالة الأولى مسألة قضية . فكرة . أما في الثانية . . . » .

- « ماذا ؟ » .

- « لا أدري كيف أعبر عما أريد » .

وعالج نوفيكوف أصابعه .

فقال سانين مقاطعاً : « تأمل الآن ! هذه طريقتكم أبداً في الفرار من
الموضوع . وإن أصدق أبداً أن الشوق إلى الدستور أشد حاجة في نفسك
من الشوق إلى الانتفاع بحياتك على أتم وجه » .

- « هذه مسألة متنازعة . وقد يكون الأمر كما ذكرت » .

فلوح سانين بيده تلويح الضجر وقال : « لانقل لى ! لو أن رجلاً
قطع أصبعك لأملك الأمر أكثر مما يؤملك لو أنه كان أصبع روسي آخر .
هذه حقيقة . أليس كذلك ؟ » .

- « أو أنانية » يريد نوفيكوف أن يتهكم فيخرف .

- « ربما . ولكنها الحقيقة على كل حال . ومع أنه ليس في روسيا ولا
في كثير غيرها دستور ما - بل ليس فيها أضال دليل على وشك ميلاد
الدستور - فإن حياتك المحملة هي التي تقيمك وتمعدك لاعداء وجود الدستور .
وأقول لك أكثر من ذلك » وهنا لمع في عينه بريق السرور
« إنك مكروب - لا من جراء حياتك بل لأن ليدالم تمل إليك بالحب
بعد والآن أليس الأمر كما أقول ؟ » .

- « أى هذيان هذا ؟ » .

وصار وجه نوفيكوف كقحميصه حمرة وبلغ من ارتباكها أن الدموع
وثبت إلى عينيه الفاترتين الرقيقتين .

— « كيف ترى قولى هذيانا وأنت لا ترى غير ليدا فى الدنيا ؟ إن الرغبة فيها مسطورة بأحرف جلييلة على جبينك » .

فاضطرب نوفيكونوف اضطرابا محسوساً وأخذ يسرع فى خطواته بجيشة وذهوباً ولو أن امرءاً غير أخيها كلمه على هذه الصورة لتألم أبغ الألم ولكن هذه الكلمات من فم سانين أذهلته . والواقع أنه لم يكذب يفهم ما يقول فى أول الأمر .

فتتم قائلاً : « اسمع . إما أنك تتكلف أو . . . » .

— « أو ماذا ؟ » وابتسم .

فلوى نوفيكونوف وجهه وهز كتفيه وصمت . وكان الذى جرى فى ذهنه غير التكلف هو أن يعد سانين رجلاً مستهتراً خبيثاً غير أنه لم يستطع أن يصارحه بهذا الخاطر إذ كان منذ أيام الدراسة فى الكلية يخلص له الحب ويصدقه إياه ومحال أن يكون نوفيكونوف قد اختار لصداقته امرء سوء . وكان وقع هذا الكلام كريها مذهلاً وأوجعته الإشارة إلى ليدا ولكنها كانت معبودة فلا يسهه أن يحس الغضب لأن سانين ساق ذكرها وسره هذا ولكنه آلمه كأن يداً متقدمة أمسكت بقلبه وضغطت .

وصمت سانين قليلاً وهو مبتسم منشراح ثم قال :

« أتمم كلامك . فاست أتعجلك ! » .

فظل نوفيكونوف يحىء ويروح كما كان مجروح النفس لاشك فى ذلك . ودخل فى هذه اللحظة الكاب يعدو وحاك جسمه بركبتى سانين كأنما يريد أن يرى الناس مبلغ سروره هو الآخر فلاطفه سانين وهو يقول : « يالك من كلب طيب ! » .

وحاول نوفيكونوف أن يجتنب اتصال الحديث وأشفق أن يعود إليه سانين وإن كان أحب موضوع إليه وألذه وأنداه . وكل ما لا شأن له « بليدا » عبث عنده لا يطاق .

ثم راح يسأل سائين عفوا « وأين - ليدا بتروفنا ؟ » وإن كان مع ذلك يكره أن يلقي السؤال البارز في ذهنه .

— « ليدا ؟ ولإين يمكن أن تكون ؟ تتنزه مع الضباط حيث كل الفتيات في هذه الساعة من النهار » .

فسودت الغيرة وجه نوفيوكوف وهو يقول : « كيف تنفق فتاة مثلاً براعة وتهذيباً وقتها مع هؤلاء الحمقى الفارغى الرؤوس ؟ » .

فقال سائين باسم : « يا أخى . إن ليدا فتاة جميلة وموفرة الصحة مثلك بل هى فوق ذلك . إذ كانت قد أوتيت ما ينقصك - أعنى الرغبة الحادة فى كل شىء وهى تريد أن تعلم كل ما يعلم وأن تجرب كل أمر - هذه هى آتية وما عليك إلا أن تنظر إليها لتفهم هذا . أليست بالله جميلة ؟ » .

وكانت ليدا أقصر من أخيها وأجل . وعليها من العذوبة ولين القوة فتنة تميزها وفى عينيها السوداوين نظرة شائخة ولصوتها الذى تباهى به رنة موسيقية ملائى . فأقبلت على مهل تخطر برشاقة وإحدى يديها ممسكة بثوبها السايغ وأقبل من بعدها ضابطان شابان .

— « من الجميل ؟ أهو أنا ؟ » .

وأساعت فى الحديقة سحر صوتها وجمالها وصباها .

ومدت إلى نوفيوكوف يدها . وعينها إلى أخيها وكانت أبدأ فى حيرة من أمره لا تدرى أجاد هو أم هازل .

وقبض نوفيوكوف على يدها واضطرم وجهه ولكن ليدا لم تأسح انمعاله وكانت قد ألقت منه نظرة الاحترام والحياء التى لم تصايفها .

وقال أجمل الصابطين وهو ناصب فامته كالجوادر المتفحل :

— « عم مساء فلاديمير بتروفتش (سائين) » .

وكان سائين يعلم أنه سارودين وأنه كاتب في فرقة الفوارس وأنه ألح
عشافي ليدا .

وكان صاحبه « الملازم » تاناروف يعد سارودين مثال الجندى ويحكىه
في كل شيء ويضرب على قلبه في كل أمر وكان صموتاً ليس له رشاقة
سارودين ولا قسامته .

فقال سائين جيباً اخته في رزاة : « نعم أنت ! » .
— « إني الجميلة لا شك ! ولقد كان ينبغي لك أن تقول إن جمالي لا
سبيل إلى وصفه » .

وضحكك جذلة وهوت إلى كرسي وهي ترشق أخاها سائين بعينها .
ورفعت ذراعها وبدت بذلك معالم صدرها الجميل وأخذت تخلع قبعها فسقط
دبوس طويل على الحصى فهطل شعرها ونقابها . فصاحت بالملازم الصموت
بصوت أجس « أندريه بافلوفتش ! أغنى » .
وتم سائين كمن يفكر بصوت عال وعينه مصوبة إلى اخته « نعم أنها
جميلة »

فالت إليه ليدا بطرفها في حياء وقالت : « إننا كانا حسان » .
فضحك سارودين عن تناياه الناصعة البراقة وقال : « ما هذا ؟ حسان ! !
ها ها ! لستنا نعدو أن نكون كالإطار يظهر وضاعة جمالك الباهر » .

فقال سائين دهشاً : « أقول يالها من فصاحة ! » .
وكانت في صوته نبرة خفيفة من التهمك .
فنطق تاناروف الصموت وقال : « إن ليدا بروفنا تحيل العبي فصيحاً » .
وكان يساعدها على نزع قبعها فهطل شعرها فادعت الغيظ وهي ماضية
في ضحكها .

وقال سائين « ماذا ؟ وأنت أيضاً فصيح ؟ » .
فهمس نوفيكوف في خبث ونفسه مرتاحة « دعهم يتمصحون ! » .
(م ٢ - ابن الطبيعة)

وقطبت ليذا جبينها لأخيها وكأنما كانت عيناها السوداوان تقولان له
بأصرح عبارة « لا تحسب أنى عاجزة عن استبطان هؤلاء النفر . إنما أبغى
أن امتنع نفسى وما أنا بالورهاء الحمقاء وأنى لأدرى ما أنا فيه » .

فابتسم لها سائين .

وتم أخيراً نزع القبعة . ووضعها تاناروف فى تؤدة ووقار على المنضدة .
ولكن ليذا صاحت به مداعبة مظهره الحقيق : « أندريه بافاوفتش ! انظر !
انظر ماذا صنعت لى ! لقد أفسدت شعرى فاختلط وسأضطر أن أدخل
البيت لأصلحه » .

فقال تاناروف مضطرباً متلعماً : « لى آسف جداً ! » .

وهمت ليذا وجمعت ذلال ثوبها وعدت ضاحكة وعيون الرجال
تتبعها وأحسوا لما خفيت عن أنظارهم كأنما خلصت أنفاسهم واستراحوا
من ذلك الشعور العصبي بالتهديد الذى يعانى به الرجال عادة فى حضرة فتاة
جميلة .

وأشعل سارودين سيجارة وجعل يدخنها بالتداذ واضح ، وكان المرء
يحس إذا سمعه يتكلم كأنما عادته أن يحدو الحديث وإن ما يجرى بذهنه
يخالف ما يجرى به لسانه وقال :

« لقد كنت أحاول أن أقنع ليذا بترفنا أن تدرس الغناء درساً جدياً
فإن مستقبلها مضمون ما دام لها هذا الصوت » .

فقال نوفيكوف مشمئزاً : « تالله ما أبدعها من مهنة ! » وأشاح بوجهه .

فسأل سارودين مستغرباً ونحى السيجارة عن فمه : « أى خير فى ذلك ؟ » .

فرد عليه نوفيكوف وقد حمى فجأة : « ما هى الممثلة ؟ إنها ليست
إلا مومسا ! » .

ومزقت قابله الغيرة وقطع نياطه ما تصوره من منظر هذه الفتاة التي يشتها جثمانها لاذ تبدوا أمام سواه من الرجال في ثوب فتان يكشف عن مفاتيها ويهيج عواطفهم .

فقال سارودين رافعا حاجبيه : « لا شك أنك تذهب إلى أبعد مما يجب . وكانت نظرة نوفيكوف كلها حقداً وبغضاً وكان يرى في سارودين لصاً ينوى أن يخطف عشيقته وأمضه — فضلاً عن هذا — حسن وجهه فقال : « كلا ! ليس في قولي تجاوز للحد . وتصور بروز المرأة على الملعب كاسية إلا أنها عارية — حاسرة في بعض الأدوار الشيقة عن مفاتيها الشخصية لاؤلك النظارة الذين لا يلبثون أن يزايوا المكان بعد ساعه أو نحوها كما ينمضون عن موسم بعد أن ينقدوها أجراها المعتاد ! الحق إنها مهنة فائنة ! » . فقال سانين : « يا أخى ، إن كل امرأة تحب أن يعجب الناس بمحاسنها الخاصة » .

فهز نوفيكوف كتفيه متعلماً وقال : « ما أحسن هذا القول وأسخفه ! » .

فقال سانين : « ليكن خشناً أو غير خشن . إنه الحق على كل حال . وأحر « بليدا » أن يكون لظهورها على الملعب أعمق وقع . وإلى لأشتاق أن أراها تم ... » .

وأحسوا كلهم بالقلق وإن كان هذا الكلام قد أثار في نفوسهم رغبة غريزية في الاستطلاع .

ولما كان سارودين يعد نفسه أذكى من زملائه وأحزم فقد بدا له أن ببدد جو الارتباك الغامض الذي اكتشفهم فقال :

« رمادا تطنون الفتاة حقيقة أن تصنع ؟ أتزوج ؟ أم تأخذ في نهج دراسى أم تدع مواهبها تأسن ؟ إن هذا يكون جريمة ضد انطبيعها التي جادت

فقال سانين ولم يخف تهكمه : « آه ! إن فكرة هذه الجريمة لم تخطر لي قبل هذه الساعة » .

وضحك نوفيكوف ضحكة خبيثة . ورد على سارودين متوخيماً الأدب :
« لماذا تعدها جريمة ؟ لأن تكون المرأة أما صالحة أو طيبة خير ألف مرة من أن تكون ممثلة » .
فقال تاناروف محققاً : « كلا » .

فسألهم سانين : « ألا ترون هذا النوع من الحديث مملاً ؟ » .
واكن سؤاله ضاع في نوبة سعال وكان الواقع أنهم جميعاً يعدون هذه المناقشة مدعاة للضحك وهي بعد لا ضرورة إليها على أنهم مع هذا ساءهم قول سانين فلزموا صمتاً بغيضاً .

ثم ظهرت ليذا وأمها ماريّا إيفانوفنا على الشرفة . وكانت ليذا قد سمعت آخر ما نطق به أخوها وإن لم تدر ما يشير إليه ، فقالت وهي تضحك :
« أرى الملل اعتوركم بسرعة فلنمض إلى النهر فإنه الساعة رائق » .
ومشت أمام الرجال وقوامها الأنيق يخطر قليلاً وفي عينها نظرة مبهمة يخيل إليك أنها قائلة بها شيئاً أو واعدة بشيء .
وقالت أمها : « تمشوا إلى وقت العشاء » .

فصاح سارودين : « يسرنى ذلك » وعرض على ليذا ذراعه .
وقال نوفيكوف متهمكماً : « أرجو أن تسمحوا لي بمرافقتكم » .
ولكن وجهه كانت عليه سمات من يهم بالبكاء .
فقالت ليذا : « ومن ذا يمنعك ؟ » .

وأرسلت إليه نظرة باسممة عن كتفها .

وقال سانين : « نعم اذهب أنت الآخر . وقد كنت أحب أن أرافقتكم لولا أنها مقتنعة بأنى أخوها » .

فاضطربت ليدا وأسرعت ناظرة إليه وأرسلت ضحكه قصيرة عصبية .
وبدا على ماريا إيفانوفنا الامتعاض وقالت :
« لماذا تتكلم على هذا النحو السخيف ؟ أظنك تحسبه أسلوباً مبتكراً ؟ » .
فقال سانين : « الحقيقة أنى لم أفكر فى هذا على الإطلاق » .

ونظرت إليه أمه وهى مذهولة . وكانت لا تفهم ابنها ولا تعرف
أذهب هو إلى الجد أم يقصد إلى الدعابة . ولا تدرى فيم يفكر وماذا يحس
على حين ترى الناس المفهومين غيره يفكرون ويحسون مثلاً . وعندها أن
الرجل يجب أن يفكر ويحس ويعمل كما يفكر ويحس ويعمل غيره من أئداده
المماثلين له من حيث المنزلة الاجتماعية والعقلية . ومن رأيها كذلك أن الناس
ليسوا رجالاً متميزى الشخصيات والخصائص وإنما ينبغى أن يصبوا جميعاً
فى قالب واحد عام وشجعها البيئة على اعتناق هذه العقيدة رقررتها فى نفسها
فذهبت إلى أن التربة من شأنها أن تجعل الناس فريقين لا ثالث لهما : أصحاب
العقول والجهلاء ، وللفريق الثانى أن يحتفظ بشخصيته إذا شاء ولكن هذا مجلبة
لامتهان الآخرين ، وأول الفريقين ينقسم إلى طوائف ولكن آراءهم لا تطابق
صفاتهم الشخصية بل مراكزهم الاجتماعية . ومن هنا كان كل طالب ثوريا ،
وكل موظف مدنياً ، وكل فى ملحد ، وكل ضابط طالب رتبة ، فإذا حدث مصادفة
أن طالباً مال إلى مبادئ المحافظين ، أو أن ضابطاً صار فوضوياً ، فلا بد أن يعد
هذا أمراً شاذاً باعثاً على أشد العجب بل مستنكراً . وإذا ذهبنا نعتبر سانين وأصله
وتربيته رأينا أنه كان ينبغى أن يكون على خلاف ما هو ولذلك أحست ماريا
إيفانوفنا - مثل ليدا ونوفيكوف وسائر من اتصل به - أنه خيب الأمل فيه .
ولم يفت غريزة الأم ما يقع فى نفوس الناس من ابنها فتألمت .

ولم يكن سانين يجهل ذلك وكان يود لو طمأنها . غير أنه لم يدرك كيف يعالج
ذلك مبتدئاً . وخطر له أولاً أن يرأى ويدعى المكذوب من العواطف ليهادأ
روعها ولكنه لم يفعل شيئاً سوى أن ضحكت .

ثم قام وخرج وظل برهة في سريره مستلقياً يفكر وخیل إليه كأنما يريد الناس أن یخیلوا الدنيا ثكنة عسكرية خاضعة لقائمة من القواعد والأصول الجبولة للقضاء على التخمينية أو یجعوها طوع قوة ما غامضة عتيقة . وأخب به التفكير وأوضع حتى تناول المسيحية ومصيرها وإمكانه مل هذا الشأن حتى أخذه النوم ولم يستيقظ إلا بعد أن حال المساء ليلاً حالكا .

ولاحظته أمه وهو يخرج وزفرت هي أيضاً واستغرقتها الفكر وحدثت نفسها أن سارودين يتحجب إلى ليذا خاطباً ودها وتمت أن يكون الأمر جدياً وقالت لنفسها : « قد بلغت ليذا العشرين ، وسارودين رجل حسن على ما يظهر ، وقد سمعت أنه سيعطى قيادة في هذا العام . نعم لأنه غارق في الدين - ولكن ... لماذا رأيت ذلك الحلم السنيح ؟ وإني لأدري أنه خاطر سخييف غير أنني لا أستطيع أن أنخل منه رأسي ! » .

وكان الحلم الذي رأيته قد بدا لها في نفس اليوم الذي دخل فيه سارودين البيت لأول مرة فخیل إليها أنها رأيت ليذا في ثياب بيضاء تسير في مروج خضراء متألفة الأزاهير .

وجلست ماريا إيمانوفنا على كرسي وثير وأسندت رأسها إلى كفها كما تفعل العجائز وتأثرت نظرها إلى السماء المظلمة وساورتها الخواطر السوداء وعذبتها ولم تدع لها راحة وأحست شيئاً مبهماً أثار مخاوفها وأزعجها .

(٣)

كان الظلام قد خيم لما انقلب القوم عائدين من الحديقة . وكانت أصواتهم الصافية الحادة تدوى في الغسق اللين الذي اكتشف الحديقة فجرت ليذا إلى أمها ضاحكة متألفة الوجة وحملت معها طيب النهر

مشوياً بأرج جمالها وريا شبابها. الغض تضوعه رفقة المعجبين ومصاحبة
المفتونين .

وصاحت بأمرها مداعبة لها وجرتها معها : « العشاء يا أماء ! هات لنا
العشاء ! وفي خلال ذلك يغنينا فيكتور سرجيفتش » .

فخرجت ماريا إيفانوفنا لتبني العشاء ونفسها تحدثها أن القدر لا يسعه
على التحقيق أن يدخر غير السعادة لفتاة جميلة ساحرة مثل ابنتها ليدا .
ومضى سارودين وتاناروف إلى البانوف في حجرة الاستقبال .

واطرحت ليدا في فتور وكسل على كرسي هزاز على الشرفة .
وجعل نوفيكوف يروح ويحيئ صامتاً على أرض الشرفة ويخالس النظر إلى
وجه ليدا وصدرها الناضج المكتنز وقدميها الصغيرتين في حذاءيها الأصفر
وساقها الرشيقتين وهي في غمرة من سحر الحب الأول وسطوته
لا تكترث إليه ولا تلتفت إلى لحظاته فأغمضت جفניה وابتسمت لما
يطوف برأسها من الخواطر .

وكان الصراع القديم دائراً في صدر نوفيكوف : يحب ليدا
ولا يدري ما شعورها نحوه ويخطر له أحياناً أنها تحبه ويهجنس بقلبه
أحياناً أخرى أنها لا تعبأ به وإذا خال الخواب « نعم تحبك » قال
لنفسه : ما أحلى وأسهل أن يؤاويه هذا الجسم النقي الابن . وإذا كان
« لا » فياله من خاطر بغيفض بشع ! وراح تغضبه شهوته وذهب يعد
نفسه ندلاً غير أهل لليدا .

ولما أنضته هواجسه آلى أن يستهدى الخط . « إذا دست بقدمي
اليمينى على آخر مربع خطبتها لنفسى وإذا دست بقدمي اليسرى فـ... »
وجبن عن التفكير فيما يحدث في هذه الحالة .

وداس المربع الأخير بقدمه اليسرى ! فتصبب العرق البارد ولكنّه
لم يلبث أن طمأن نفسه وهون الخطب عليها .

« يا لها من سخافة ! لقد أشبهت العجائز ! والآن : واحد . اثنان . ثلاثة . — فى الثالثة أذهب إليها وأكلمها . نعم ولكن ماذا أقول ؟؟ هذا لا يهم ! فلأمرض ! واحد . اثنان . ثلاثة ! كلا ! بل ينبغي أن يكون العد ثلاث مرات ! واحد . اثنان . ثلاثة ! واحد . اثنان — » .

والتهب ذهنه وعصب ريقه وبلغ من عنف دقات قلبه أن ركبته تخادلتا وارتعشتا .

وصاحت به ليدا وفتحت عينها : « لا تحبط الأرض كذلك ! إني لا أسمع شيئاً ! » .

فى هذه اللحظة فقط أدرك نوفيكوف أن سارودين يغنى . وكان الضابط الفنى قد اختار أغنية قديمة مقلها :

« أحببتك مرة ! »

« وهل يسمعك أن تنسى ؟ »

« وما زال الحب يلعب قلبى »

ولم يكن ضناؤه قبيحاً ولكنه كان كأحداث الفن يعالج الأداء بالمبالغة فى تخريج الأنغام .

ولم يلف نوفيكوف ما يلذه فى هذا العمل فسألها بمرارة غير مألوفة « ما هذا ؟ أغنية من تأليفه ؟ » .

فقالت بحدة : « كلا ! لا تقلقنا من فضلك . اجلس . وإذا كنت لا تحب الموسيقى فاذهب وانظر إلى القمر ! » .

وكان القمر فى هذه اللحظة يصعد من وراء قمم الأشجار السوداء — كبيراً مستديراً متوهجاً ولمست أشعته اللينة الدرج الحجرى وامتدت إلى توب ليدا واستراحت إلى وجهها الباسم المفكر وكانت الظلال فى الحديقة قد تكاثفت وصارت لها جهامة ظلال الغاب وعمقها .

فتمتم نوفيكوف : « أنت عندى خير من القمر » ثم لنفسه :
« إنها لكامة سخيقة ! » .

فاستضحكت ليدا وقالت : « ياله من إطراء خشن ! » .

فقال باكتئاب : « لست أحسن الإطراء » .

— « محسن . إذاً فاجلس واستمع » .

وهزت كتفها متضايقة .

ومضى سارودين يغنى :

« ولكنك لا تعباين بى فلماذا أحزنك بهيموى » .

وكانت أنغام البيانو تدوى فضية الرنة فى جوانب الحديقة الخضراء
الرطبة . وأخذ ضوء القمر يزداد تألقاً والظلال سوادا .

ومضى سائين إلى شجرة الزيزفون وجلس فى ظلها وهم أن يشعل
سجارة ، ولكنه وقف فجأة وجد كأنما سحره سجو الليل الذى زاد
فى سكونه البيانو وذلك الصوت الطرى الفتى ولم يزعجه .

وقال نوفيكوف مسرعاً كأنما ينبغى أن لا تفلت هذه اللحظة :
« ليدا بتروفا ! » .

فقالت وهى تلحظ الحديقة والقمر والأغصان الخالكة بادية تحت
قرصه الفضى : « ماذا ؟ » .

— « لقد طال انتظارى — أعنى أريد أن أقول لك شيئاً » .

وأمال سائين رأسه مصغياً .

وسألت ليدا وهى غائبة الذهن : « أى شىء ؟ » .

وكان سارودين قد فرغ من أغنيته ثم عاد يغنى بعد فترة وكان
يعتقد أن له صوتاً باهر الجمال وكان يحب أن يسمعه .

وأحسن نوفيكونف أن وجهه يحمر ثم يمتقع كأنما يوشك أن يغشى عليه
ثم قال :

— « إني — اسمعي يا ليذا بتر و فنا — هل تقبلين أن تصبحي لى زوجة ؟ » .
وكان وهو يتمتم هذه الكلمات يحس أنه كان ينبغي أن يقول شيئاً يخالفها
وأن عواطفه كان يجب أن تكون غير ذلك أيضاً وما كاد ينطق بها حتى أيقن
أن الجواب سيكون « لا » ووقع فى نفسه أن أمراً بالغاً غاية السخافة سيحدث .
فسألتها ليذا : « زوجة من ؟ » .

ثم ما عتمت أن صبح وجهها الخجل فنهضت نهوض من يهم بالكلام
ولكنها لم تقل شيئاً .
وانصرفت عنه بوجهها وهى مرتبكة فاستقبلها القمر بنوره وقال
نوفيكونف : « إني احبك ! » .

ولم يعد القمر يضىء فى عينه وأخذ بمخنقه النسيم وسعر كأن الأرض
ستنشق تحت قدميه ثم قال :

— « لست أحسن إلقاء الخطب — ولكن — هذا لا يهم — إني احبك جداً » .
ثم حدث نفسه « أقول جداً ؟ لكأنى أحدثها عن القسدة المثلجة ! » .
وأخذت ليذا تعبت وهى مضطربة بورقة صغيرة هوت عن الشجرة إلى
يديها وسحيرها ما سمعت إذ كان غير متوقع ولا طائل تحته . هذا إلى أنه أشعرها
إحساساً جديداً من الكلفة البغيضة بينها وبين نوفيكونف الذى كانت تنزله منذ
صباها منزلة القريب وتحبه على هذا الاعتبار فقالت :

« لا أدري ماذا أفول ؟ إني ما فكرت فى هذا قط ! » .

فأحسن نوفيكونف ألماً وفتوراً يعتوران قلبه كأنما سيكف عن الخفقان
ونهض مصفراً وتناول فبعتته .

وقال وهو لا يكاد يسمع صوته وتلوت شفاته المرتجفتان عن ابتسامة
لا معني لها : « عمي مساءً » .

— « أذهب أنت ؟ عم مساءً » .
 وضحكت ضحكة عصبية ومدت يدها فصافحها نوفيكوف مسرعاً وسار
 دون أن يغطي رأسه إلى الحديقة ولما بلغ الظل وقف بجامداً وأمسك رأسه
 بكلمات يديه وحاطب نفسه :
 « رب ! لقد قضيت لي مثل هذا الحظ ! أقتل نفسي ؟ كلا ! هذه
 سخافة ! أقتل نفسي ؟ » .
 ودار بذهنه كل خاطر ضال غامض بمثل خطف البرق . وأحس أنه
 أشقى الناس وأذلهم وأسخفهم .
 وأراد سائين أن يناديه ولكنه رد نفسه واقتصر على الابتسام مرتئياً أن من
 الخوف أن يمزق نوفيكوف شعره وأن يبكي لأن امرأة يشتهي جسمها لم تشأ
 أن تبذله له وسره في الوقت نفسه أن أخته الجميلة لا تحفل بنوفيكوف .
 وظلت ليذا لحظة وهي جامدة في مكانها . وكان خيالها الأبيض في ضوء
 القمر قيد لحظ سائين .
 ثم خرج سارودين من الحجرة المضاءة إلى الشرفة .
 وكان سائين يسمع صوت مهمازه بوضوح .
 وظل تالاروف في الغرفة يوقع لحنا شجياً عتيقاً جعلت أنغامه المحملة تسبح
 في الجو .
 ودنا سارودين من ليذا ولف ذراعه بلطف وحذق حول خصرها .
 وراهما سائين يلتصقان حتى صارا شخصاً واحداً يترنح في الضوء الغائم .
 وهمس سارودين في أذنها : « ما بالك تفكرين ؟ » .
 والتمعت عيناه لما لامست شفتاه أذنبا اللطيفة الجميلة .
 وشاع في نفس ليذا الطرب والخوف معاً ودبت في عودها هزة كانت
 تحسنها كلما عانقها سارودين . وكانت لا تخفي عنها أنه دونها ذكاء وتهذيباً وأنه
 لا قبل له بالاستبداد بها والغلبة عليها غير أنها في الوقت نفسه سرها وأفزعها أن
 تدع هذا الشاب الوسيم القوي يلامسها . وكأنها تنظر إلى هاوية سحيفة ملتأثة

الأمر وحدثتها نفسها أنها تستطيع أن تلقى بنفسها فيها إذا شئت فقالت بصوت لا يكاد يسمع : « سيرونا » .

ولم تشجعه على احتضانها ولكنها على هذا لم تنفر منه فهاجه منها هذا الإمكان السلي .

فقال : - « كلمة واحدة - لا أكثر » - وشدها إلى صدره وعرفه تنبض بها الرغبة : « هل توافيني ؟ » .

فارتجفت ليدها ولم تكن هذه أول مرة سألها ذلك وكانت كل مرة تحس رجفات غريبة تسلبها إرادتها .

فسألته بصوت خافت وهي تحلم إذ تنظر إلى القمر « لماذا ؟ » .

- « لماذا ؟ لتكوني قريبة مني ولأراك وأحدثك . آه إنه لعذاب ؟ نعم ياليدا إنك تعذبيني . والآن هل توافيني ؟ » .

قال ذلك وجذبها إليه بقوة الرغبة الجاحدة به وكأنما لامسها منه حديد ملتهب سرت في أعضائها وقدرته وكأنما لفها ضباب كثيف حالم ضاغط . فتوتر جسمها اللين المرن ثم مالت إليه والسرور والخوف يرعشان منه . وعاد كل ما حوّلها وقد تغيرت وجوهه فجأة تغييراً عجيّباً . ولم يعد القمر قمر بل دنا فحاذى مظلة الشرفة وصار كأنما هو معلق فوق بساط الروضة . وحالت الحديقة عما عهدته وتبدلت أخرى غامضة مستبهمة زحفت إليها والتفت بها . وهاج ذهنها وتراجعت وتخلصت بفتور عجيب من عناق سارودين وتمتمت بصعوبة وقد جفت شفتاها وابيضتا : « نعم » .

وانقلبت إلى البيت بخطى غير ثابتة وأحست أن شيئاً مرعياً إلا أنه مغر يجرها إلى حرف الهاوية . وقالت لنفسها وهي تفكر « هذا كلام فارغ ؟ وليس الأمر كذلك . إنما أمزح . ويلدلى هذا ويسليني أيضاً . لا أكثر ولا أقل » . وهكذا حدثت نفسها لتتبعها وهي تواجه المرأة المطلعة في غرفتها . ولم تر في صقالها إلا ظلها الأسود قبالة الباب الزجاجي لعرفة الطعام المضئمة . ورفعت ذراعها في بطاء فوق رأسها وتمطت في كسل وفتور وجعلت وهي تفعل ذلك تتأمل حركات عودها اللين وتحس لذتها .

أما سارودين فإنه لما صار وحده اعتدل ونفض عن أعضائه فتورها وكانت عيناها مفتوحتين كمغمضتين وابتسم فالتفت ثناياه تحت شاربها اللطيف .

وكان الحظ قد عوده أن يؤاياه وتوقع في هذه المرة أن ينال من المتع واللذات ما هو أعظم في المستقبل القريب .

وتمثلت لعينه ليذا وجمالها المثير ساعة تبذل له منه وعصفت به هذه الصورة فأحس لها ألماً جثمانياً .

وكانت ليذا في مبدأ الأمر وإذ هو لا يزال يتودد إليها وحتى بعد ذلك لما أذنت له أن يعانقها ويقبلها — لا تنفك تشعره شيئاً من الخوف . وكان يطالعه من عينيها السوداوين وهو يسمح بيده شعرها شيء عجيب لا يفهمه كأنما تحتقره في سريرتها .

وكانت أبداً تبدو له أبرع من غيرها من النساء اللواتي لم يشعر في حضرتها إلا بأنه أسمى منهن وأرقى . وهي من الاختلاف عنهن ومن الشموخ بحيث كان يتوقع إذا قبلها أن تلصقه بجميع يدها على أذنه .

فكادت فكرة احتيازها تبيت مزعجة ومرت به أحيان اعتقد فيها أنها إنما تعبت به فكان موقفه في نظره غاية السحافة والحمق .

أما اليوم بعد هذا الوعد الذي قطعه له مترددة متاعمة كغيرها من النساء فقد صار على يقين من قوته ومن وشك الظن ولم يبق عنده من ريب في أن الأمور ستجري على ما يحب . واختلط عنده الإحساس الناشئ عن انتظار مواعده اللذات بشيء من الكيد ، هذه الفتاة الطاهرة المهذبة المزهوة ينبغي أن تبذل له نفسها كما فعل سواها وسيستمتع بها وفق هواه كما استمتع بغيرها .

ومتلت لعينه مناظر مما صورت الشهوة والانحطاط : وصارت ليذا في حياله — عارية متهدلة الشعر حول عينيها ما من سبيل إلى سبر غورها —

الصورة البارزة فيما حرك أنسبهاه قصص الشهوة والقسوة المضطرب . ثم بدت له فجأة على أوضح صورة منطرحه على الأرض وسك مسمعه هزم السوط وأخذت عينه خطا داميا على جسمها العريان اللين الخاضع فنبض رأسه لهذه الصورة وتطرح متراجعا ورقصت لعينيه شرارات نار وعادت وطأة الفكرة أثقل مما يطاق وارتعشت يده وهو يشعل سيجارة وتلوت أعضاؤه القوية تلوى التشنج ثم دخل الغرفة .

وكان سائين لم يسمع شيئا إلا أنه رأى وفهم كل شيء فتبعه وفي نفسه مثل الغيرة وقال لنفسه « أمثال هذا الوحش يمالئهم الحظ دائما . ماذا ترى معنى هذا كله ؟؟ ماذا يهمان به هو وليدا ؟ » .

ولما جلسوا إلى العشاء كانت ماريلا إيفانوفنا غير مرتاحة على ما يظهر ولم يقل تاناروف شيئا - كعادته - ولكنه كان يتمنى أن يكون سارودين وأن تكون له عشيقة مثل ليديا نخبه . إذا لأحبها ولكن على طريقة أخرى فإن سارودين - في رأيه - لا يحسن تقدير حسن حفظه . وكانت ليديا ممتعة صامتة لا تنظر إلى أحد .

أيما سارودين فكان جنلا طروبا متحفزا كالوحش استروح فريسته .

وجلس سائين يتأدب على عادته وأكل وشرب كثيرا من النبيذ وكأنما كان يريد أن ينام ولكن العشاء لم يكمل ينتهي حتى أعلن عزمه على مرافقة سارودين إلى مسكنه .

وكان الليل قد أوشاك أن ينتصف والقمر يصب ضوءه على رأسيهما ، وهما سائران في صمت إلى تكتة الضابط .

وكان سائين لا يفتأ من حين إلى حين يختلس النظر إلى سارودين ويفكر فيما ينبغي له أيلطمه على وجهه أم لا يلطمه . ثم قال فجأة لما قاربا البيت : « نعم ؟ إن في هذه الدنيا كل أنواع الأندال ؟ » .

فسأله سارودين ورفع حاجبيه : « ماذا تعنى بهذا ؟ » .
 — « إن الامر كذلك — على العموم — والأنذاك أعظم الناس فتنه وأخذاً » .
 فقال سارودين باسم « أوتعنى ماتقول ؟ » .

— « نعم هم كذلك . وليس أبعث على كرب النفس وضيق الصدر ممن يسمونهم الأعفة والفضلاء . ماهو الرجل الفاضل ؟ إن كل امرئ يعرف برنامجه العفة والفضيلة . وعلى هذا فليس فيه من جديد : ومثل هذه الفضلات العتيقة تسلب المرء كل شخصيته فيقضى حياته في حدود الفضيلة الضيقة المملة . لا تسرق ، لا تكذب ، ولا تعش ، ولا تزن . والمضحك في هذا الأمر أن كل من يولدون سواء ! فكل امرئ يسرق ويكذب ويغش ويزنى على قدر ما يستطيع » .
 فقال سارودين محتجاً نازعاً إلى التعالى « ليس كل أحد » .

— « نعم . نعم . كل إنسان ! وما عليك الآن تفحص حياة المرء لتعرف ذنوبه . خذ الغدر مثلاً . فبعد أن تؤدى ما لقيصر لقيصر ونؤوى في سكون إلى فراشنا أو نجلس إلى المائدة نرتكب كل أصناف الغدر » .

فصاح سارودين وبه بعض الغضب : « ماهذا الذى تقول ؟ » .
 — « إننا نفعل هذا على التحقيق . تؤدى الضرائب ونقضى مدة الخدمة في الجيش . نعم ولكن معنى هذا أننا نؤذى ملايين من الخلق بالحرب وبالظلم اللذين نمقتهما . ونذهب في سكون إلى الفراش على حين ينبغي لنا أن نبادر إلى إنقاذ من يقضون نحبهم في هذه اللحظة لأجانبنا وفي سبيل آرائنا . ونصيب من الطعام أكثر مما بنا حاجة إليه ونندع غيرنا يموتون جوعاً وكان واجبنا — ونحن رجال فضل وخير — أن نقف حياتنا كلها على خيرهم . وهكذا تجرى : الأمور والمسألة واضحة . أما النذل — النذل الحقيقي الصميم — فخلق آخر . فهو أولاً مخلوق مخلص طبيعي الأحوال » .

— « طبيعى ؟ » .

— « بلا شك ! إنه لا يفعل سوى ما يفعله الرجل بطبيعته . يرى شيئاً ليس له ، شيئاً تميل إليه نفسه ، فيأخذه . ويرى امرأة حسناء لا تريد أن تبذل له نفسها فيعالجها بالقوة أو بالحيلة وهذا طبيعي جداً . إذ كانت الرغبة والغريزة التي تتطلب لإرضاء النفس من المميزات القليلة بين الإنسان والحيوان . وكما كان الحيوان أكثر حيوانية كان أقل فهماً للذة وأضال إدراكها وأعجز عن نيلها إذ كان لا يعنيه إلا سد حاجاته . ونحن متفقدون على أن الإنسان لم يخلق ليتعذب وإن العذاب ليس قبلة المساعي الإنسانية » .
فقال سارودين : « بلا شك » .

— « حسن جداً إن اللذة هي غاية الحياة الإنسانية . والفردوس كلمة مرادفة للتمتع المطلق . وكلنا يحلم بفردوس أرضي وليست إسطورة الفردوس بسخافة وإنما هي رمز أو حلم » .

ومضى سانين في كلامه فقال بعد فترة : « نعم إن الطبيعة ما أرادت قط أن يكون الإنسان زاهداً . وأعظم الناس إخلاصاً وصدق سريرة هم أولئك الذين لا يكتمون رغباتهم أى أولئك الذين يعدم اجتماع أندالا — أناساً مثل — مثلك مثلاً » .

ففزع سارودين متراجعاً مذهولاً ومضى سانين في حديثه متظاهراً بأنه لم يلحظ ما بدر من صاحبه وقال :

« نعم مثلك . أنت خير رجل في هذا العالم . أوعلى الأقل أنت تحسب أنك كذلك . قل لي ، هل . صادفت قط من هو خير منك ؟ » .

فقال سارودين متردداً : « نعم كثيرين » ولم يكن في ذهنه أضال فكرة عما يعنى سانين ولا كان يعلم هل ينبغي له أن يتظاهر بالسرور أم بالسخط .
فقال سانين : « حسن . سسهم أسماءهم . تفضل » .

فهز سارودين كتفيه كمن هو في شك . فقال سانين مهللاً : « هاذا أنت قد عجزت ! إنك أنت خير الأخيار وكذلك أنا . ومع ذلك فإننا نحن الإثنين لا نرى ما يمنعنا أن نسرق أو أن ننسج الأكاذيب أو أن ننزى — وعلى الخصوص أن ننزى » .

فتمتم سارودين وهو يهز كتفيه للمرة الثانية : « ياله من رأى مبتكر »
فسأله سائين وعلى نبرة صوته ظل خفيف من عدم الارتياح : « أتظن ذلك ؟
إني لا أظنه ! نعم . الآنذا لكما قلت هم أشد من يتصورهم العقل إخلاصاً
لأنهم لا يرون حدود الدناءة الإنسانية ، ويسرنى دائماً على الخصوص أن أصافح
نذلاً »

ولم يكذب يقولها حتى وضع يده في يد سارودين وهزها هزاً عنيفاً وعينه
محمقة في وجهه ثم قطب وقال بإيجاز فيه من سوء الأدب مافيه : « عم مساء »
وانصرف عنه .

وظل سارودين برهة وهو جامد يرقبه ولا يدري على أي محمل يحمل مثل
هذا الكلام من سائين ، فحار وقلق ثم فكر في ليذا وابتسم : أن سائين أخوها
وماقاله صحيح في الواقع . وأخذ يحس نوعاً من العلاقة الأخوية به ، وقال
لنفسه وقد استشعر الرضى عنها : « إنه لرجل ممتع ! » كأنما سائين بعض ما يملك .
ثم فتح البوابة واجتاز الفناء المقمر إلى غرفه .

أما سائين فإنه لما بلغ البيت خلع ثيابه واستلقى على فراشه وحاول أن يقرأ
« هكنا قال زردشتر »^(١) وهو كتاب وجدته في مكتبة ليذا ولكن الصفحات
الأولى كانت كافية لتزهيده فيه . وهو رجل لا يحرك نفسه مثل هذا الأسلوب
المنتفخ فبصق ورمى بالكتاب جانباً وما عزم أنه أخذه النوم .

(٤)

كان الكولونيل « نيقولا ييجوروفتش سفاروجتش » المقيم بهذه البلدة
الصغيرة ينتظار وصول ابنه الطالب بمدرسة الصناعات في « موسكو » . وكان
ابنه هذا تحت مراقبة البوليس فطرده من موسكو لاشتباهم فيه ولظنهم
أن بينه وبين الثوريين تواطؤوا .

وكان « يوري سفاروجتش » قد كتب إلى أبويه من قبل يبلغهما خبر القبض
عليه وسجنه ستة شهور وطرده من العاصمة فتهياً لأوبته .

(١) اسم كتاب ليتشمه العليوف الالانى المشهور .

ومع أن أباه نيقولا عد الأمر من أوله إلى آخره حماقة صبيانية إلا أنه تألم إذ كان مشغولاً بابنه فاستقبله فاتحاً له ذراعيه واجتنب أن يشير إلى هذا الموضوع المؤلم وكان « يورى » قد قضى يومين كاملين مسافراً في الدرجة الثالثة ولم تغتمض عيناه لحظة لفساد الهواء ولما آذاه من كربه الروائح وصياح الأطفال فخارت قواه ولم يكديح أباه وأخته لودميلا « ويسمونها في العادة لياليا » حتى استلقى على فراشه ونام .

ولم يستيقظ إلا مساء والشمس دانية من الأفق . نفذت أشعتها المائلة من زجاج النافذة ورسمت على جدران الغرفة مربعات وردية . وسمع يورى في الغرفة المحاورة صوت الملاحق والأكواب وصافحت أذنه ضحكة لياليا الجذلة وصوت رجل كذلك — لذيذ مصقول لا يعرفه .

وقام في نفسه ساعة استيقظ أنه مازال في مركبة القطار وسمع ضوضاء وصوت زجاج نوافذه والركاب في الجانب الثاني ، غير أنه لم يلبث أن عرف أين هو الآن فاعتدل في فراشه وقال وهو يتثائب :

« نعم هذا أنا هنا »

ثم عبس وهو يزج أصابعه في شعره الكثيف الأسود القوى .
ثم خطر له أنه لم يكن ينبغي أن يعود إلى بيته ولقد تركوا له أن يختار مكاناً يقيم فيه فلماذا عاد إلى أبويه ؟
لم يستطع أن يعلل ذلك .

واعتقد ، أو شاء أن يعتقد أنه اختار المكان الذى خطر له . ولكن هذا لم يكن الواقع . فإن يورى لم يضطر قط أن يكدح ليعيش ، وكان أبوه لا يزال يمدد بالمال وقد استهول أن يعيش وحده وبلا مورد بين قوم أغراب . وأخجله هذا الإحساس واستكره أن يعترف به لنفسه .

والآن خطر له أنه أخطأ . ويمكن أن يفهم أبواه حكايته كلها أو أن يكونا رأيا ما في قصته — هذا شيء واضح — وهناك إلى جانب هذا

— المسألة المادية والأعوام العديدة الضائعة التي كلفت أباه . ومن شأن هذا أن يجعل من المستحيل حصول التفاهم الودى المتبادل . يضاف إلى ذلك أن الحياة خليقة أن تكون ثقياة الإملال فى هذه البلدة التى لم يرها منذ عامين . وكان يورى يعد أهل البلاد الريفية الصغيرة ضيقى العقول ، عاجزين عن أن يدركوا أو يكثرثوا لتلك المسائل الفاسفية والسياسية التى يراها الشىء المهم الوحيد فى الحياة .

نهض يورى وفتح النافذة وأطل وكان على طول جدار البيت حديقة زهر صغيرة يانعة ما بين أحمر وأصفر وأزرق وقرمزى وأبيض فكأنها الكليد سكوب^(١) ومن ورائها الحديقة الكبيرة البهجة الممتدة إلى النهر كغيرها من حدائق هذه البلدة وهو يلتمع كالزجاج الخالى باديا من خلال الأشجار .

وكان المساء ساكناً صافياً وخالج يورى اكتئاب غامض وكان قد طال مكثه وإلفه للمدن الكبيرة المشيدة بالأحجار ومع أنه يحب أن يتوهم أنه يعشق الطبيعة فإنها لم تجد عليه بشىء : لا السلوى ولا سكون النفس ولا الانتسراح . ولم تثر فى صدره إلا حنيناً مبهماً حالماً مدنفاً .

ودخلت (لياليا) الغرفة وقالت « آها . لقد قت أخيراً ! وجاء قيامك فى حينه »

وكاد يورى — لثقل إحساسه بقلق مركزه وبشجى النهار — يقضى بجه . يضايقه مراح أخته وصوتها الطروب فسألها على غير انتظار :

— « بأى شىء سرورك هذا ؟ »

— « انى لا أضجر ! »

وفتحت عينها وضحكت مرة أخرى كأنما أذكراها سؤال أخيها أمراً ممتعاً وقالت « وتصور سؤالك إياى ماذا يسرنى ؟ أنا لا أعرف السأمة . كلا : ليس عندى متسع من الوقت لهذا »

(١) مطار فى أحد طرفيه قطع ملوبة يتألف منها شكل حديد كلما هزتها .

ثم قالت بصوت وطيد وقد زهاها ما قالت : « إننا نعيش في أيام فيها من المتعة ما يجعل السامة ذنباً . وعندى العمال أعلمهم ثم المكتبة تستنفد شطرا عظيما من وقتي، فقد أنشأنا في ضيالك مكتبة عامة وهي سائرة على منوال حسن» ولو أن هذا قيل له في أى وقت آخر لبعثه على الاهتمام ولكنه لم يكثرث الآن لسبب ما .

وظلت لياليا جادة تنتظر انتظار الطفل ثناء أخيها .

فتمكن أخيراً من أن يقول : « حقيقة ؟ »

فقالت بصوت الراضى المطمئن : « إذا كان هذا كله أمامك فهل يسعك أن تحمل ! »

فلم يملك يورى أن يقول : « على كل حال أرى كل شئ يضجرنى »

فتظاهرت أخته بالاستياء وقالت : « ما ألطف هذا منك ؟ إنه لم تمض عليك ساعتان في المنزل قضيتهما نائما ومع ذلك فقد ضجرت ! »

فأجابها بلهجة فيها بعض الشموخ : « إن هذا ليس خطئى ولكنه سوء حظى » وظن أن من دلائل الذكاء السامى أن يضجر لا أن يسر .

فقالت متهمكة « سوء حظك حقيقة ! ها ها »

وداعبته بكفها على خده : « ها ها »

ولم يفتن يورى إلى أن مزاجه اعتدل وأن صوت لياليا الطروب ومراحها قد أمطا عن نفسه الكتابة التى كان يحسبها حقيقة عميقة ولم تكن لياليا تؤمن بكأبته هذه ومن أجل هذا لم يقلقها ما قال .

ورفع يورى طرفه إليها وقال وعلى وجهه ابتسامة :

— « إني لا أعرف الجدل أبداً »

فضحككت منه « لياليا » كأنما كان قال ما يغرى بالاستغراق في الضحك وقالت :

— « حسن جداً أيها « الفارس ذو الوجه العبوس » إذا لم تكن بالمتشرح

فلمست به . دعك من هذا وتعال معى لأعرفك بشاب فاتن تعال . »

وهزت يد أخيها وجرتة معها وهى تضحك :

— « قفى . من هذا الشاب الفاتن ؟ »

— « خطيبي » .

قالت ذلك وهي فرحة مضطربة واستدارت بسرعة فانتفخ ثوبها .
وكان يورى يعلم من رسائل أبيه وأخته أن طبيباً شاباً نزل بالبلدة وأنه
يخطب ودها ولكنه لم يكن يعلم أن خطبتهما صارت أمراً واقعاً .

فقال وبه دهشة : « هل تعنين هذا حقاً ؟ »

وخيل إليه أن من بواعث العجب أن يكون لأخته لياليا الصغيرة الحسنة
النضرة عاشق وهي تكاد تكون طفلة ، وأن توشك أن تصبح عروساً وزوجه .
وخالجه العطف على أخته والمرثية لها . فلف ذراعه حول خصرها ومضى معها
إلى غرفة المائدة حيث كانت تلتصق آنية الشاي الصقيلة في ضوء المصباح فألقى
بجانب أبيه شاباً وثيق التركيب ، قوى معارف الوجه مليحها ، حاد العينين براقها
إلا أنه ليس بالروسى في سحنته . وكانا جالسين إلى المائدة فوقف الشاب لما
أقبل يورى بهيئة المتودد وقال : « قدمنى إليه »

فقالت لياليا متصنعة الوقار المضحك في إيمائها : « أنا تول بافلوفتش
ريازانتزيف ؟ »

فأضاف أنا تول إلى قولها مازحاً بدوره :

— « وهو ينشد صداقتك وتسامحك »

فتصافق الرجلان وهما صادقاً الرغبة في التآخي وكان من يراهما يقول إنهما
يهمان بأن يتعانقا ، ولكنهما كبها نفسيهما واجتزعا بأن يتبادلا نظرات الود
الصريحة .

قال ريزازانتزيف لنفسه مندهشاً : « وهذا إذن أخوها ؟ »

فقد كان يتصور أن أخا لياليا القصيرة الحميلة الضحوك لابد أن يكون
قصيراً حميلاً ضحوكاً مثلها . ولكن يورى كان على عكسها طويلاً نحيفاً أسمر
وإن كان على هذا وسياً حسن الوجه .

ودار في نفس يورى وهو ينظر إلى ريزازانتزيف هذا الحديث : « وهذا
إذن الرجل الذى يحب المرأة في شخص أختي الصغيرة لياليا النضيرة الحميلة
كالفجر في الربيع — يحبها كما أحببت أنا النساء »

وآلمه لسبب ما ، أن ينظر إلى لياليا وريازانتزيف ، كأنما أشفق أن يقرأ خواطره .

وأحس الرجلان أن في نفس كل منهما كلاماً مهماً يجب أن يقوله لصاحبه .

وود يورى لو استطاع أن يسأله : « أنحب لياليا ؟ حباً صادقاً حقيقياً ؟ إن الأمر يكون محزناً بل عاراً إذا أنت خنتها فهي نقيّة الذيل بريئة العهد » وإذن لود ريزازانتزيف لو يجيبه هكذا :

« نعم أحب أختك حباً عميقاً . ومن ذا الذى يستطيع ألا يحبها ؟ انظر كيف نقاؤها وحلاوتها وفتنتها ! وتأمل كيف تحبني ! ما أحلى خدّها ! » ولكن يورى لم يسأله شيئاً وسأله ريزازانتزيف :

— « هل طردت إلى أمد طويل ؟ » .

فكان جواب يورى : « لخمس سنوات » .

وكان أبوه نيقولا يقطع الغرفة جيئة وذهوباً . فلما سمع منه هذا وقف برهة ثم تنبه وعاد إلى سيره بخطى الجندي المتزنة المنتظمة ، وكان يجهل تفاصيل نفي ابنته فصدمه هذا النبأ الذى لم يكن يتوقعه ، وقال لنفسه : « ترى ما معنى هذا كله ؟ » .

ولم يفت لياليا مدلول هذه الحركة من أيها وكانت تخشى أن تقع المشادة بينه وبين أخيها فحاولت أن تغير الحديث وقالت لنفسها : « كيف بلغ من حمقى أن أنسى أن أنبه أنا تول ؟ » .

ولكن ريزازانتزيف لم يكن يدرى حقيقة الأمر ولما دعت لياليا أن يتناول بعض الشاي أجابها إلى ذلك ثم عاد إلى مساءلة يورى :

— « وماذا تنوى أن تصنع الآن ؟ » .

فقطب نيقولا وجهه ولم يزد .

وأدرك يورى معنى صمت أبيه ، وقال متحدياً له قبل أن يفكر فى عواقب جوابه :

— « لا شىء فى الوقت : الحاضر »

فسأله نيقولا ووقف « ماذا تعنى بلا شىء ؟ » ولم يرفع صوته ولكن لهجته كانت تحمل فى ثناياها تأنيباً مستوراً مؤداه : « كيف تقول مثل هذا الكلام ؟ أمكره أنا دائماً أن أتركك معلقاً بعنق ؟ كيف تنسى أنى شيخ هرم ، وأنه آن أن يكون لك مرتزق ؟ لست أقول شيئاً . عش كما بدا لك . ولكن ألا تستطيع أن تفهم ؟

وعلى قدر إحساس يورى بأن أباه على حق فيما يجرى بخاطره كان استياؤه . فقال وهو محنت :

— « نعم لا شىء . ماذا تنتظر أن أصنع ؟ »

وهم نيقولا أن يكر عليه بجواب مؤلم ولكنه لم ينبس ولم يزد على أن هنز كتفيه وعاد خطاه المنتظمة من ركن إلى ركن وكان أحسن أدباً من أن ينزع ابنه فى يوم أوبته .

وراقبه يورى بعينين متقدتين وهو لا يكاد يضبط نفسه ، فلو سنحت له أضال فرصة لنازل أباه .

وكادت لياليا تبكى وجعلت تنقل لحظها بين أخيها وأبيها مستعطفة راجية .

وفطن ريباز انتزيف أخيراً إلى الأمر ، وأدركه العطف على لياليا فحول السليد إلى مجرى آخر تحويلاً ليس فيه حلق ولا خفة .

وزحف الليل بطيئاً ثقيلاً .

وكان يورى لا يريد أن يعترف بأنه ملوم ، إذ كان لا يشايح أباه على أنه لم يكن من شأنه أن يشتغل بالسياسة .

٤٠

وذهب يعد أباه عاجزا عن فهم أبسط الأشياء لأنه هرم غبي وأخذ يلومه من حيث لا يشعر على شيخوخته وآرائه العتيقة وراح تهيج منه وتستفزه هذه الآراء .

ولم يلتذ ما طرقه رianza تزيف من الأحاديث ، بل لم يكده يلتقى إليه سمعه وجعل يرصد أباه بعين لامعة مظلمة .
ولما جاء وقت العشاء دخل نوفيكون وإيفانوف وسمينوف .

وكان سمينوف طالبا مصدورا يعيش منذ شهور في البلدة حيث يدرس وهو نحيف دميم ضعيف وعلى وجهه الذى أدركه الهرم قبل الأوان ظيل الموت الزاحف .

أما إيفانوف فمدرس ، وهو رجل محتوى طويل الشعر ، عريض الكتفين لا تروك شمائله .

وكانوا يتمشون فى الشارع فسمعوا أن يورى عاد فوفدوا لتحتيته ، وصار المجلس بهم أنيساً وكثر الضحك والمزاح ، ودارت على الأكل الكؤوس والأقداح وبذهم إيفانوف فى هذا الباب

أما نوفيكون فإنه فى الأيام التالية لخطبته المنحوسة ليدا هدأت نفسه قليلا وخطر له أن تأبى ليدا قد يكون عارضا وهو على كل حال خطأ تلزمه تبعته فقد كان ينبغى أن يعدها لمثل هذه المكاشفة ولما كان يؤلمه مع ذلك أنه يزور أسرة سانين فقد جعل يتوخى أن يلاقى ليدا خارج بيتها — فى الطريق أو فى منزل صديق له ولها — وجعلت هى ترثى له وتنحى باللائمة على نفسها واندفعت لذلك تبالغ فى ملاطفته ، فتجدد الأمل فى نفس نوفيكون .

ولما هموا بالانصراف قال نوفيكون . « ما قولكم فى هذا ؟ أقترح أن نخرج إلى الدير »

وهذا الدير قائم على تل غير بعيد من البلدة ، وإليه يذهب الناس كثيرا طلباً للنزهة وهو قريب من النهر والطريق إليه حسن .

فارتاحت لياليا إلى الفكرة وحمست لها، وكانت ولوعة بكل أنواع الملاحى من استحمام وتجذيف وسير فى الغابات وقالت :

— « نعم لنذهب . نعم بلا شك . ولكن متى يكون هذا ؟ »

فقال نوفيكونف : « لماذا لا نذهب غداً ؟ »

وسأل ريزانتييف : « ومن ندعو غيرنا ؟ »

وسره أن يخرج إلى الهواء الطلق ليهياً له بين الأشجار أن يضم لياليا بين ذراعيه وأن يقبلها، وأن يحس أن الجسم الحلو الذى يشتهيه أدنى شىء إليه :

— « دعونا نفكر . نحن ستة . ما قولكم فى شافروف ؟ »

فسأل يورى : « من يكون هذا ؟ »

— « طالب شاب . »

— « حسن جدا . وعلى « لود مللا نيقولايفنا » أن تدعو كارسافينا وأولغا إيفانوفنا . »

فسأل يورى مرة أخرى : « من هذان ؟ »

فضحككت لياليا وقالت : « سترى . »

ولشمت أطراف أصابعها ونظرت إليه كأنما فى الأمر سر .

فقال يورى مبتسماً : « آها ! حسن . سترى ما سترى »

وبعد تردد قال نوفيكونف بغير اكتراث :

— « ولا بأس من أن ندعو أسره سانين أيضاً »

فصاحت لياليا « آه لا بدّ لنا من ليدا » ولم يكن ذلك منها عن إيثار خاص لليدا، بل لأنها تعلم حب نوفيكونف لها وتريد أن تدخل السرور على قلبه وهى سعيدة بحبها تود أن يسعد من حولها مثلها .

فلاحظ إيفانوف بنحبت. « اذن يتحتم أن ندعو الضباط كذلك » .
 — « ماذا يهم ؟ لندعهم . فكلما كثر العدد زاد السرور »
 ووقفوا جميعاً أمام الباب في ضوء القمر وقالت لياليا : « ما أجمل
 الليل ! »

ردنت من حببها وهى لا تشعر وكانت لا تريد أن يفارقها الآن .
 فضغط ريازانتزيف ذراعها الدافئ المفتول . وقال : « نعم إنها
 ليلة بديعة » .

وكان لهذه الألفاظ البسيطة معنى لا يدركه غيرهما .
 فقال إيفانوف بصوته الضمخم العميق : « ويحكم أنتم وليتكم . إن النوم
 يغالبني فعموا مساء ياسادق » .

ومضى مخترباً الشارع وجعل يطوح بذراعين كذراعى الطاحون .
 وتلاه نوفيوكوف وسمينوف ، وظل ريازانتزيف لحظة طويلة يودع
 لياليا متخذاً من الكلام على النزهة حجة له وعذرا .
 ثم قالت لياليا لأخيها بعد أن ودعها حبيبها : « والآن يجب أن نذهب
 نحن أيضاً »

وأصعدت زفرة أسف على الانكفاء عن الليل المقمر والنسيم المترقرق
 فى حواشى الظلام وكل ما يطلبه جمالها وشبابها .
 وذكر يورى أن أباه لم يذهب إلى مخدعه بعد، وخاف إذا هو لقيه
 ألا يلفيا بدلاً من الكلام الجارح الذى لا خير فيه .
 فقال وعيناه قيد الضباب الأزرق الخفيف حوالى النهر : « كلا . لا أريد
 النوم . وسأتمشى قليلا » .

فتمالت له لياليا بصوتها الرقيق الحلو : « كما تحب » .

ومطت أعضائها وثنت جفونها قليلا كالقطة، ومنحت القمر ابتسامة ودخلت.

ولبت يورى دقائق في مكانه يرصد الظلال الكثيفة التي ترميها المنازل والأشجار، ثم مضى على سمت سمينوف.

ولم يكن سمينوف قد أبعده فقد كان مشيه بطيئا، وكان ينحني كلما سعل. وفي أثره ظله يطارده على الطريق المقمر، فأدركه يورى ولم تلبث عينه أن أخذت ما طرأ عليه من التغير. فقد كان سمينوف أثناء العشاء يضحك ويمزح، كما لم يضحك سواه. ولكنه الآن كان يمشى مكتئباً غارقاً في نفسه وفي سعلته الجوفاء شيء من اليأس والوعيد، كالداء الذي يخامره فقال بصوت رأى فيه يورى نفورا:

— « أهذا أنت؟ »

— « لم أطلب النوم وإذا سمحت رافقتك »

فقال سمينوف بدون احتفال: « نعم. افعل »

وسأله يورى: « ألا تحس البرد؟ »

ولمّا سأله لأن هذا السعال المزعج نبه أعصابه.

فأجابه متضايقا: « إني دائما بردان »

وتألم يورى كأنه كان تعتمد أن يلمس جرحاً دائماً. وقال:

— « هل تركت الجامعة منذ زمن طويل؟ »

فلم يجب سمينوف مباشرة وقال بعد برهة: « زمن طويل ».

فشرع يورى يتحدث عن إحساس الطلبة، وما يعدونه جوهرية مهماً وكان يتكلم في أول الأمر بهدوء وسكون ولكنه أرسل نفسه على سجيها وحسن تدريجاً وأجاد الإعراب عن خواطره:

ولم يقل سمينوف شيئاً وإنما أصغى:

ثم أخذ يورى يندب عدم وجود الروح الثورية بين الجماهير وكان من الواضح الجلى أنه يألم ذلك أعمق الألم .

ثم سأله صاحبه : « هل قرأت آخر خطبة ألقاها بيل ؟ »

— « نعم قرأتها »

— « ما قولك فيها ؟ »

فلوح سمينوف بعصاه تلويح المتضايق ، وكان لها رأس ملتو وحاكاه خياله فرفع ذراعاً طويلة سوداء ثم وضعها فثلت لذهن يورى صورة أجنحة سوداء يخفق بها طير جارح ناثر .
ولوح بعصاه وحاكاه ظله .

ورأى سمينوف ذلك فى هذه المرة فقال :

— « انظر ! ها هنا ورأى يقف الموت يرصد منى كل حركة ! ماأنا وبيل ؟ إن هو إلا ثرثرة يهذى فى هذا . وسيجىء مائق غيره يهذر عن ذلك . وسواء على هذا وذاك ؟ وإذا لم أمت اليوم فسأمت غدا »
فلم يجب يورى واضطرب وتألم .

ومضى سمينوف فى كلامه : « وأنت مثلاً تحسب هذا الذى يجرى فى الجامعة وما يقوله بيل مهماً ولكن الذى أراه هو أنك إذا أيقنت — كما أنا موقن — أنك ستتموت ، فإن تكثرث لما يقوله بيل أو نيتشة أو تولستوى أو غير هؤلاء »

وصمت سمينوف . وكان القمر لا يزال بريق ضوته وخالف الرفيقين الخيال الأسود يتعقبهما .

ثم قال سمينوف فجأة بصوت آخر هزيل شاك : « إني مقضى على ... ولو كنت تدري كيف فزعى من الموت ... لا سيما فى ليلة قراء رقيقة الحواشى كهذه » :

ولفت إلى يورى وجهه الدميم الغائر العينين اللامعها : « كل شيء يحيا .
أما أنا فلا بد أن أموت . وإنى على يقين من أن هذا الكلام لا يقع من
نفسك إلا موقع القول المبتدل — لا بد أن أموت — ولكنى لم أقتبس من
روايه ولا أخذته من كتاب يطالعك أسلوبه بصدق الفن وبراعة التصوير .
إنى حقيقة سأموت وهذه الألفاظ فى مسمعى غير مبتذلة . وستكف يوما عن
حسابها كذلك . إلى أموت ... أموت . وسيقضى الأمر . »

وسعل سمينوف مرة أخرى وقال :

— « وكثيراً ما يخطر لى أن الظلام سيشتمل على بعد قليل وإنى سأدفن
فى الأرض الباردة وإن أنفى سيغور فى وجهى وتتغفن يداى ، على حين يبقى
كل شيء فى الدنيا كما هو الآن ، إذ أمشى على طهرها حياً . وستكون حيا
وتستنشق النسيم وتسبح فى ضوء القمر وتمر بالقبر الذى يضم عظامى النخرة
الشيعة البلى . ماذا تظننى أعبأ ببيل أو تولستوى أو بليون آخر من هذه القروء
الهاذرة . »

وكان يورى أشد اكتئاباً من أن يسعه أن يرد .

ثم قال سمينوف بصوت ضعيف خافت : « عم مساء فسأدخل البيت »
فهز يورى يده وأدركه العطف الشديد على هذا الرجل الخاوى الصدر ،
المستدير الكتفين ، ذى العصا العوجاء المتدللية من عروة معطفه . وكان بوده
لو استطاع أن يعزيه وأن يبعث فيه الأمل . ولكنه أحس أن هذا مستحيل
فلم يزد على : « عم مساء » وتهد .

ورفع سمينوف قبعته وفتح الباب وتضاءل وقع قدمه ، وخفت صوت
سعاله ثم عاد كل شيء ساكناً .

ورجع يورى يستقبل من طريقه ما استدبر وقد ماتت الدنيا فى عينه —
مات كل ما كان منذ نصف ساعة فقط ، وضيئاً جميلاً ساكناً — ضوء القمر

ونجوم السماء والأشجار الفضية الروعة والظلال الغريبة — وطالعه من كل هاتيك برد القبر وفضاعته وهوله .

ولما بلغ البيت قصته إلى غرفته وفتح النافذة المطلة على الحديقة . فجرى بذهنه لأول مرة في حياته . أن كل ما استغرق حواسه ومدراكه وأظهر في سبيله من الحماسة والإثارة ما أظهر ، ليس في الواقع بالمهم ولا بالصواب . وإذا رنق الموت فوقه ، يوماً مثل سمينوف ، فلن يقطع قلبه الأسف على أن جهوده لم تزد الناس سعادة ولن يحزنه أن مثله العليا لم تتحقق . وإنما يكون حزنه لأنه سيموت ويحرم النظر والاحساس والسمع قبل أن يتاح له أن يذوق كل مسرات الحياة ولذاتها .

ولكن هذا الخاطر أخجله فنحاه عن فكرة وأخذ ينشد تعليل ذلك .

الحياة جهاد

« نعم ولكن جهاد في سبيل من ، إن لم يكن في سبيل الذات ، ومكان المرء تحت الشمس ؟ »

هكذا قال له صوت من داخل نفسه .

فتظاهر يورى بأنه لم يسمعه وحاول أن يفكر في أمر آخر ، ولكن ذهنه كان يكر راجعاً إلى هذه الفكرة بلا انقطاع . فعذبه هذا حتى لقد أبكاه بكاء مرّاً .

(٥)

لما تلقت ليذا سانين دعوة لياليا أطاعت أخاها عليها وكانت تتوقع منه أن يرفضها . بل كانت ترجو ذلك لأنها تعلم أنها هناك على النهر ستكون قريبة من سارودين فيعودها ذلك الإحساس الجامع بين اللذة والقلق ، وأخجلها في الوقت نفسه أن يعلم أخوها أنها تحب — دون خلق الله — سارودين الذي يحتقره سانين من أعماق قلبه .

واكن سانين قبل الدعوة مسروراً .

وكان اليوم بديعا وضيئا ، لا تضرر شمس السحب ، فلم يسع ليدا إلا أن تقول :

— « لاشك أنه سيكون هناك بضع فتيات حسان قد يعينيك أن تعرفهن ؟ »

— « آه . هذا حسن . والجو كذلك رائع . فلنذهب »

ولما جاء موعد الذهاب حضر سارودين وتاناروف في مركبة كبيرة من مركبات فرقتهما ، يجرها جوادان ضخمان من جيادها .

وكان سارودين في ثياب بيضاء معطرة فقال : « ليدا بتروفا . إننا في انتظارك » .

وكانت ليدا في ثوب رقيق شفاف من الخمل الوردى ، مشدود على خاصرتها ، فالتحدرت إليهما ومدت إلى سارودين كلتا يديها وأمسك بهما لحظه وعينه جائلة في جسمها مفتونة به .

فالت منها هذه النظرة التي تعرف معناها وأضطربت لها فصاحت :

— « فلنذهب . فلنذهب »

وسرعان ماعدت بهم المركبة في الطريق المهجور بين السهوب ، وكانت أغيصان النبات تنثني تحت العجلات ويهب النسيم على رعوس أخواتها فتموج وتترنج . ولما جاوزوا البادية أدركوا مركبة أخرى تقل لياليا ويورى وريازانتزيف ونوفيكوف وإيفانوف وسمينوف متكديسين متزاحمين وإن كانوا على هذا جدلين مبتهجين ، إلا يورى فقد حيره سلوك سمينوف بعد حديث البارحة ولم يستطع أن يفهم كيف يتهيا له أن يضحك ويمرح كغيره واستغرب منه هذا المرح بعد الذى سمعه وجعل يسأل نفسه : « هل كل هذا تصنع ؟ » ويسارقه النظر إلا أنه أحجم عن هذا التفسير لما يبدو له من حال سمينوف .

وتبادلت المركبتان الفكاهة والدعابة ، ووثب نوفيكوف عن مقعده إلى الأرض وراح يسابق ليدا على الحشائش وكأنهما آليا أن يتغاهرا بأنهما خير

الأصدقاء فقد جعلنا يتداعبان طول الوقت .

وقاربوا التل القائم على ذروته الدير بقبابه اللامعة وجدرانته البيضاء ، وعلى التل غابات تخال أطراف بلوطها من الصوف ، وإلى سفحه جزائر يتدفق حولها ، النهر وفيها أشجار البلوط قائمة .

ومالت الخيل عن الطريق إلى الأرض اللينة وجعلت العجلات تحفر فيها أخاديد عميقة وسطع الأنوف من الأرض والأوراق الخضراء عرف ذكى . وكان ينتظرهم في الموعد المضروب على المرج طالب وفتاتان في ثياب « الروسية الفتاة » وكانوا جالسين على بساط الروض ، وإذا كانوا أسبق من سواهم فقد اشتغلوا بإعداد الشاي والمرطبات الخفيفة .

ووقفت المركبة وجعلت الخيل تنفخ وتذود الذباب بذيولها ووثب كل من فيها عنها ، وقد أنعشهم الركوب وهواء الريف النقي ، وطفقت لياليا تقبل الفتاتين اللتين تعدان الشاي قبال رنانة ، وقدمتهما إلى أخيها وإلى سائين فجعلتا تتأملانه في خجل .

وأدركت ليذا أن الرجلين لا يعرف أحدهما الآخر ، فقالت ليورى :
— « أسمح لي أن أقدم إليك أخي سائين فلاديمير »
فابتسم سائين وصافحه .
واكن يورى لم يكده يلتفت إليه .

وكان سائين امرأ يله كل إنسان فهو لهذا مرتاح إلى معرفة الناس .
واكن يورى كان يذهب إلى أن الناس قل أن يكون فيهم من يطيب مخبره ومن أجل ذلك كان يزهد في لقاء الغرباء وكان إيفانوف يعرف سائين قليلا وقد راقه ما سمعه عنه فذهب إليه قبل سواه ، وأخذ يحادثه وصافحه سمينوف محتفلا .

وقالت لياليا : « الآن نستطيع أن نتمتع جميعا بعد هذه الرسيمات المتعبة »
ولكن الكلفة ألقت ظلها على الجمع في أول الأمر ، إذ كان كثيرون منهم لم

يسبق لبعضهم ببعض عهد فلما شرعوا يأكلون وأصاب الرجال من الأثرية والنساء من النديان لم تلبث الكلفة أن أخالت الابدان للمرح فشرّبوا كثيراً وكثير الضحك والمزاح وتسابق البعض وصعد الآخرون على التل وكان كل ما حولهم من السكون والوضاعة ، والغابات الخضراء من الجمال بحيث لا يتأتى للكآبة أن تبسط ظاهها على نفوسهم .

وقال رياننزييف وهو يلهث ووجهه متقد : «لو أن كل امرئ وثب وجرى على هذا النحو لأخفنت تسعة أعشار الأمراض من العالم .. » .
فزادت لياليا « والذائل أيضاً » .

وقال إيفانوف : «أما من حيث الذائل فسيبقى منها الكفاية دائماً » .
ومع أنهم لم ير أحداً في هذا القول فكاهة أو سداداً فقد ضحكوا جميعاً .
ومالت الشمس للمغيب وهم يشربون الشاي وتوهج النهر ونفذت أشعة النور الدافئة الحمراء من خلل الأشجار .

وصاحت بهم ليذا « والآن . إلى الزورق » .
وأمسكت بتوبها وانحدرت إلى الشاطئ وقالت : «من يكون أول واصل إليه ؟ » .

فعدا بعضهم وراءها وتبعهم الباقون على مهل وباخوا جميعاً الزورق الكبير المنقوش صاحبكين .

فقال ليدا بصوت الأمر الطروب : « اخرجوا به » .
فاندفع الزورق عن الشاطئ وخلف وراءه على سطح الماء خطين عريضين لم يلبثا أن تكسرا على حافة النهر .

وسألت ليدا يورى : « مالك صامتاً ؟ » .
فابتسم وقال : « ليس عندي شيء أقوله » .
— « مستحيل ! » .

ومطّت أرق شفتين ورمت رأسها إلى ظهرها فعل من يعام أن الرجال لا يدرون لسحرها من رقية .

فقال سمينوف : «إن يورى لا يحب أن يهذر . وهو يطلب . » .
فقاطعت ليدا « موضوعاً جدياً ؟ أهذا ما يريد ؟ » .

٥٠

وقال سارودين وأشار إلى الشاطئ انظروا : « هذا موضوع جدى »
وكان على صخور الشاطئ بين جزوع شجرة بلوط عتيقة
معمدة مدخل ضيق تغطيه إلا قلة من الحشائش والاكلاء .

فسأل شافروف وكان لا يعرف هذه الناحية : « ما هذا ؟ » .
فأجاب إيفانوف : « غار » .

« أى نوع من الغيران هذا ؟ » .

— « علم هذا عند الشيطان ! على أنهم يقولون إنه كان فى وقت من الأوقات
مشوى نفر من مزيفى النمود قبض عليهم جميعاً كما هى العادة . أعمال خطيرة
أليس كذلك ؟ » .

فقال نوفيكوف : « أظنك تود أن تضرب على هذا القالب وأن تزيف
قطعا من فئة العشرين كوبيك ؟ » .

فقال إيفانوف : « كوبيك ؟ كلا ! الروبلات يا صديقى الروبلات ! » .

فهمهم سارودين وهز كتفيه وكان لا يحب إيفانوف ولا يفهم نكاته .
وعاد إيفانوف إلى قصته فقال : « نعم قبضوا عليهم جميعاً وامتأ
الغار ثم تداعى على الأيام وليس يغشاه الآن أحد . بيد أنه مكان للذيد » .
فصاحت ليذا : « للذيد ؟ ؟ أحسبه كذلك » .

وقال يورى : « فكتور سرجفتش . هلم إليه . إنك أحد الشجعان المغاوير »
فسأله سارودين وقد ارتبك : « لماذا ؟ » .

فقال يورى وقد أخرجله أن يظنوا به المباشرة الكاذبة : سأفعل
وشجعه إيفانوف فقال : « إنه لمكان عجيب » .

— فسأله نوفيكوف : « أذهب أنت أيضاً ؟ » .

— « كلا إنى أفضل البقاء هنا » .

فضحكوا منه جميعاً .

ودنا الزوق من الشاطئ

وهبت على رؤوسهم من الغار موجة هواء باردة :

وحاولت لياليا أن تحمل أنخاها على العدول فقالت :

— « ناشدتك الله لا تفعل ! إن هذا خرق حقيقة » :

فقال يورى مبتسماً « خرق نعم بلا شك ! ناولنى ياسمينوف هذه الشمعة » .
— « أين هى ؟ » .

— « خلفك . فى السلة » .

فأخرج سمينوف الشمعة متريثاً .

وسأله فتاة طويلة بديعة القوام رائعة التناسب : « أذهب أنت حقيقة ؟ » .
وكانت لياليا تسميها « سينا » ولقبها كرسافينا .

— « بلا شك . لماذا لا أذهب ؟ » .

وتظاهر بعدم الاكتراث . وذكر أنه فعل مثل هذا مرة فى بعض مخاطراته السياسية ولم تقع هذه الذكرى موقعاً حسناً من نفسه لأمر ما .

وكان مدخل الغار رطباً مظالمًا ونظر فيه سائين وانفجرت شفتاه عن « بررر » واستسخف من يورى أن يرتاد مكاناً خطراً يكرّب النفس لالسبب سوى أن الناس يشهدونه وهو يفعل ذلك .

وكان يورى شديد الإحساس بنفسه فأوقد الشمعة وهو يقول لنفسه :
« إني أعالج ما يضحك منى الناس أليس كذلك ؟ » .

ولكن الواقع أنه يدل أن يثير سخرهم فاز بالإعجاب ولا سيما من النساء اللواتى راقهن منه ذلك وأعجبهن إلى حد الإزعاج .

وتهمل يورى إلى أن أضاءت الشمعة ثم ضحك تفادياً من التضاحك وغاب فى ظلام الغار وكأنما اختفى النور معه فقلقوا عليه وودوا لو يعرفون ماذا عسى أن يقع له .

وصاح به ريازا تنزيه : « احذر الذئاب » .

فتهدى إليه من جوفت الغار صوت ضعيف غريب يقول :

— « لاخوف فإن معنى مساساً » .

تقدم يورى فى بطء وحذر وكانت جوانب الغار قصيرة وعرة رطبة والأرض من الوعثة وعدم الاستواء بحيث كادت تنزل به قدمه مرتين فى حجر وخطر له أن الأحجى أن يعود وأن يبقى مكانه برهة ليؤاياه أن يدعى أنه قوغل .
وفاجأه وقع أقدام وراءه تخطو على الطين البابل ونفس مـسرع فرفع يده بالشمعة وصاح مذهولا : « سيناكر سافينا ؟ » .

— « هى بعينها » .

وأمسكت بشوبها وتخطت الجحر بخفة .

وسرىورى أن تكون هذه الفتاة الجميلة هى التى جاءت فحياها بعينين ضاحكتين .

وقالت سينا وهى خجلة : « دعنا نتقدم » .

فأطاع يورى ولم يعد تزعجه فكرة الخطر الآن .

وأخذ يعنى بإنارة الطريق لرفيقتة ولمح مخارج عديدة كلها قد سدت ورأى فى ركن بضع ألواح من الخشب يحسبها الرأى آثار نعش قديم فقال يورى وخفض صوته وهو لا يدري : « ايسى بالمجتمع جداً .. » .
وأخذ نفسه الضيق فى جوف هذه الكتلة الأرضية .

فهست سينا « بلى إنها لممتعة » .

والتفتت حولها فالتمعت عيناها فى ضوء الشمعة . وكانت مضطربة فتوخت أن تكون قريبة منه ليحسبها ، ولاحظ هوذلك وأدركه العطف على رفيقته الجميلة الضعيفة .

وعادت إلى الكلام : « لكأن المرء هنا مدفون حيا . وإذا صرنا لم نسمعنا أحدا »

فقال ضاحكا : « لاشك » .

وطاف برأسه فجأة خاطردار له ذهنه . أن هذه الفتاة الجميلة البضيرة المشتهاة فى قبضة يده وتحت رحمته . وليس من يراها أو يسمعها .. ولكن هذا الخاطر من الدناءة بحيث لا سبيل إلى وصفه فأسرع فنفاه وقال :

« ولنفرض أننا جربنا ؟ » .
وارتعش صوته . أتراها أدركت مدار بذهنه ؟
فقال « نجرب ماذا ؟ » .
قال - « إني أطلقت مسدسي ؟ » .
وأخرجه .
قالت : « هل تسقط الأرض علينا ؟ » .
قال : « لأدري » .
وإن كان على يقين من أنه لن يحدث شيء من هذا . ثم قال : « أخائفه ؟ » .
قالت : « لا : لا : لا : أطلق ! » .
وتراجعت خطوة أو بعض خطوة :
ومد ذراعه بالمسدس وأطلقه فأبرق المكان ولفتهما سحابة من الدخان
وتجاوبت الأصدااء ثم فنيت تدريجاً .
فقال يورى : هذا كل ما حدث .
قالت : « دعنا نرجع » .
فعادا أدراجهما وسارت أمامه فأثار منظر رديها . المكنة نزين المستديرين
في ذهنه خواطر جنسية كان من الصعب عليه أن يغض عنها فقال بصوت
مضطرب :
- « اسمعي ياسينا . إني أريد أن أسألك سؤالاً سيكولوجياً لطيفاً كيف لم تخافى
أن تأتي إلى هنا معي ؟ لقد قلت أننا لو صرنا لما سمعنا أحد . وأنت لاتعرفين
عنى شيئاً على الإطلاق ! » .
فخرجت في الطلام وصمتت ثم قالت أخيراً بصوت خافت :
- « لأنى رأيت أنك يمكن الثقة بك » .
قال : « وافرضي أنك كنت مخطئة ؟ » .
فقال بصوت لا يكاد يسمع : « إذا كنت ... أغرق نفسي » .

فلائته هذه الألفاظ عطفاً وسكنت نزعاته واطمأنت نفسه .

وقال لنفسه : « ما أطيبها من فتاة » .

ووقعت منه أعظم وقع عفتها البسيطة الصريحة .

وزهاها ردها عليه وأرضتها موافقته الصامته عنه فابتسمت له لما عاد إلى مدخل الغار . على أنها كانت تعجب لماذا لم تر في سؤاله ما يسوء أو يفسح ولماذا ارتاحت إليه على العكس من ذلك ؟

(٦)

بعد أن انتظر الباقون برهة عند مدخل الغار وركبوا سينا ويورى بالنكات أخذوا يتمشون على شاطئ النهر وأشعل الرجال السجائر والقوا بعيذان الكبريت في الماء وجعلوا يرقبون اندياح الدوائر على سطح التيار .

وراحت ليذا تحظر ويداها إلى جانبي خصرها مما يلي رد فيها وتغنى وهي سائرة وقد ماها الصغيرتان الرشيقتان في حذاءيهما الأصفرين يرتجلان الرقص من حين إلى حين .

أما ليايا فكانت تقطف الأزهار وترمي بها ريانا نزييف وتداعبه بعينها .
وقال إيفانوف لسانين : « ما قولك في الشراب ؟ » .
— « فكرة بديعة » .

فانقلبا إلى الزورق وفتحاعده زجاجات من الجعة وشرعا يشربان .
فصاحت بهما ليايا « ويحكما من سكيرين فظيعين ! » .
وراحت ترميهما بخصل من الحشائش .

فقال إيفانوف ومص شفثيه « لأنها من الطراز الأول » .

فضحك سائين وقال مازحا : « كثيراً ما أعجب للناس لماذا ينحون على الكحول . وفي اعتقادي أن السكير هو الذي يعيش كما ينبغي له » .
فأجابه نوفيكوف من الشاطئ : « أي كالبهم ! »

فقال سانين : « ربما ! على أنه مهما يكن من ذلك فالسكران إنما يفعل ما يريد . فإذا خذبلر له أن يغنى غنى . وإذا طلبت نفسه الرقص رقص ولم يستحي أن يطرب ويمرح » .

فقال ريازانتزيف : « وقد يضارب أيضاً » .

فأجاب سانين (نعم يفعل — أعنى إذا لم يعرف المرء كيف يشرب) .

فسأله نوفيكوف : « وهل تحب المضاربة وأنت ثمل ؟ » .

فأجاب سانين : « كلا : بل أفضل أن أضارب وأنا صاح . فإذا سكرت عدت أطيب الناس قابلاً لأنسى كل ما هو حقير وضعيع » .

فقال ريازانتزيف : « ليس كل الناس هكذا » .

فأجاب سانين : « لى آسف لهم . على أن غيرى لا يعنينى على الإطلاق » .

فقال نوفيكوف : « لا يسمع المرء أن يقول هذا ؟ » .

فأجاب سانين : « لماذا لا يقوله إذا كان حقاً ؟ » .

فقالت لياليا وهزت رأسها : « إنه لخلق بديع ! » .

فرد ليفانوف عن سانين : « هو أبدع ما أعرف على كل حال » .

وكانت ليذا تغنى بصوت عال فسكنت فجأة وبدا على وجهها الضيق وقالت :

— « إنهم لا يستعجلان على ما يظهر » .

فأجابها يورى : « ولماذا يستعجلان . إن من الخطأ العظيم أن يستعجل المرء فى أى أمر » .

فقالت ساخرة : « وسينا فيما أظن هى البطالة المترهة عن الخوف المبرأة

من العيب » .

ولم يستطع تاناروف أن يكتم خواطره فى هذه اللحظة فأنفجر يضحك ثم استحيى

وكانت ليذا واقفة ويدها إلى ردفها وهى تميد يمناً ويسرة برشاقة فالتفتت

إليه وقالت وهزت كتفها :

— « أحسبهما قد ظفرا بأمر ممتع » :

وقال ريازانتزيف وقد تأدى إليهم صوت طاق : « اسمعوا » .

فقال شافروفك : « هذه طلقة سلس » .

وتعلقت لياليا وهى مضطربة بذراع حبيبها وقالت :

— « مامعى هذه الطلقة ؟ » .

قال : « لاتنزعجى إن كان ذنباً فالذئباب أليغة فى هذا الوقت من العام وهى على كل حال لاتهم باثنين »
وحاول ريباز انتزيف أن يطمئنئها وإن كان انقلب قد ساوره من هذه التزوة الصببانية التى نزت برأس يورى .
وقال شافروف وبه مثل ما بهم من الغيظ : « حقت » .

ثم صاحث ليدا بلهجة المستخف : « إنها آتيان — آتيان فلا تقلقوا ! »
وكان وقع أقدامهما مسموعاً الآن ولم يلبتا أن خرجا من الظلام فأطفأ يورى الشمعة وابتسم وهو مضطرب إذ كان لا يدرى كيف يستقبله القوم .
وقد جلله الطين الأصفر . وكان منه آثار على كتف سينا فقد احتسكت بجانب الغار .

وسألها سمينوف بفتور : « ما عندكما ؟ » .

فقال يورى وكأنه يعتذر : « إن المكان رائق جداً لولا أن الممر لا يفضى إلى بعيد وهو مسدود وقد رأينا ألواح خشب منعنة ملقاة هنا وهناك » .
وقالت سينا والتمعت عينها : « هل سمعتم طلقة المسدس ؟ » فقاطعها إيفانوف صائحاً : « أيها الاخوان لقد شربنا كل الجعة وانتعشت نفوسنا جداً فانهل »
ولما توسطوا النهر بالقارب كان القمر قد طلع . وكان الليل ساكناً صافياً والنجوم الذهبية تاتمع فوقهم وحولهم وفي قبة السماء وفي صهجه الماء فكأن الزورق معلق بين كونين لا يقاس لهما غور . وبدأت الغابة المخاضة على شاطئ النهر مستبهمة معجمة السر — وغرد عندليب فأصاحوا فى سكون . ووقع فى نفوسهم منه أنه ليس بطائرة بل حالم طوب يرسل الصوت فى جوف الطلام وخلعت سينا كرسافينا قبعتها وانطلقت تغنى أنشودة روسية عذبة شجية ككل الأناشيد الروسية . وكان صوتها العالى الرنان هافياً ينال من القلب وإن لم يكن بالقوى .

فتمتم إيفانوف « هذا عذب » وقال سائين « فنان » .

ولما فرغت من الغناء صفقوا لها جميعاً وارتد إليهم الصدى من الغابات
المظلمة على جانبي النهر :

وقالت لياليا : « غنينا لحنا آخر ياسينا - أو افعل ما هو خير - أنشدنا
قصيدة لك » .

فقال إيفانوف : « وشاعرة أيضاً ؟ ما أكثر الهبات التي يجود بها الله الكريم
على مخلوقاته ! » .

فسأله سينا وهي مرتبكة : « أو هذا شيء قبيح ؟ » .

فأجاب سائين : « كلا ، بل حسن جداً » .

وعاد إيفانوف فقال : « إذا أوتيت الفتاة والصبا والحسن فما حاجتها إلى
الشجر ؟ وددت لو أدري ! » .

وجاش صدر لياليا لها بالحب والفرقة فقالت : « دعينا من هـاـدا وغنينا
لحنا ياسينوتشكا ! »

فاقرئ نغم سينا وانصرف بوجهها معجبة بنفسها قبل أن تغني الأبيات
التالية بصوتها الخالص الموسيقي :

يا حبيب النفس يا خير حبيب !
لن أناجيك بسرى أبدا
لا ولن أكشف عن حر اللهب !

وإذا ما حنت العين إليك
وصبت ، أرخيت جفني جلدا
فانطوى سر الهوى عن ناظريك

ليس يبيده سوى طول الحنين
ليس يدري جي المتقدا
غير ساجي الليل لو كان يمين

كل نجم - كل روض بهوى
حالم فى الليل أما ابتدا
هامس - لو كنت تصغى - بجوى

هذه تدريه لكن لا تقول !
هى خرساء كتوم أبدا
فمن المبلغك السر المهور ؟

فشاعت فى نفوسهم حماسة الطرب مرة أخرى وضجوا بالتصفيق لسينا
لأن قصيدتها الصغيرة جيدة بل لأنها جاءت ناطقة بحلمهم معبرة عن مزاجهم
ولأنهم جميعاً كانوا يحنون إلى الحب وشجاء اللذيد .
وصرخ فيهم إيفانوف وقد أخذته نشوة الطرب بصوت عميق أفزعهم جميعاً :
« يا ليل ! يا ليل ؟ يا عيني سيننا الراقصين ناشدتكما ألا ماقلتما لى أنى أنا
ذلك الحبيب السعيد ! »

فقال سمينوف : « إنى أستطيع أن أوكد لك أنك لست به »
فتوجع إيفانوف نادبا « آه ، يا ويحى ! » فلم يبق أحد لم يضحك :
وسألت سيننا يورى « أشعرى ردىء ؟ »
ولم يكن يرى أن فيه ابتكاراً يذكر ولقد أذكركه قصيدتها مثات من أمثالها
ولكن سيننا بارعة الحسنى وقد توسلت إليه عيناها فلم يسعه إلا أن يقول بوقار :
« أراها على جانب عظيم من الفتنة والحلاوة » .
فابتسمت وأدهشها أن بسرهما مثل هذا المدح كل هذا السرور :
وقالت لياليا : « إنك لم تعرف سيننا بعد ! هى كل شىء جميل وحلو » .
فقال إيفانوف : « أتعنين هذا حقاً ؟ »
فأصرت لياليا : « نعم أعنيه ، إن صوتها مرن رخيم وكذلك شعرها وهى
نفسها جميلة - حتى اسمها جميل عذب » .

قصاح إيفانوف : «لعمري ماذا تستطيعين أن تزيدى على هذا ؟ على أنى اطابقك على رأيك» .

فاحمر وجه سينا خجلا وارتابا كما من هذه المدائح :
وقالت ليذا فجأة : «قد آن أن نعود» .

وامستكرهت أن تسمع مدح سينا إذ كانت تعد نفسها أجمل وأبرع وأمتع .
وسألها سائين : « ألا تغنيننا ؟ » .

فقالت : « كلا ! إن صوتى لا يؤاينى الآن » .

وقال ريارانتزيف « لقد آن أن نعود حقيقة » وذكر أن عليه فى الصباح أن يكون فى مشرحة المستشفى . وود الآخرون لو يتكأون قليلا ولازموا الصمت وهم عائدون وأحسوا بالتعب والرضى ، وداست العجلات مرة أخرى اغيصان الحشيش وإن لم ير ذلك أحد . ولم يلبث التراب أن استقر على أرض الطريق مرة ثانية وبدأت الحقول الحرة العارية هائلة لا حدها فى ضوء القمر لوانى :

(٧)

مضت ثلاثة أيام وفى مساء الرابع عادت ليذا إلى بيتها حزينه متعبة مثقلة القلب . ولما بلغت غرفتها وقفت ويدها متشابكتان وعيناها إلى الأرض . وأدركت فجأة أنها فى علاقاتها مع سارودين قد جاوزت الحد فاستهولت ذلك : رتبنت لأول مرة منذ تلك اللحظة — لحظة الضعف الذى لا يعالج — أى سلطان بذل صار لهذا الضابط الفارغ العقل عليها وإن يكن دونها فى كل شيء .

— لا بد لها الآن أن تلبية إذا دعا وأن تدعن لقبلاته أو تتأبى ضاحكة ولكنه لم يعد يسعها أن تعبت به كما تشاء . ولم يبق لها إلا أن تحتمل وتطيع كالرفيق . كيف حدث هذا ؟ — ذلك مالم تستطع له فهما . لقد كانت أبداً وعليه سلطانها وكانت تطبق التفاتاته وغزله وكان كل شيء رضىاً للذيذاً مثيراً كالعادة . ثم جاءت لحظة اتقد فيها كيانها كله وغشى ذهنها مثل الضباب ولم

تبقى إلا الرغبة المحنونة في الاندفاع إلى الهاوية . كأنما انشقت الأرض تحت قدميها ولم تعد تحكم أعضائها أو تشعر الابعين بجاذبتين تحمقان في عينيها وهزت العاطفة جثائها وعصفت به وراحت ضحية الشهوة الغالبة . على أنها مع ذلك شاقها أن تكرر هذه التجارب العاصفة . ولما مثل لخاطرها كل ذلك ارتجفت فرفعت كتفيها ونجبات وجهها في راحتها ومضت إلى غرفتها متعثرة وفتحت النافذة ولبثت لحظة طويلة ترمق القمر وكان طالعا فوق الحديقة - وثم بين الاشجار النائية بلبل يغنى .

وجثم على صدرها الحزن وتال منها الإحساس بالندامة وبانجراس الكبرياء للقضاء على حياتها من أجل رجل فارغ سخيف ولأن زلتها كانت حمقاء حقيرة عرضية . وبدأ لها المستقبل منذرا بالشر وانكها عالجت أن تنفى عن نفسها المخاوف بالمكابرة .

وقالت لنفسها وهي عابسة محاولة أن تجد شيئاً من الارتياح في هذه العبارة المبتدلة .

« لقد فعلتها وقضى الأمر ! ما أسخف هذا كله ! لقد أردت ذلك فكان ما أردت . وأحسست بسعادة يالها من سعادة ! وكان من الحق أن لا استمتع وقد سنحت لي الفرصة . إلا أنه لا ينبغي لي أن أفكر في الأمر . فما من حيلة فيه الآن » .

وابتعدت في تناقل عن النافذة وشرعت تخلع ثيابها تاركة إيادها تنزل عن جسمها إلى الأرض وقالت وقد أروعشها برد الليل لما أصاب كتفيها وذراعيها العارية .

« إن الإنسان على كل حال لا يحيا إلا مرة . وماذا كان ينبغي أن انتظر حتى أتزوج زواجا شرعياً ؟ ماذا كان يفيدني هذا ؟؟ سيان هذا وذاك ، فماذا هناك مما يزعج ؟ »

ونخيل إليها فجأة أنها بهذه المخاطرة اعتصرت كل لذائذ وممتعة وخير . وأنها قد صارت الآن حرة كالطير وأنها مقبلة على حياة حافلة بالحوادث مليئة من السعادة والذلة .

« ساحب إذا شئت . وإذا لم أشأ لم أعشق ! » .

هكذا غدت نفسها بصوت خافت وفي ذهنها أن صوتها خير من صوت سيدنا كرسافينا وأحلى .

« كل هذا كلام فارغ ! وأن لى إذا شئت أن ألقى بنفسى فى أحضان الشيطان نفسه ! »

وكذلك كانت ترد على ما يخالبها من الخواطر وذراعاها العاريتان فوق رأسها وتديهاها يهتران .

وحمل النسيم إليها صوت سائين يقول لها من وراء النافذة :

— « ألم تنامى ياليدا ؟ »

فتراجعت ليدا فزعة ثم سترت كتفها بوشاح وهى تدنو من النافذة باسمه وقالت :

— « لقد أفزعنى والله ! » .

فدنا منها سائين واتكأ بذراعيه على حافة النافذة وكانت عيناه تلمعان وثغره يفتى وقال مداعباً لها :

— « لم تكن ثم من حاجة إلى هذا » .

فتلفت ليدا حولها وعاود الكلام بصوت منخفض مؤثر فقال :

— « لقد كنت بغير هذا الوشاح أجمل » .

فحماقت ليدا فيه مذعولة وشدت الوشاح على جسمها فضحك سائين ومالت هى الأخرى على حافة النافذة وهى مرتبكة وصارت منه بحيث كانت تحس أنفاسه على خدها . فقال :

— « واهآ لك من جميلة ! » .

فأوسلت إليه نظرة عجلى وأخذها الخوف مما خيل إليها أنها تقرأه فى وجهه وأحست كل جارحة فى جسمها أن عيني أخيها ترشقانها فلوت وجهها مستفظة . وباع من استموالها خواطرها وبقرزها منها أن كاد قلبها يجمد .

إن كل رجل ينظر إليها هذه النظرة وهى ترتاح إلى ذلك . فأما أن يفعل أخوها هذا فستحيل لا يحتمل التصديق . على أنها ما لبثت أن ثابت إليها نفسها فقالت بحبيبة :

« نعم أعلم ذلك » .

وراقبها سانين في سكون وكان الوشاح والقميص قد زلا عن كتفها لما انحنى على النافذة وبدأ صدرها الرقيق ملتصقا في ضوء القمر فقال سانين بصوت خافت مرتعش :

— «إن الناس لا يزالون أبداً يقيمون سورا من أسوار الصين بينهم وبين سعادتهم» .

فبهت ليدا وسألته وعيناها إلى الحديقة مخافة أن يلتقي طرفها وطرفه :

— « وماذا تعنى ؟ » .

وخيل إليها أن سيحدث شيء لا تجرؤ على التفكير فيه وعلى أنها لم يخالجها شك في ماهيته — شيء رهيب فظيع إلا أنه لذيذ فالتبته ذهنها وعادت وما تكاد تبصر وظلت واقفة مستبشرة مستغربة وهي تحس النفس الحار على خدها يعبث بشعرها ويرسل الرعدة في جسمها .

فقال سانين وصوته يرتجف :

— « ماذا أعنى ؟ هكذا ! » :

فكأنما أصابت ليدا هزة كهرباء ففزعت إلى الوراء ومالت على المنضدة وهي لا تدرك ما تصنع ونفخت الشمعة فانطفأت وأغلقت النافذة وقالت :

— « لقد آن أن أنام » .

ولما انطفأ النور خفت الظلمة خارج الغرفة وظهر شخص سانين في الحديقة واضحا بارزا وأكسب ضوء القمر قسبات وجهه شيئا من الزرقة وهو واقف بين الحشائش الطويلة المطلولة يبتسم .

وانصرفت ليدا عن النافذة وجلست على السرير وهي ترجف من فرعها إلى قدمها وعجزت عن جمع خوارها وتنظيمها وسمعت وقع قدى سانين على الحشائش فزاد خفقان قلبها وجعلت تسأل نفسها وهي مكروبة :

— « أترانى جننت ؟ ما أظن هذا ؟ كلمة كهذه لعابها قيلت عرضا تحرك في ذهني مثل هذه الخواطر ؟ ؟ أترى هذا جنون ؟ الشهوة ؟ هل وصات الى هذا

الدرك من السفالة والانحطاط ؟ لقد هويت حقاً إذا كان يجري ببالي مثل هذا الخاطر ! » .

ودفنت وجهها في الوسادة وبكت بكاء مراراً .
ثم سألت نفسها مستغربة علة البكاء شاعرة بالذلة والمهانة والشقاوة
— « لماذا أبكي ؟ » .

بكت لأنها بذلت نفسها لسارودين — لأنها لم تعد تلك العذراء النقية الذيل
المزهرة الشائخة الأنف — وبكت من جراء تلك النظرة الفظيعة المهينة التي رماها
بها أخوها . ولم يكن عهداً به فيما مضى أن ينظر إليها هكذا . وإنما فعل هذا
— في رأيها — لأن قدمها زلت فسقطت .

واكن أوجع مامر بها من الخواطر وأمرها جميعاً هو أنها أصبحت الآن
امراًة ! وأنها لايسعها الآن — مادام لها صباها وقوتها وحسنها — إلا أن تجعل
خير مامنحت تحت أقدام الرجال ووقف على إرضائهم وأنها على قدر المتعة
التي تبذلها لهم يكون مبلغ احتقارهم لها .

فسألت نفسها محمقة في ظلام الغرفة :

— « لماذا يحقروني ؟ من خولهم هذا الحق ؟ أليس لي من الحرية مثل ما لهم
سواء بسواء ؟ هل قضى على أن لا أعرف حياة غير هذه وخيراً منها ؟ » .

فقال لها جسمها بلسان الصبا والقوة أن لها الحق أن تقطف من الحياة كل
ما هو ممتع وسار ولازم لها وأن لها أن تصنع ما تشاء بجسمها الجميل
القوى الذي هو ملكها وحدها دون سواها .

ولكن هذه الفكرة ضاعت في تيه من الخواطر المختلطة المتضاربة .

(٨)

ظل « يورى سفاروجتش » مدة يشتغل بالتصوير وكان كأنما يصرف
فيه كل أوقات فراغه . ولقد كان يحلم في ما مضى من عمره أن يكون
مصوراً ولكن الحاجة إلى المال — أولاً — ومشاغله السياسية — ثانياً — حالت

دون ذلك فصار يعالج التصوير من حين إلى حين على سبيل اللهو وبلا غاية يرمى إليها .

ولهذا السبب — ولأنه ينقصه التدريب — لم يجسد في التصوير مسلاة ترضى نفسه . بل صار على عكس ذلك مصدر حسرة ومبعث خيبة . وكان كلما أحنق فيه يكتئب ويهيج وإذا وفق فيما يعالجه منه سبغ في بحر من التفكير الساهم وتجسم له عبث مساعيه التي لاتنيله لا السعادة ولا النجاح .

وكان يورى قد كلف « بسينا كارسافيتا » وكان يؤثر من النساء الطويلة المنسجمة الجميلة الصوت التي تمر عينها بسحر الخيال . وكان يتوهم أنه ما جذب إليها سوى جمالها وظهر روحها وإن كان لم يدفعه إلى تعلقها شيء سوى أنها جميلة مرغوبة . على أنه حاول أن يقنع نفسه بأن سحرها الذي يحسه روحى لا جثمانى إذ كان يظن أن هذا أنبل وأرفع وإن كانت هذه الطهارة العذرية بعينها هي التي ألهبت دمه وأثارت رغبته . وما زال مذاقها مساء لأول مرة يحس بحنين قوى وشوق ملح غامض إلى تلويث طهارتها : والواقع أن هذا كان إحساسه كلما رأى امرأة حسناء .

والآن وقد تعلق خواطره فتاة جميلة مرحة مليئة بهذه الحياة فقد بدا له أن يصور « الحياة » . وتحمس لهذه الفكرة كما هي عادته كلما عن له رأى جديد . وراح يعتقد أنه في هذه المرة سيوفق إلى النجاح .

وبعد أن أعد لوحاً كبيراً مضى في العمل بسرعة المحموم كأنما يخشى أن يعطله معطل . وما كاد يلمس اللوح ببعض الألوان ويخرج من تواليفها أثراً سارا متجاوباً حتى أهتز سروراً وتمثلت لخياله الصورة المزمعة بكل تفاصيلها ولكنه لما توغل في العمل نشأت المصاعب الفنية وتعددت وأحس يورى أن لا قبل له بتذليلها وبناد كل ما هو براق جميل قوى في خيلته هزيلة ضعيفاً على اللوح ولم تعد تفتنه التفاصيل بل راح يلاق منها البرح والضيق والكرب . والواقع أنه أغفلها وأنشأ يتوخى في

الرسم الإجمال والإهمال والسرعة . وبديل أن تخرج يده صورة قوية واضحة للحياة ارتسمت على اللوح أتى فاتره ديمانه بالألوان لا ينسجم عليها هندام . ولم يكن ثم شيء فائن أو مبتكر في مثل هذه الصورة الفاتر المكررة . إن هو إلا رسم تافه في فكرته وفي آدائه . فاكتب يورى كالعادة .

ولولا أنه استجيا لأمر ما أن يبكي لبكى ولأخفى وجهه في الوسادة وراح يعول . ولقد أحس الحاجة إلى أن يبت بعض الناس شكواه ولكن ليس من عجزه وقصور باعه . على أنه لم يفعل ، بل جعل يرمى الصورة متحسراً ذاهباً إلى أن الحياة على العموم ضنى وشجى وضعف وأنها خالية مما ياله . وراعه أن يفكر في أنه سيكون عليه أن يقضى سنين عدة في هذه البادية الصغيرة .

وابترد جبينه كالثاج وهو يقول لنفسه :

« إن هذا هو الموت بعينه ! »

ثم اشتاق أن يصور « الموت » وأمسك سكيناً وشرع وهو محق يكشط صورة « الحياة » وغازه أن ما صنعه يمثل تلك الحماسة يزول بمثل هذه الصعوبة . ولم يسهل عليه أن ينزع الألوان . ولقد أفاتت السكين ومزقت اللوحة في موضعين ، ثم وجد أن الطباشير لا يخلف أثراً على ألوان الزيت فلأه هذا ضيقنا .

ثم إنه شرع يعمل بالفرشة ويخطط موضوعه وجعل بعدد ذلك يرسم في بطء وقلة احتفال وبلا روح . غير أن عمله لم يخسر بذلك شيئاً بل أفاده هذا التثاقل والإهمال والأخذ بالألوان النفياء الراحنة . واختتمت فكرته الأولى وذهب يصور « الشيخوخة » فجعلها عجوزاً هزيلة مطرحة في طريق وعرة وقد غابت الشمس واحاولك السياء وارتحت طلال الصبا إن وانحنى كتفنا المرأة المارة وقتان تحت ثقل نعش أسود ، وارسدت على وجهها الكآبة والبأس وإحدى قدميها على حافة قبر مفتوح — صورة مرعبة للشفاء والجحازة

وأرسلوا إليه يدعونه إلى الطعام ولكنه لم يذهب وظل يشغل .

ثم جاءه نوفيكوف ليلاعه أمراً ، غير أنه لم يصغ إليه ولا رد عليه .
فتنهذ نوفيكوف وجاس .

وكان نوفيكوف يحب السكون وإجالة الفكر فيما مر به وما جاء به إلى
يورى ، إلا أن الوحدة في بيته ترمضه .

وكان رفض ليذا أن تتزوجه لا يزال يحزنه ولم يكن يدرى أحزن ما به
ألم المذلة .

وكان رجلاً مستقيماً متبطلاً ، ولم يتصل به ما يتحدث به الناس عن ليذا
وسارودين ولم يكن يحس الغيرة بل الأسف على حلم لم يكده يبيع له
بالسعادة حتى انتسخ .

وخطر لنوفيكوف أنه أنفق في حياته ولكنه لم يفكر في اختصارها
وإن كان البقاء عبثاً . بل على نقيض ذلك رأى من واجبه الآن وقد
صارت حياته عذاباً له أن يقفها على الناس ، وأن ينحى سعادته ويطرحها
جانباً . ونازعته نفسه لسبب لا يدريه أن ينقص يده من كل شيء في هذه
البلدة وأن يمضى إلى بطرسبرج حيث يستطيع أن يجدد علاقته « بالحن »
وأن يهجم على الموت . وقام في نفسه أن هذه فكرة سامية نبيلة ولطف من
حزنه علمه أن هذه فكرته . بل لقد شرحت صدره ، فضيخم شأنه وعظم
مقامه . في نظر نفسه ، وكأنما صار على مفارقة تاج من الذهب الوهاج .
وكان موقف العتب الذي اتخذته خيال ليذا يدفعه إلى البكاء .

ثم أحس الملل فجاءه يدب في نفسه وكان « يورى » ماضياً في التصوير
لا يلقي إليه التفاتة .

فنهض نوفيكون متثاقلاً ودنا من الصورة ولم تكن قد تمت ، ولهذا كان لها وقع الصورة القوية .

وكان يورى قد بلغ حد طاقته فاعتدها نوفيكون آية وهو ينظر اليها وفيه مفتوح معجباً بالمصور إعجاب الطفل .

وتراجع يورى وقال : «مارأيك» .

وكان رأيه أنها أمتع صورة رأها وإن كان لاشك في أن فيها عيوباً جلية كبيرة . ولم يكن يدري لماذا كان هذا رأيه . ولو أن نوفيكون استسخرها لجرحه ذلك وآلمه .

على أن نوفيكون قال هامساً فرحاً : « بديعة جداً » .

وأحس يورى كأنه عبقرى يستخف بعمله فتمهدورى الفرشة فلوثت طرف المخدع وانصرف عن اللوح درن أن ينظر اليه وقال مبتدئاً :

— « آه يا صديقى ! » .

وهم بأن يعترف لنفسه ولنوفيكون بالشك الذى ينغص كل سرور بالنجاح إذ كان يحس أنه لن يستطيع أن يتم هذه البداية الحسنة ، غير أنه بعد التفكير لم يزد على أن قال :

— « كل هذا لا طائل تحته »

فظن نوفيكون أن صاحبه يتكلف ، وذكر ما لقيه هو من الخيبة المرة فحدث نفسه أن هذا صحيح .

ثم سأل بعد برهة :

— « ماذا تعنى بتلك إن هذا لا طائل تحته ؟ »

ولم يستطع يورى إن يجيب عن هذا جواباً دقيقاً فبقي صامتاً .

وعاد نوفيكون إلى الصورة يفحصها وحلس مرة ثانية ثم قال :

— « قرأت مقالك المنشور في جريدة « كراى » وأراه حار ! »

وأحباب يورى معضباً لغير سبب يعلمه وذكر كلام سمينوف :

— « إنى الشيطان بها ! أى خبر فيها ؟ انها لن تمنع الإعدام ولا السرقات

ولا العنف . وستظل هذه كما كانت . إن المقالات لا تجدى . ما خيرا
بالله ؟ أن يقرأها اثنان أو ثلاثة من الباهاء ؟ خير عظيم حقاً !! ومع ذلك
فما شأنى أنا بهذا ؟ لماذا أنطح الجدار برأسى ؟ »

ونسرت الذكرى لعينى يورى مساعيه السياسية فى صدر أيامه ومثلث له
الاجتماعات السرية والدعوة التى كان يعمل على اذاعتها وبثها ، والأخطار
والإخفاق وحرارة حماسه وبلادة من كانت الرغبة تجمع به إلى إنقاذهم ،
فجعل يروح ويحيى فى الغرفة مشيراً بيديه .

فقال نوفيكوف :

« لا . إداً ليس كنتم ما يستحق من المرء أن يفعل شيئاً فى سبيله » .

وذكر سائين فأضاف إلى ذلك :

— « أنايون ! هذا أنتم جميعاً ! »

فأجابه يورى بحدة وقد تأثر بذكريات ماضيه وبالغسق الذى أحال
لون كل شىء فى الغرفة :

— « كلا ليس هذا كذلك ، إذا ذكرنا الإنسانية فأى خير فى كل

جهدنا المبذولة فى سبيل الدساتير أو الثورات ، إذا كان المرء يعجز عن
تقدير ماتحتاج إليه الإنسانية حتى على وجه التقريب ؟ وما يدرينا ؟ لعل
فى هذه الحرية التى نحلم بها جرثومة الانحطاط فى المستقبل ولعل الإنسان
بعد أن يتحقق مثله الأعلى يكر راجعاً القهقري ويمشى على أربع . وهكذا
يكون علينا أن نبدأ كل شىء من جديد . وهبنى لا أكرث إلا لنفسى فماذا
إذا ؟ ماذا أستفيد بذلك ؟ إن أقصى ما يبلغنى إياه طوقى هو أن أنال الشهرة
بمواهبي وأعالي ، وأن يسكرنى احترام من هم دونى أى احترام من
لا أحترمهم ، ومن ينبغى أن يكون احترامهم لا قيمة له عندي . ثم ماذا ؟
أظل عائساً — عائساً إلى أن أبلغ القبر — ثم لا شىء بعد ذلك ! ويعتدل
إكابل العار على حممى ، ويبلغ من فرط إحكام لفه عليها أى لا أثبت
أن أحس منه الضيق والكرب ! »

قال نوفيكوف متهمكها ولم يسمعه يورى لفرط سروره بفصاحته :
« نفسه أبدأ ! »

وكان لكلامه سهوم لذيذ في نظره، وكان ما يقوله يشرفه ويزيد
في احترامه لنفسه وعاد فقال :

« وشر ما في الأمر أن أصير عبقرية يسىء الناس الحكم عليه -
حالاً مضحكاً ، ومدارا للأقاصيص الفكاهية، وشخصاً سخيفاً لا خير
فيه لأحد . »

أفصاح نوفيكوف وهو ينهض :

« آها ، لا خير فيك لأحد ؟ أو تقر بهذا إذا ؟ »

فقال يورى :

« تالله ما أسخفك ! أو تظن أنى لا أعرف ماذا ينبغي أن أحيا له
وبم أومن ؟ من المحتمل أن أقبل بسرور أن أصلب إذا اعتقدت أن
موتى ينقذ العالم ويخلصه . ولكنى لا أعتقد هذا . ومهما يكن ما أصنع
فلن يغير من مجرى التاريخ . أضف إلى ذلك أن معونتى من الهوان والضلالة
بحيث لا يحسر العالم شيئاً لو أنى لم أكن . بيد أنى - من أجل هذه الذرة
من المعونة - مكره أن أعيش وأن أتعذب وأن أنتظر الموت في حزن ! »
ولم يلاحظ يورى أنه اندفع يتكلم في أمر آخر. وأنه لا يرد على
نوفيكوف بل على هواجسه الغريبة المحزنة .

ثم ذكر سمينوف فجأة فسكت وسرت في ظهره رعدة باردة وقال
بصوت منخفض وهو ينظر إلى النافذة المظلمة :

« الحقيقة أنى أخشى المحتوم . وأنى لأعلم أن هذا طبيعى . وأنه
لا يسعنى أن أفر منه . ولكنه على هذا رهيب - مهول »

فقال نوفيكيوف وإن كان قد هاله صدق هذا الكلام :

— « إن الموت ظاهرة فسيولوجية لازمة » .

فقال يورى لنفسه :

— « ياله من خرف ! »

ثم صاح بنوفيكيوف وهو مغضب :

— « ماذا يهم إذا كان موتنا لازماً لغيرنا أو غير لازم ؟ »

فقال نوفيكيوف : « وما قولك فى رضاك أن تصلب ؟ »

فأجاب يورى ببعض التردد .

— « هذا شيء آخر » .

فقال نوفيكيوف بلهجة فيها بعض التعالى :

— « إنك تناقض نفسك » .

ومتضايق يورى ودفع أصابعه فى شعره الأسود المضطرب وقال بحدة :

— « لئى لا أناقض نفسى أبداً ! إذ من المعقول أنى إذا شئت أن أموت

بمحض إرادتى الحرة . . . »

فقطاعه نوفيكيوف معانداً وينفس اللهجة :

— « كل هذا سواء . وأنتم جميعاً تطلبون السهام النارية والتصفيق

وما إلى ذلك . وليس هذا إلا أنانية ! »

قال يورى : « هبها كذلك ! إن هذا لا يغير المسألة » .

وصارت المناقشة محتاطة . وأحس يورى أنه لم يرد أن يقول هذا

ولكن الخيط أفلت منه بعد أن كان محراه واضحاً منذاً منذ برهنة فجعل

يقطع الغرقة راحاً بجائياً . معالجاً أن يغالب غيظه وهو يتول لنفسه :

« إن المرء أحياناً ينقصه المزاج المناسب . وأحياناً أخرى يتكلم بجلاء
كأنما الألفاظ مخطوطة أمام عينيه . وأنا أحياناً أكون كالمجسم فلا أحسن
العبارة عما في نفسي - نعم هذا كثيراً ما يقع » .

وصمت كلاهما ، ثم وقف يورى بجانب النافذة وتناول قبعته وقال :
- « دعنا نتمشى »

أجاب : « حسن جداً »
ووافق نوفيكوف وفي مأمله أن يلاقى ليذا وسره أمله وأحزنه في آن .

(٩)

ذهب يورى ونوفيكوف يتمشيان في الميدان ولم يقابلا أحداً يعرفانه
فأخذوا يستمعان إلى فرقة الموسيقى التي كانت تعزف كالعادة في الحديقة
وكان عزفها ضعيفاً وألحانها خشنة متنافرة .

ولكن صرتهما كان شجياً هافياً عن بعد . ولم يريا إلا رجالاً ونساء يتمازحون
ويضحكون ، وكانت ضوضاء سرورهم لا تناسب الموسيقى الحزينة والليل
المتجهم فأمض ذلك يورى .

وانضم إليهما سائين في آخر الميدان وحياهما محتفلاً وكان يورى لا يحبه
فتمتر الحديث .

وراح سائين يضحك من كل مخاوف تقع عليه عينه .

ثم فاباوا إيمانوف فضى معه سائين .

وسألها نوفيكوف

- « أن تذهبان ؟ »

فقال إيفانوف :

— « أريد أن أشارب صديني »

وأخرج زجاجة « فودكا » لوح لها بها مباهايا .
فضحك سائين .

وذهب يورى يعد هذا الضحك والفودكا في الحضيض الأوهه من عامية
النفس وخشونتها ولوى وجهه عنهما مشمئزاً .

ولاحظ سائين ذلك منه ولكنه لم يقل شيئاً .

ولكن إيفانوف قال متهكما :

« أحمده الله إذ لم تجعلني كغيري من الناس ! » .

فاحمر وجه يورى وقال لنفسه :

— « ونكتة مبتدلة أيضاً تضاف إلى سابقها ! » .

وهز كتفيه استخفاً وانصرف .

وقال إيفانوف :

— « نوفيكيوف ! أيها الفريسي الغرير تعال معنا ! » .

فسأله — « لماذا ؟ » .

فرد عليه — « لنشرب » .

فأدار نوفيكيوف عينه في المكان متحسراً، ولكن ليده لم يكن لها أثر .

فضحك سائين وصاح به : « إن ليدها في البيت تكفر عن ذنوبها ! » .

فقال نوفيكيوف مغضباً :

— « ما هذه السخافة ؟ إن علي أن أعود مريضاً ... » .

فأجاب سائين :

— « سنطبع أن يهرب بدون مساعدتك ! ونحن نستطيع أن نشرب

الفودكا بدون معونتك أيضاً » .

فقال نوفيكيوف لنفسه « ولنفرض أنى سكرت ! » .

ثم التفت إليهم وقال :

— « حسن . سأذهب معكما » .

وكان يورى يسمع عن بعد صوت إيفانوف الضخم الحشن وضحكة
سانين الجدلة المستخفة فعاد يمشى فى الميدان وأهابت به ظلمة الليل أصوات
فتيات ندية .

وكانت سينا كارسافينا ودوبوفا المدرسة جالستين على مقعد وهما فى
ثياب قائمة ، ورأساهما عاريان ، وفى أيديهما كتب يحملانها ، ولم يكن يسهل
أن يراها المرء فى الظلام .

فأسرع يورى ولحق بهما وسألها :

— « أين كنتم ؟ »

فقالت سينا :

— « فى المكتبة » .

وتحركت رفيقتها دون أن تتكلم لتفسيح مكانا ليورى .

وكان يود لو جلس بجانب سينا ولكنه لخجله جلس إلى جانب دوبوفا
المدرسة الدميعة .

وسألته دوبوفا :

— « ما لوجهك فيه كل آيات التعاسة ؟ » .

وضممت شفتيها الجافتين كما هى عادتها .

فرد عليها : — « ماذا يحملك على الظن بأنى تعس ؟ إني على العكس
منشرح الصدر . وربما كنت سأهان قليلا » .

فقالت دوبوفا :

— « إن علة ملكك أن لاعمل لك » .

قال - « أو لديك أعمال كثيرة لدا ؟ » .
 قالت - « مهما يكن من الأمر فليس عندي وقت للبكاء » .
 قال - « أتريني أبكى ؟ » .
 فقالت دوبوفا مكايده : - « إن بك نوبة سهوم » .
 قال يورى : بلهجة فيها من المرارة ما ألزمهم الصمت ،
 - « إن حياتى أنستنى الضحك كيف يكون » .
 ثم عاد إلى الكلام بعد فترة .
 - « لقد أخبرنى صديق لى أن فى حياتى عبرة كبيرة » .
 وإن كان لم يقل له أحد مثل هذا الكلام .
 فسألتها سينا بخذر :
 - « كيف ؟ » .
 أجاب يورى : « هى مثال يريك كيف لا يعيش المرء » .
 فقالت دوبوفا :

- « حدثنا عنها بالله لعلنا نستفيد من الدرس »
 وكان يورى يرى أن حياته إخفاق مطلق وأنه هو أتعس الناس وأشقاهم .
 وفى هذا الاعتقاد نوع من السلوى الشجيرة فكان يلد له أن يبيت الناس
 شكاته من حياته ومن الناس على العموم . ولم يكن يحدث الرجال بتيء
 من هذا ، إذ كان يشعر بغريزته أنهم لن يصدقوه . أما النساء - لا سيما
 الشواب الحميلات منهن - فكان على أتم استعداد للإسهاب معهن فى
 تحديثهن عن نفسه .

وكان يورى وسيا محدثا ، ولم يعد فط من النساء العطف عليه
 والمرثية له .

فشرع يحدثهما متفكها فى أول الأمر ، غير أنه لم يلبث أن عاودنه

نغمته المألوفة فأطال في الكلام في نفسه ويظهر مما قال أنه رجل ذو مواهب عظيمة سحقتها قوة الظروف ، وأساء فهمها حزبه وقضى عليه نحس الطالع وحماقة الناس ألا يكون أكثر من طالب منفى لا زعيم أمة .

وكان يورى ككل الراضين عن أنفسهم لا يستطيع أن يدرك أن هذا ليس من شأنه أن يثبت عظم مواهبه ، وأن ذوى العبقرية يلتفت بهم مثل رفقائه وتعرض سبيلهم مثل هذه الكوارث والمصائب ، ولكنه كان يتوهم أنه هو وحده فريسة قدر لا يرحم .

ولما كان محدثا بارعاً وكان في كلامه قوة وحياة فإن ما يقوله كان يكتسب رنة الصديق ، فتصدقه الفتيات ويعطفن عايه . ويساطرنه الأسى لما نزل به .

وكانت الفرقة لا تزال تعزف ألحانها الحزينة المتنافرة والليل حالاك ثقیل الطل فاكتبوا جميعاً . ولما كف يورى عن الكلام سألته دوبرفا وهى تفكر في حياتها المملة الفاترة وصباها البائد قبل أن تدرى ما الطرب أو الحب :

— « قل لى يا يورى ؟ ألم تخطر لك فكرة الانتحار ؟ » .

أجاب : — « لماذا تسألينى هذا ؟ » .

قالت : — « لا أدرى لماذا ؟ » .

وصمتوا جميعاً .

ثم سألته سينا بشىء من التلهف :

— « إنك عضو فى اللجنة . أليس كذلك ؟ » .

فأوجز يورى فى الجواب مجتزئاً « بنعم » .

كأنه يريد أن يعترف بهذه الحقيقة ولكنه فى الواقع سره أن يعترف

لأنه ظن ذلك يزيد اهتمام الفتاة به .

ثم رافقهما إلى بيتهما وجعلوا يضحكون جميعاً ويتحدثون كثيراً طول الطريق ، وانقشعت عنهم سحابة الكآبة .

ولما انصرف يورى قالت سينا :

— « يا أطفه » .

فهزت دوبروفا أصبعها متوعدة .

— « حاذرى أن تقعى فى حبه » .

فقالت سينا : « أى خاطر هذا ؟ » .

وضحكت وإن كان الخوف قد خامرها .

ووصل يورى إلى بيته وهو أكثر انشراحاً وأعظم أملاً ، وذهب إلى الصورة التى كان قد بدأها وجعل يتأملها فلم يجد لها فى نفسه وقعاً ما ، فاستلقى ونام راضياً مطمئناً ، وبدت له فى أحلامه نساء جميلات متأنقات مغريات .

(١٠)

وفى الليلة التالية عاد يورى إلى نفس المكان الذى التقى فيه سينا وزميلتها وكان نهاره كله يفكر مسروراً فيما جرى له معهما من الحديث فى الليلة السابقة .

فراح يرجو أن يلقاهما مرة أخرى وأن يجدتهما كما فعل ، وأن يرى فى عيني سينا الرقيقتين نظرة العطف والحنو التى أنس بها فى ليلته تلك .

وكان المساء ساكناً والجو دافئاً والأثرية الخفيفة تائرة ، والميدان خالياً إلا من واحد أو اثنين من السابلة .

فسار يورى وعينه إلى الأرض ، وجعل يخاطب نفسه قائلاً :

— « ما أشد ملالى . ماذا أصنع ؟ »

وإنه نكثناك وإذا بشافروف الطالب يغذ السير ويطرح بذراعيه ثم دنأمنه
وعلى وجهه ابتسامة الودود وسأله :
« مالك تمنى وثيلا ؟ »

فقال يورى بلهجة فاترة فيها شيء من التعالى :
— « لقد كاد يقتلنى الملل ولا أدرى ماذا أصنع . وإلى أين ؟ »
وكان لا يكلم شافروف إلا بهذه الالهجة لأنه عضو سابق فى اللجنة الثورية أما
شافروف فما هو فى نظره إلا قفى ثورى حديث العهد . فابتسم شافروف ابتسامة
الرضى عن النفس وقال :
« ستلقى اليوم محاضرة »

وأشار إلى حزمة من الرسائل مطوية فى ملف ملون .
فتناول يورى إحداها وفتحها وقرأ المقدمة الطويلة الخافة لخطبة
اشتراكية مشهورة كان يعرفها ثم نسبها الآن .
فسأله يورى — « وأين تلقى هذه المحاضرة ؟ »
ورد إليه الرسالة وعلى فمه ابتسامة الاستخفاف .
أجاب شافروف :
فى « المدرسة »

وكانت هى عين المدرسة التى تدرس فيها سينا كرسافينا ودوبوفا .
فذكر يورى أن أخته لياليا حدثته مرة عن هذه المحاضرات ولكنه لم
يجعل باله إليها ، فسأله . « أسمح لى أن أرافقك ؟ »
أجاب « بالاشك »

وأظهر السرور بهذا الاقتراح وكان يعد يورى مهمجا صميا ويبالغ فى
تقدير كفاءته السياسة ويكرهه ، يحبه .
وأحس يورى أن لابد له من أن يقول :
— « إنى عظيم الاهتمام بهذه الشؤون »
وسره أن عرف كيف يقضى ليلته وأنه سيلاقى سينا مرة أخرى
فقال شافروف : « نعم تهتم بلاريب »

أجاب : « إذن فلنمض »

وسارا مسرعين في الميدان واجتازا الجسر ، وصافحهما من جانبيه الهواء البليل ولم يلبثا أن بلغا المدرسة حيث كان الناس قد اجتمعوا . وكانت القاعة مظلمة وقد صفت فيها المقاعد والأدراج وبدأ القماش الأبيض المعد للمصباح السحري . وكان المرء يسمع أصوات الضحك المكتوم . ووقفت لياليا ودوبوفا عند النافذة ومنها كان الناظر يستطيع أن يرى أغصان الأشجار الخضراء وعليها من الطالام جهامته ، فحيتا يورى فرحين وقالت لياليا :

— « ها أعظم سرورى بحضورك ! »

وهزت دوبوفا يده بشدة .

فقال يورى مستفهما وأدار لحظه فيمن حوله لعله يرى شيئا :

— « لماذا لا نبدأون ؟ »

ثم قال وفي صوته دابل صريح على خيبة أمله :

— « أرى سينا لا تحضر هذه المحاضرات »

وأشعل بعضهم في هذه اللحظة عود كبريت قريباً من منضدة المخاض ، فبدت في نوره قسرات سيما وأصاء محياها النضير الجميل وكانت تنسم في سرور ، فقالت وانحن ليورى ومدت إليه راحتها

— « ألا تحضر هذه المحاضرات ؟ »

فصافحها مسروراً دون أن يتكلم .

واتكأت على قايلا ووثبت إلى جانبه فأحس نَمَسَها العذب المنعش على خده وجاء سافروف من الغرفة المجاورة وقال :

— « قد آن أن نبدأ »

فسار الخادم بخطى تقبلية طائماً بالعرفة ، ودوقا مصابيحها واحدا بعد واحد فشاخ في الحجرة نورها

وفتح سافروف الباب المؤدى إلى المدر وقال بصوت عال :

— « تفَضُّوا من هنا » .

فدخل الناس وكان بهم في أول الأمر بعض الحياء ثم ماعتموا أن حثوا الحطى في جابة وضوضاء .

وجعل يورى يفحص وجوههم ولما كان من مروجى الدعوة السياسية فتمد تحركت نفسه واشتد اهتمامه .

ودخل الحجرة شيوخ وشبان وأطفال لم يجلس منهم أحد في الصف الأول فشغلته سبع سيدات لا يعرفهن يورى وإلى جانبهن مفتش المدارس واساتذة المدارس الابتدائية للبنين والبنات ومعلماتها وغصت بقية القاعة بلابسى الجلابيب والمعاطف الطويلة وبالحدود والملاحين والنساء ربكثير من الأطفال في قصبان ملونة عليها جاكئات واسعة .

رجلس يورى بجانب سينا إلى درج وأصغى إلى شافروف وهو يتلو في سكون — أبدأ نلاوة — خطانا موضوعه حق الانتخاب العام .

وكان صوته جافا مملا فما قرأ شيئاً إلا خيل إلى سامعه أنه قائمة احصاءات . ولكن الناس أصدتوا مع هذا ما خلا المتعلمين الجاسين في الصف الأول . فسرعان ماقلقوا وراحو يتهامسون .

فساء يورى هذا منهم وأدركه العطف على شافروف والأسف ارداء الفائه وكان هذا قد بدا عليه التعب فقال يورى لسينا :

— « ماقولك في أن أنوب عنه ؟ » .

فرمته بنظره رقيقة من تحت أهدابها المرساة . وقالت :

— « نعم . نعم افعل ذلك . بودى لو فعلت » .

فهمس في أذنها مبتسما لها كأنما كانت شريكته :

— « أترين في هذا ضيراً ؟ » .

فالت : « صير ؟ كلا ، كلما حقيقون أن نعتبط » .

وسنحت فترة فعرضت ذلك على شافروف وكان قد نال منه التعب ولم يكن يغيب عنه سوء الفائه فقبل مسرورا وأخلى مكانه ليورى وقال :

— « بلائناك . حباً وكرامة » .

وكان يورى مولعاً بالالقاء يحسنه ويحجده فتقدم إلى المنضدة دون أن ينظر إلى أحد وشرع يتلو بقية المحاضرة بصوت عال متزن .

وسدد لحظه إلى سينا مرتين . والتقت عينه في كل منهما بعينها المتألقة التفصيحة . فابتسم لها مسروراً مرتبكاً ثم رجع إلى كتابه واستأنف القراءة بصوت أعلى وأقوى وكان كأنما يباشر عملاً ليس أسمى منه ولا أمتع ولما فرغ صفح له الجالسون في الصنفوف الأولى فانحنى لهم يورى في أدب ووقار وانصرف عن المنضدة وهو يبتسم لسينا كأنما يريد أن يقول لها : « لقد فعلت هذا من أجلك » وتهاشم الناس قايلاً ثم تجاوزت الحجرة بضوضاء الكراسي لما دفعها الجالسون عاياً إلى الوراء وهم ينهضون عنها .

وفدم يورى إلى سيدتين هنا تاه بحسن القائه .

ثم أطفئت المصابيح وعادت الغرفة مظلمة .

وقال شافروف وهو يهز كف يورى بحرارة :

— « أشكرك كثيراً . وبودى لو أن لنا دائماً من يلقى مثلك » .

وكانت المحاضرة شغل سافروف فأكبر صنيع يورى وطوق نفسه بنمضاه كأنما كان أحسن إليه في أمر يخصه وإن كان قد جعل شكره باسم الشعب . وألح سافروف في ذكر « الشعب » وجعل يؤكد لفظه ويتمول كأنما يودع يورى سرّاً خطيراً :

— « إنهم لا يصعرون هنا شيئاً للشعب فإذا هم فعوا فبدون اكبرات أو احتفال . وغريب أمرهم ! يأتون بطائفة مختارة من خير المستأين والمغنين والمحاضرين ليتلهى بهم المتطاولون من السادات . وأما الشعب فهي محاضر متلى الكفاية . كل امرء راض . فماذا يطامون فوق هذا ؟ » .

وافتر ثغره سروراً بنهكمه الرقيق .

فقال دوبوفا :

— « هذا صحيح . والصحف تفرد أعمدة برمتها للممثلين ولأعمالهم العجيبة . إن هذا مثير حقاً . أما هنا ... » .

فقال شافروف باقتناع وهو يجمع أوراقه :

« ولكن ما أصلح عملنا وأنفعه ؟ » .

فقال يورى لنفسه :

« يالها من غرارة كغرارة الأطفال ؟ » .

ولكن وجود سينما وما وفق إليه هو من النجاح جنحاً به إلى التسامح .
والواقع أن بساطة شافروف وسداجته وقعا من نفسه وأشعراه بعض العطف عليه .

ولما صاروا في الشارع سألتهم دوبوفا :

— « والآن أين نذهب ؟ » .

وكان الظلام في الشارع مثله في الحجرة ولم يكن في السماء إلا بضعة نجوم مضيئة .

وقالت دوبوفا ليورى :

— « أنا وشافروف ذاهبان إلى أسرة راتوف فهل لك أن ترافق سينما إلى المنزل ؟ » .

أجاب : — « بسرور » .

وكانت سينما ودوبوفا يسكنان بيتاً واحداً قائماً وسط حديقة كبيرة مجعدة المنظر .

وكان حديث سينما ويورى أثناء رواجهما دائراً حول المحاضرة ووقعها في نفوس السامعين .

فزاد اقتناع يورى بأنه أتى عظيما وفعل شيئاً مجيداً .

ولما بلغا البيت قالت سينا :

— « هل لك أن تمكث معى برهة ؟ » .

فقبل يورى مسروراً وفتحت الباب واجتازا الفناء المعشوشب وكانت الحديقة تلوه . فقالت سينا ضاحكة :

— « اسبقنى إلى الحديقة . ولقد كان بودى أن أدخلك المسكن ولكنه ليس على ما ينبغى من النظافة والنظام فإنى لم أعد منذ زيارته فى الصباح » .

ودخلت البيت ومضى يورى متريئاً إلى الحديقة الخضراء الأرجة ولم يوجل فيها بل وقف يلتفت فى أرجائها ويحدق فى نوافذ البيت المظلمة كأنما قام بنفسه أن شيئاً يجرى هناك — شيئاً غريباً جميلاً غير مفهوم — وبرزت سينا إلى عتبة الباب ولكن يورى لم يكده يعرفها وكانت قد نصت ثوبها الأسود وارتدت ثوب « الروسية الفتاة » وهو صدرية إلى الخصر قصيرة الأكمام ينسدل من تحتها إلى الساقين قميص أزرق فقالت باسممة :

— « هذا أنا » .

وأجابها يورى رفى صوته نبرة توكيد لا يقدرها غيرها :

— « وكذلك أراك » .

فابتسمت ثانياً ونحث عينها عنه وهما يسيران بين الحشائش الطويلة وأغصان الليلاج . وكانت الأشجار صغيرة وأكثرها أشجار توت لأورافها الصغيرة رائحة الصمغ . ومما يلي الحديقة مرج متفتحة فيه الأزاهير بين الحشائش .

فقالت سينا :

— « دعنا نجلس هنا » .

فجلسا إلى جانب السور المتداعى وجعلا يتأملان الشفق الزائل من وراء المرج ، وتناول يورى عود ليلاج صغير فتساقطت عنه الأنداء .

وسألته سينا : « هل أغنيك ؟ » .

أجاب : « نعم غنى ! » .

فأصعدت سينا نفساً عميقاً كما فعلت ليلة النزهة وبرزت معالم صدرها
البديع تحت صدريتها الرقيقة وهي تغنيه :

« آه يا نجم الحب الوضىء »

وسبحت ألحانها النقية الحارة في جو المساء .

وظل يورى جامداً يرمقها ويحبس أنفاسه أن تطغى بصدوره .

وأحست هي أنها قيد لحظه فأغمضت عينها وانطلقت تغنى أعذب غناء
وأحره .

وكان السكون شاملاً محيطاً كأن كل شىء يصغى ، ومثل في خاطر
يورى سكون الغابات الرهيب في الربيع إذا ما غرد بلبل .

وكانت خاتمة غنائها نغمة صافية عالية غادرت السكون أتم وأشد .

ركان الشفق قد زال وأمست السماء حالكة مهولة وارتعشت الأوراق
والحشائش من حيث لا تراها عين ، وهب على المرج وجاز الحديقة نسيم
لارج خفيف كالزفرة .

فأدارت سينا عينها المتألفتين في الظلام إلى يورى وقالت :

« مالك صامتاً ؟ » .

أجاب : « ما أجمل هذا المكان » .

وتناول عود لبلاج ندى آخر .

فقال سينا بهيئة الحالم : « نعم إنه جميل » .

فقال يورى :

— « جميل جداً أن يعيش المرء » .

وطاف برأسه خاطر غامض مقلق ولكنه لم يابث أن زال قبل أن يستبين ويتضح .

وصفر بعضهم صفرتين عاليتين على الناحية الأخرى من المرج .
ثم سكنت كل نائمة فقالت سينا فجأة وقد سرها على ما يظهر هذا السؤال الذى لم يكن من داع له :
— « أتجب شافروف ؟ » .

فأحس يورى ألم الغيرة لحظة ولكنه أجاب بتؤدة بعد جهد لطيف :
— « إنه رجل طيب » .
فقالت : « ما أعظم انقطاعه لعمله » .

فسكت يورى وتصاعد من المرج ضباب رقيق أشهب وحال لون الحشائش تحت الندى .

وقالت سينا وهى ترتجف قليلا :
— « لقد اشتدت الرطوبة » .

فنظر يورى إلى كتفيها الرقيقتين المستديرتين واضطرب فجأة .
وأحست هى بنظرته فسرت إليها عدوى الاضطراب وإن كان قد سرها ما لاحظت وقالت :
— « لننقم من هنا » .

وعادا أدراجهما آسفين وقطعا ممشى الحديقة الضيق وكانا يبتكان أحياناً وهما سائران : وكل ما حولها مظلم مهجور . ونخيل إلى يورى أن ستبدأ حياة الحديقة الآن — حياة مستسرة مجهولة — وأن ستسلسل بين الأشجار وترتمى على الحشائش المثقاة بالأنداء ظلال غريبة متى انحلت الظلام، وأن أصواتاً ستهامس فى الخضر الساكن من أرجائها .

وأفضى إلى سينا هذا الخاطر فشخصت بعينها السوداوين إلى الظلام

وهي تفكر وقام في نفس يورى أن « سينا » لو نضت عن جسمها كل أرويتها وانطلقت تعدو على الحسائش المطلولة إلى حيث تكاثف الأشجار — وهي عارية بيضاء بجلدة — لما كان في هذا شيء من الغرابة . بل أخلق به أن يكون أمراً طبيعياً حسن الوقع . وليس من شأن هذا الحادث — إذا وقع — أن يزعج حياة الحديقة الخضراء المظلمة ولعلها تستوفي به حاجتها ونازعته نفسه أن يسر إليها بهذا الخاطر ولكن شجاعته خائته فتحدث إليها عن المحاضرات والشعب ولكن الحديث كان مقطع الأوصال ثم كفنا عن الكلام كأنما ضمنا بالألفاظ أن يسوقاها عبثاً .

وهكذا وصلا إلى الباب وهما صامتان باسمان ينفضان باكتافهما الندى عن الأغصان .

وكان كل شيء ساكناً مفكراً سعيداً مثلهما .

وكان الفناء مظلماً مهيجوراً كما ألقياه من قبل . ولكن الباب الخارجى كان مفتوحاً وتأدى إليهما من البيت وقع أقدام مسرعة وصوت أدرج تفتح وتقفل فقالت سينا :

— « لقد عادت أوجا » .

وسألت دوبروفا من البيت :

— « سينا ! أهذا أنت ؟؟ » .

وكان في نبرة صوتها ما شعر بوقوع أمر سيء وبرزت إلى الباب مضطربة حائلة اللون . وقالت وأنفاسها منبهرة :

— « أين كنت ؟ لقد كنت أبحث عنك . إن سمينوف يموت ! » .

فصاحت سيديا فزعرة :

— « ماذا تتولين ؟ » .

أجابته : « نعم يموت . فقد انفجر أحد أوعية الدم . ويقول أنا تول بافلوفتش أنه مقضى عليه . وقد حملوه إلى المستشفى . وكان كل ذلك بسرعة مرعبة . فقد كنا في بيت راتوف نشرب الشاي وكان المسكين جذلاً يجادل نوفيوكوف في كل مسألة . ثم أخذ السعال فجأة فنهض وقطرح ونفث الدم على كساء المائدة وفي طبق المربي ... والدم أسود سائل » .

فسألها يورى باهتمام ساهم :

« وهل هو يعرف ذلك ؟ » .

وذكر الليلة القمراء والظال الحالك والصوت الضعيف المتقطع يقول له « ستكون حياً وتمر بقبرى وتقف عليه وأنا . . . » .

فقال دوبوفا وعلى يديها حركة عصبية :

— « نعم يظهر أنه يعرف . فقد دارت بنا عينه وسألنا « ما هذا ؟ » ثم أخذته الرعدة من فرعه إلى قدمه وقال : « أو قد قضى الأمر ؟ » . ليس هذا فظيماً ؟ » .

فقال يورى : — « هذا أهول مما يطاق ! » هـ

وصمتوا جميعاً .

وكان الظلام الآن حالكاً . ومع أن السماء صافية فقد توهموا فيها الكآبة والحزن .

ثم قال يورى ووجهه أصفر :

— « الموت شيء فظيع » .

فتهدت دوبوفا ونظرت إلى الفضاء . وارتعشت ذقن سينا وابتسمت وهي لا تملك غير ذلك ولم تستطع أن تحس ما أحساه من الهول . وهي غادة في عنفوان الصبا يجول في عودها ماء الحياة اللدافق ولا يسعها أن تحصر

خواطرها في الموت . ولم يكن مما يصدقة خيالها أو يقوى على تصوره أن يتعذب أحد ويموت في ليلة صيفية جميلة وضيئة كهذه . نعم إن الموت طبيعي لا شك فيه ، ولكنه لسبب ما خطأ . وأخجلها هذا الإحساس فعاجلت أن تنفيه وأن تظهر على قسما وجهدا لئلا تل العطف . وراحت بفضل هذا الجهد وهي أظهر أسي من صاحبها وسألت :

— « مسكين ! أهو حقيقة . . . ؟ » .

وكانت تريد أن تسأل « هل سيموت عاجلا ؟ » .

ولكن الألفاظ وقفت في حلقها .

وجعلت تلقى على دوبروفا أسئلة فارغة مفككة .

فقال دوبروفا بصوت فاطر :

— « إن أنا تول بافاو فتش يقول إنه سيموت الليلة أو غدا صباحاً » .

فهمست سينا :

« أولا نذهب إليه ؟ أم تريان أن البقاء خير ؟ لا أدري ! » .

وكان هذا السؤال يدور في أذهانهم جميعاً — أيذهبون ويشهدون سمينوف وهو يقضى نحب؟ أيكون هذا خطأ منهم أم صواباً — ورغبوا جميعاً في الذهاب ولكنهم أشفقوا مما عسى أن يشهدوا .

فهمز يورى كتفيه وقال :

« فلنذهب . ومن المحتمل جداً أن لا يأذنوا لنا وربما . . »

فأضافت دوبروفا كأنما ارتفع عن كاهلها عبء :

— « ربما طلب سمينوف أن يرى بعضهم على الخصوص »

فقال سينا بلهجة باتة :

— « تعالوا بنا ! سنذهب »

وقلت دوبوفا وكأنها تريد أن تسوخ الأمر لنفسها :

— « إن شافروف ونوفيكوف هناك » .

وعدت سينا إلى البيت لتعود بقبعتها ومعطنها ثم مضوا جميعاً في وجوم
مخترقين الباردة إلى البناء الضخم الأشهب ذي الأدوار الثلاثة أى المستشفى
الذى كان سمينوف يجود فيه بأنفاسه .

وكانت الممرات الطويلة ذات الأقبية مظلمة تتصاعد منها رائحة اليودوفرم
والكاربولىك .

ومروا في طريقهم بقسم المجانين فسك أسماهم صوت ناثر أجش ،
ولكنهم لم يروا أحداً ففرعوا وحشوا الخطى إلى نافذة صغيرة معتمة .

وجاء إليهم فلاح هرم شائب الرأس والاحية وعلى صدره « فوطه »
كبيرة وقدماه في حذائين عاليين ضخمين يدب بهما على الأرض .
لسألمهم ووقف :

— « من تريدون أن تعودوا ؟ » :

فقلت دوبوفا متلجلجة :

— « جىء بطالب إلى هنا — سمينوف — اليوم ا » :

فقال الخادم :

— « رقم ٦ فى الدور الثانى » .

وتركهم وسمعوه يتمخط ويهتق على الأرض ثم يدهس البصاق
بقدمه .

وكان الدور الثانى أضوأ وأنظف ولم تكن بالسقف عقود ورأوا باباً
مفتوحاً مكتوباً عليه « حجرة الطبيب » ولحوا فيها مصباحاً يضيئها وسمعوا
أصوات الزجاجات والأكواب .

فأدخل يورى رأسه ونادى من فيها فانقطعت الأصوات .
وظهر ريزانترزيف نضير الوجه مسروراً كعادته وقال بصوت طروب
إذا كان قد أُلِف هذه الحوادث التى أحزنت زائريه :

— « آه إن دورى اليوم . كيف أنتم سيداتى ؟ » :

ثم قطب فجأة وقال بلهجة جادة كبيرة الدلالة :

— « إنه لا يزال غائباً عن رشده على ما يظهر . فلنذهب اليه إن نوفيكونوف
وغيره هناك » .

وساروا واحداً وراء الآخر فى الممر الضيق النظيف وإلى يمينهم ويسارهم
أبواب بيضاء عليها أرقام سوداء وقال ريزانترزيف :

— « لقد أرسلنا فى طلب القسيس : ما أسرع ما جاءت الخاتمة ! إلى مستغرب !
ولكنه أصيب بهرء كما تعلمون وهذا هو الذى قضى عليه . هذه هى الغرفة » .

وفتح ريزانترزيف باباً أبيض ودخل منه وتبعه الآخرون يتصادمون على
العتبة .

وكانت الغرفة نظيفة رحبة . وفيها أربعة أسرة خالية وعلى كل منها
غطاؤه الخشن مطويا يحضر فى الدهن صورة النعش . وفى السرير الخامس
رجل هرم ضئيل الجسم جاف العود جالس يلحظ الداخلين وعلى السرير
السادس سمينوف وفوقه غطاء خشن كذلك . وإلى جانبه نوفيكونوف
منحنياً إليه . على حين كان إيفانوف وشافروف واقفين عند النافذة .

وكانوا كلهم يرون من الأمور الغريبة المؤلمة أن يتصافحوا فى حضرة
رجل يموت وربكم أن لا يفعلوا كأن فى ترك المصافحة إشارة إلى أن المنتهى
قريب . فسلم البعض وامتنع الآخرون ووقفوا جميعاً يرمقون سمينوف
بعميون مستفسرة

وكان يتنفس ببطء وجهده . وما أبعدته عن سمينوف الذى يعرفونه ،
والواقع أنه لم يكن كالأحياء . وقد ظلت معارفه وأوصاله ولكنها صارت
متصلة مشدودة فظيعة المنظر . وكأن ذلك الذى يصب الحياة والحركة فى
أجسام الادميين غيره لم يعد له وجود . وكأن أمراً مربعاً يجرى بسرعة
وتكتم فى هذا الجسم الجامد — أمراً مهماً لاسيما إلى إرجائه وكأنما لم يبق
له من الحياة إلا تلك القوة المشتغلة بهذا العمل المتفرغة لاتمامه باهتمام حاد
لا يناله التفكير .

وكان المصباح المدلى من السقف يصب ضوءه على وجه ذلك المائت .
وكل من فى الغرفة يتنثره النظر ويلقى أنفاسه كأنما يخشى أن يزعج شيئاً
رهيباً . فكانت أنفاس المريض المحشجة المخنوقة — وسط هذا
السكون — واضحة وضوحاً مربعاً

وفتح الباب ودخل قسيس بدين قصير يسير بخطى قصيرة ضعيفة ومعه
المرتل وهو رجل أسمر هزيل ودخل معهما سائين وسعل القسيس سعالاً
خفيفاً وانحنى للطبيين وللحضور فردوا عليه بأدب مبالغ فيه ثم عادوا
إلى الصمت التام .

أما سائين فلم يجعل باله إلى أحد . ومضى إلى النافذة ومن ثم أخذ يرصد
سمينوف والحاضرين جميعاً منتقياً فى سرائرهم معالجا أن يستشف من
الوجوه ما يحسه المريض ومن حوله ويفكرون فيه فى الواقع .

وظل سمينوف جامداً يتنفس كما كان .

وقال القسيس فى رفق غير موجه سؤاله إلى أحد على التعيين .

— «إنه غائب عن رشده . أليس كذلك؟» .

فأسرع نوفيوكوف وأجابته : « نعم » .

وتتم سائين شيئاً غير مفهوم فنظر إليه القسيس مستفسراً غير أن سائين ظل صامتا فصرف القسيس وجهه عنه ومسح شعره ورده إلى الوراء ولبس عباة وشرع ينشد التراتيل للميت بصوت عال شجي .

وكان صوت صاحبه المرتل ضخماً خشناً ثقيلًا فصار الصوتان مختلفان مؤلين في تنافرهما وهما يتصاعدان إلى السقف العالي .

ولم يكده الترتيل يبدأ حتى اتجهت كل العيون في فزع إلى ذلك الذي يموت . وكان نوفيكيوف أدنى إليه فخيّل إليه أن جفون سمينوف اختلجت قليلاً كأنما تحرك من تحتها الإنسانان المكفوفان في اتجاه الغناء . أما الآخرون فلم يروا إلا أن سمينوف بقي بلا حراك كما كان من قبل .

ولم يكده الترتيل يبدأ حتى بكت سينا بكاء ساكناً ماحاً وانهمرت الدموع على محياها النصير الجميل . فتهولت إليها العيون وشرعت دوبوفا تبكي كذلك وجالت العبرات في عيون الرجال ولكنهم قرصوا أسنانهم ليمنعوا الدموع أن تسيل . وكانت الفتيات كلما علا الترتيل يزددن نحيباً . فهبس سائين وهز كتفيه مخنفاً وجعل يقول لنفسه : ما أنخلق سمينوف أن لا يطيق — إذا سمع — هذا العويل الذي يكرب نفس الأصحاب ثم قال للقسيس في غيظ :

— «خفض من صوتك ! » :

فقال القسيس إليه ليسمع ما يقول فلما فهم معناه قطب وزاد في صوته علواً . وحملق رفيقه في سائين ورماه الجميع بنظرهم كذلك وبهم زيج من الخوف والدهشه كنه فال شيئاً يسوء فأعرب سائين عما به من الضيق بإيماء ولم ينبس .

ولما انتهى من الترتيل وطوى القسيس الصليب في عباة ألح الانتظار على النفوس بالألم .

وكان سمينوف متصلباً جامداً كالعهد به :

ثم طاف بأذهان الجميع فجأة خاطر فطابع لاسبيل إلى مغالبتها . ونفيه .
« أما لو أنه انتهى الأمر بسرعة ! لو أن سمينوف يعجل بالموت ! » .
ولكن الخوف والحجل دفعاهم إلى كتمان هذه الرغبة والاكتفاء
بتبادل النظرات الضعيفة .

فقال سائين بصوت منخفض :

— « أما لو انتهى كل هذا ! فطبع . أليس كذلك ؟ » .

فأجابه إيفانوف :

— « نعم » .

وكان كلامهما همسا ومن الجلى أن سمينوف لم يكن يستطيع أن يسمعهما
غير ان الحاضرين بدت عليهم إمارات الاشتزاز والاستفزاز .
وهم شافروف أن يقول شيئاً ولكن صوتاً جديداً شاكياً لاسبيل إلى
وصف ما انطوى عليه من ألم — دوى في الغرفة وأرسل الرعدة في الموجودين .
ذلك أن سمينوف أخرج هذا الصوت :

« اي..... اي..... » اي..... » .

وكأنما اهتدى إلى طريقة يطلبها للتعبير والنطق فمضى يخرج هذا الصوت
الممطوط لايعوقه الا نفسه المحشرح المخبوق .

ولم يدرك الحضور في أول الأمر ماذا حدث له .

ولكن سينا ودوبوفا بكتا .

واستأنف القسيس ترتيبه في بطة واحتفال وظهرت على وجهه السمين
الطبيب دلائل العطف والانفعال .

ومضت دقائق . وكف سمينوف فجأة عن التوجع . وهمس القسيس أن قد
قضى الأمر

ثم حرك سمينوف ببطء وبجهد جاهد شفثيه المصمتين وتقبض وجهه
كأنما يبتسم وسمع النظارة صوتاً أجوف منكراً يخرج من أعماق صدره وكأنه
خارج من نعش - يقول :

- « أيها الشيخ الأحق ! » .

وعيناه تنظران شزرا إلى القسيس وشاعت الرعدة في جسمه ودار حملاقيه
كالمجنونين في كهفيهما وتمطى .:

وسمعوا جميعاً كلماته الثلاث ولكن لم يتحرك منهم أحد وغاضت -
لحظة - من وجه القسيس السمين الرطب آية الحزن وتلفت حوله في قلق
غير أن لحظه أخطأ كل عين .
وكان سائين وحده يبتسم .

وحرك سمينوف شفثيه ثانياً غير أنه لم يخرج منهما صوت واسترخى
أحد شاربيه الخفيفين وتمطى مرة أخرى وصار في رأى العين أطول
وأفطع . وانقطع كل صوت وكل حركة . ولم يبك أحد الآن . فقد كان
نزول الموت أهول من ترنيقه وكأنما كان من الغريب المعجب أن ينتهى
منظر دفتت كهنا بمثل تلك السرعة والبساطة .

فظاوا برهة وقوفا إلى السرير يتأملون معارف وجهه الميتة النائمة وكأنهم
يتوقعون أن يحدث شئ جديد وراحو - لكى ينهوا في نفوسهم الإحساس
بأهول والمرثية - يرقبون نوفيكون وهو يغمض أجفان الميت ويضع له
يديه على صدره .

ثم خرجوا في سكون وحذر . وكانت المصابيح قد أضيئت في الممر
وبدا لهم كل شئ مألوفاً فخالصت أنفاسهم .

وكان القسيس أول الخارجين فضى بخطوات قصيرة وأراد أن يقول شيئاً
على سبيل العزاء للإيضاح من الحاضرين فتهد وقال بصوت رقيق :

- « وآسفاه ! إنه لأمر محزن جداً ! وفي مثل هذا الشباب أيضاً .
 وآسفاه ! ومن الواضح أنه مات غير نائب ولكن الله رحيم » :
 فقال شافروف وكأنه يليه متوخيا الأدب :
 — « نعم : نعم . بالطبع » .
 فسأل القسيس :
 — « أتعرف أسرته ما حدث » .
 فأجابه شافروف :
 — « لست أدرى » .
 ونظر بعضهم إلى بعض في دهشة واستغربوا واستقبحوا أن لا يعرفوا
 من هم أهل الميت .
 وقالت سينا : « أظن أخته في المدرسة العالية » .
 فقال القسيس :
 — « آه حسن ! والآن عموا مساء » .
 ورفع قبعته قليلاً بأصابعه السميكة .
 فقالوا جميعاً بصوت واحد .
 — « عم مساء ! » .
 ولما بلغوا الشارع تهادوا كأنما تخلصوا . وسألهم شافروف :
 — « أين نذهب ؟ » .
 وبعد تردد قليل ودع بعضهم بعضاً ومضى كل في طريقه .

(١١)

لما رأى سميتوف الدم الذي نفث وأحس الفراغ الرهيب في نفسه ومن
 حوله : ولما احتملوه ومضوا به ووضعوه وقاموا له بكل ما كان يفعل

هو في حياته - حينئذ أيقن أنه سيموت وعجب كيف لا يشعر بأقل فزع من الموت .

وقد قالت دوبوفا : إنه ربيع لأنها هي نفسها ربيع وتوهمت أنه لما كان الصحيح المعافى يهرب الموت فلا بد أن يكون المختصر أعظم فزعا واستهوالا له . وحسبت اصفراره وشروده نظرتة - وهما نتيجة الضعف وخسارة الدم - دليلا على الخوف . ولكن الأمر لم يكن كذلك في الواقع . وكان سمينوف يخاف الموت أبدا ويفرق منه لاسيا منذ عرف أنه مصاب بالسل . وكان في أول مرضه نهب الفزع وفريسة الدعر شأنه في ذلك كشأن المحكوم عليه بالإعدام ضاع كل رجاء في العفو عنه . وكاد يصور له الرعب أن الدنيا لم يعد لها وجود منذ تلك اللحظة وأن كل مستباح جميل سار قد اختفى وزال وأن ما حوله يموت ويقضى نحبه وأن كل لحظة بل كل ثانية قد تكرر عليه بالفزع الذي لا يسعه طوق والمستهول كالهواية السحيقة السوداء الفاغرة . وكان الموت يتمثل له كالهواية الهائلة المظلمة كالليل . وكانت هذه الهواية أبداً ماثلة لعينه حيثما ذهب . وفي ظلامها الكثيف يختفى كل صوت وكل لون وكل إحساس . وأخلق بمثل هذه الحالة النفسية أن تكون مرعبة ولكنها لم تطل وصار سمينوف كلما أخب به الداء وأوجف على مر الأيام يزيد الموت في نظره بعداً وعموضا والتياثا .

واسترد ما حوله من الأصوات والألوان والعواطف قيمته الأولى عنده وعادت الشمس تشرق كأضواء ما كانت . ورأى الناس يباشرون أعمالهم كالعادة وأحس هو مثلهم أن ثم أموراً خطيرة وأخرى تافهة ينبغى له أن يعالجها . وصار يقوم في الصباح ويتجرى العناية في غسل وجهه ويتناول غذائه ويستمره أو لا يستمره كسابق عهده ويجد الغبطة بالشمس تطع والفمر ينير والضيق بالمطر والرطوبة كما كان . ويعب البليارد مساء مع نوفيكراف وغيره ويفرأ الكتب ويستجيد بعضها ويستسخن البعض ويستردله كعهده قديماً .

وضايقه — بل آلمه في أول الأمر — إن كل شيء ظل على حاله لم يلحقه تغيير فحاول أن يبدل هذا الحال بأن يدفع الناس إلى الاهتمام له والاكتراث لموته وأن يكرههم على أن يقدروا موقفه المفزع وأن يدركوا أن الأمر قد قضى : غير أنه كان كلما أفضى إلى إخوانه بهذا يعود فيرى أنه لم يكن ينبغي له أن يفعل ذلك وكانوا يعجبون أولاً ثم يتشككون ويذهبون إلى الريب في دقة تشخيص الطبيب للمرض . ثم جعلوا يتوخون آخر الأمر أن يتقوا غضاضة وقع المسألة بأن يغيروا موضوع الكلام ويحاولوا مجرى الحديث . وهكذا ألقى سمينوف نفسه يحادثهم في كل شيء ما خلا الموت .

ثم نزعت نفسه إلى العزلة وأن يخلو أبداً بنفسه وأن يتعذب مستفرداً إذ كان حيز إدراكه قد استغرقه القضاء المنتظر . غير أن كل شيء بقي على حاله كما ظلت حياته وأوساطه كما كانت فبدا له أن من الخرف أن يتصور أن الأمر يمكن أن يكون على خلاف ذلك أو أنه هو سيصبح ولا وجود له وصار خاطر الموت أقل لدعا بعد إذ كان جرحاً عميقاً . ووجدت روحه المكروبة حريتها وتعددت لحظات النسيان التام وانبسطت أمامه وجوه الحياة رائعة اللون والحركة والصوت .

ولم يعد يطوف بنفسه إحساس الهاوية السوداء إلا وهو وحده ليلاً . فكان بعد أن يطفىء المصباح يرى شعاعاً مسيحياً لا شكل له ولا معارف يشارفه شيئاً فشيئاً في الظلام ويهمس في أذنيه « شش . . شش » بلا انقطاع فيجاوبه صوت بشع كأنه خارج من جوفه ويحس أنه صائر بعض هذا الهمس وهذه الهيولى ويرى حياته فيها لهيباً وانياً محتضراً قد ينطفئ في أي لحظة :

فاعتزم أن يدع المصباح يضيء الغرفة الليل كله وكانت هذه الهمسات تنقطع في الضوء والظلمة تاتسح . وفارقه إحساسه بأنه معلق على فوهة هاوية

باغرة لأن النور أشعره وجود ألف شيء نافه مألوف في حياته كالكرامى والنور والدواة وقدميه ورسالة لم يتم كتابتها والحذاء الذى نسى أن يتركه خارج لغرفة وغير ذلك من الأشياء اليومية المحيطة به .

على أنه مع ذلك كان يسمع همسات صادرة عن أركان الغرفة التى لم ينرها ضوء المصباح فتغفر الهاوية فاها له . فكان يعرق من النفلر إلى الظلام بل من التفكير فيه لأنه كان إذا فعل تكتنفه الحلوكة المزعجة وتمحجب عن عينه المصباح وتخفى العالم كأنما أضمره ضباب بارد كثيف . وكان هذا هو الذى يعذبه ويفزعه حتى أكان يحس الحاجة إلى البكاء كالطفل أو أن ينطح الحائط برأسه .

ولكنه ألف هذه الإحساسات والهاجس على مر الأيام وكالما دنا من الموت . ولم تكن تلج به وتطفى إلا إذا أذكره مدكر — من كلمة أو إيماءة أو منظر جنازة أو قبر — أنه هو أيضاً لا محالة ميت فآلى — لكنى يتقى هذه النذر — أن لا يسير فى سكة تؤدي إلى المقبرة وأن لا ينام على ظهره ويدها مطويتان على صدره .

وكأنما كانت له حياتان : حياته الأولى الرجبية المفهومة وهذه لا تتسع لخاطر الموت بل تغضى عنه إذ كانت فى شاغل من شئونها وهى متعلقة بالأمل فى البقاء أبداً كأننا ما كان ثمن ذلك — وحياة أخرى مستمرة غامضة غير معينة تقرض — كالودودة فى التفاحة — قلب حياته الأولى وتسميها وتجعلها غير محددة .

وهذا الازدواج فى حياة سمينوف هو الذى جعله لا يكاد يخس أى فزع لما واجه الموت وأيقن أن المنتهى قريب . فلم يزد على أن سأل « أو قد قضى الأمر ؟ » ليعرف على وجه التحنيق ماذا يجب أن ينتظر .

ولما قرأ فى وجوه من حوله جوابهم عن سؤاله عجب للموت كيف يكون على هذه البساطة كأنه مهمة ثقيلة أرهقت قواه وأدرك فى الوقت نفسه بنوع

من الإلهام الباطن أنه لا يمكن أن يكون إلا هكذا وأن الموت نتيجة طبيعية لاستنزاف حيويته ولم يتحسب على شيء سوى أنه لن يرى شيئاً بعد ذلك .

ولما احتملوه في المركبة إلى المستشفى جعل يحملق وعيناه مفتوحتان كل الفتح محاولاً أن يأخذ كل شيء بنظرة وأسف لأنه لا يستطيع أن يثبت في ذاكرته كل دقيق وجليل في هذه الدنيا بسماها اللانهاية وأناسها وخضرتها وآفاقها القصية الزرقاء وصار كل ما لم يكن قد فطن إليه حبيباً إلى نفسه عزيزاً عليها ككل ما كان يجده حافلاً بالجمال والخطر الجليل لا بل أحب من أن يناله وصف وأقوم من أن يفي ببيانته تعبير . فن السماء القائمة المترامية ونجومها الواججة إلى ظهر السائق الهزيل ومن وجهه : نوفيكيوف المكتتب إلى الطريق القرب ومن المنازل ونوافذها المضيئة إلى الأشجار الجهمجة التي ظلت مكانها وراءهم في صمت . ومن العجلات المضطربة إلى نسيم العشي اللين . — كل أولئك رآه وسمعه وأحسه .

ولما صار في المستشفى دارت عيناه بسرعة في الغرفة الكبيرة ورصدت كل حركة وشخص حتى صرفهما الألم الجثافي الذي أشعره العزلة المطلقة عما حوله . وانحصرت مداركه في صدره منبع كل آلامه — تم أخذ في ببطء شديد يفارق الحياة وصار إذا رأى شيئاً يستغربه ولا يرى فيه معنى . . فقد بدأ الصراع الحاسم بين الحياة والموت واكتظ به كل كيانه وخلق له عالماً جليداً غريباً موحشاً — عالماً من الفزع والألم والصراع اليائس .

وكانت تعاوده من حين إلى حين لحظات انتباه وإفاقة فينقطع الألم ويهدأ ويعمق تنفسه وتستبين الشخوص والأصوات من خلال النقب الأبيض . غير أن كل شيء كان ضعيفاً وباطلاً كأنه آت من مكان سحيق . وكان يسمع الأصوات واضحة ثم لا يتبينها أما الأشخاص فلم يكن لحركاتها صوت كأنها أشباح الصور المتحركة وأنكر الوجوه التي كان يعرفها ولم يستطع أن يذكرها .

وكان على السرير المجاور له رجل له وجه حليق غريب يقرأ شيئاً ويرفع الصوت به. لماذا يقرأ؟ ولماذا يقرأ؟ لم يعن سمينوف بالتفكير في هذا. وسمع بأجلى وضوح أن الانتخابات البرلمانية أرجئت وأن بعضهم حاول أن يقتل غراندوقا — ولكن الألفاظ كانت فارغة لا معنى لها كأنها الفقاقيع انفجرت وزالت ولم تخلف وراءها أثراً.

وتحركات شفتي الرجل والتمتعت أسنانه ودارت عيناه وخشخشست الورقة وأضواء المصباح المدلى من السقف ودارت حوله فراشات كبيرة سوداء فظيعة المنظر. وكأنما اشتعل في ذهن سمينوف طيب فأنازل كل ما يحيط به وأحس فجأة أنه لا يعنيه شيء وأن كل ما في الدنيا من قوة لا يستطيع أن يطيل حياته ساعة واحدة وأنه لا بد أن يموت. فهوى مرة أخرى في أمواج الضباب الخالك وعاد الصراع الصامت بين قوتين هائلتين خفيتين تحاول إحداهما بأقصى ما أوتيت من العنف أن تقضي على الأخرى.

وكانت إفاقة سمينوف للمرة الثانية لما سمع البكاء والترتيل فلم ير وجه الحاجة إلى هذا إذ كان لا صلة له بما هو جار في جوفه على أن ذلك أضواء ذهنه لحظة فرأى بوضوح وجه رجل مزيف الكتابة لا يعنيه من أمره شيء على الإطلاق. وكانت هذه آخر دلائل الحياة. أما ما تلا ذلك فيمتجاوز مدى الفكر والإدراك.

(١٢)

قال إيفانوف اسانين :

— « تعالى عندي نخبي ذكرى الفقيد » .

فهز سانين رأسه دلالة على الموافقة واشتريا في طريقهما شيئاً من الفودكا

والخضر وأدركا يورى وكان يتمشى مستمهلا في الميدان وعلى وجهه كآبة شديدة .

وكان موت سمينوف قد وقع من نفس يورى موقعاً أليماً مزعجاً رأى معه من اللازم أن يحلله وإن كان قد أعجزه ذلك فقال لنفسه محاولاً أن يرسم خطأً مستقيماً قصيراً في ذهنه :

— « إن الأمر بسيط على كل حال . لم يكن الإنسان موجوداً قبل أن يولد وليس في هذا شيء مفرع أو غير مفهوم . والإنسان ينتهي وجوده متى مات . وهذا — كسابقه — بساطة وسهولة إدراك فالموت . وهو الوقوف التام للأداة التي تخلق القوة الحيوية ، فهمه ميسور على أتم وجه وليس فيه ما يفرع الخاطر ولقد غبر زمن كان فيه غلام اسمه « يورا » ذهب إلى الكلية وضارب زملاءه وكان يتلهى ويروح عن نفسه بأن يقطع رؤوس الأشواك ويقضى حياته الخاصة الممتعة على النحو الخاص به . وقد مات « يورا » هذا وذهب في سبيل من خلا وحل محله رجل آخر عشى ويفكر هو الطالب « يورى » . ولو أنهما التقيا لما وسع « يورا » أن يفهم « يورى » ولعله يعمته ويرى فيه أستاذاً مربياً يحمله مالا آخر له من المتاعب . لهذا كان بينهما جون يتعاضم المجتاز . ولهذا أيضاً أرى أنى أنا قد قضيت نحبي بموت الغلام « يورا » وإن كنت لم أفطن لهذا من قبل . هذا هو واقع الأمر . وإنه لطبيعي بسيط ! وماذا يخسر الإنسان بأن يموت ؟؟ إن الحياة على كل حال يرجح فيها الشقاء بالسعادة . نعم إن لها مسراتها وما أتمنى أن ينفض المرء يده منها ! ولكن الموت يريحنا من كثير من البلايا والشرور فنحن في نهاية الأمر نستفيد به ونريح من ورائه . ما أبسط هذا وأقل عناصر الفزع فيه !! أليس كذلك ؟؟ » .

قال يورى آخر جملة بصوت عال وتنفس الصعداء غير أنه فزع فجأة فقد طاف برأسه خاطر للداع .

« كلا ! عالم بأسره ، حافل بالحياة ، معقد الأمر إلى حد يتجاوز المدارك ، هذا العالم يحول فجأة إلى عدم ؟ ؟ كلا ! ليس هذا في شيء من تطوّر الغلام « يورا » وصيرورته الرجل « يورى » أن هذا سخيف مثير وهو لذلك مفرع غير مفهوم ! » .

وجاهد يورى بكل ما استطاع من قدرة أن يكون لنفسه فكرة عن هذه الحالة اتنى لا يرى أحد أن في الطوق احتمالها والتي يحتملها كل أمرىء على الرغم من ذلك كما فعل سمينوف .

وعاد يورى إلى مخاطبة نفسه وهو يبتسم لغرابة الخاطر فقال :

— « ولم يمت خوفاً مع ذلك ! كلا ! لقد كان يضحك منا جميعاً ويهزأ بقسيسنا وتراتيلنا وعبرتنا . ألا كيف وسع سمينوف أن يضحك وهو موقن أنه بعد دقائق لا يكون ؟ ؟ أترأه كان بطلا ؟ كلا ! ليست المسألة مسألة بطولة . إذا فالموت ليس من الهول بحيث أتوهم ! » .
وأنه كذلك وإذا بايفانوف يحييه فجأة بصوت مرتفع فسأله يورى وهو يرحف :

— « آه ! هذا أنت ! أين تراك ذاهب ؟ » .

فقال ايفانوف بجذل وحشى :

— « إلى الصلاة على روح صديقنا الفقيد ! ونحير لك أن تمضى معنا . ما خير أن تظل دائماً مستفرداً ؟ ؟ » .

ولما كان يورى حزينا مهجوما فإنه لم يجتو سائين وإيفانوف كالعادة . وقال :

— « حسن جداً . سأمضى معكما » .

ثم ذكر فجأة بعد المدى بينه وبينهما وأنهما دونه مواهب وملكات فقال لنفسه :

— « أى جماعة بينى وبين مثل هذين ؟ أشار بهما الفودكا وأروح أهدر مثلهما ؟ » .

وهم أن ينصرف عنهما ولكن إشفاقه من الوحدة بلغ منه مبلغاً دفعه إلى البقاء معهما .

ولم ينبث سائين ولا إيفانوف بشيء ووصلوا جميعاً في صمت إلى بيت إيفانوف . وكان الظلام قد أرخى سدوله وبدأ لهم شبح رجل واقف عند الباب ومعه عصا غليظة معوجة اليد فقال إيفانوف مغتبطاً :

— « أنه العم بيتر ايليتش » .

فأجابه الشيخ بصوت عميق رنان :

— « نعم هو بعينه » .

وذكر يورى أن عم إيفانوف شيخ سكير ياشد التراتيل في الكنيسة وكان شاربه أبيض فأكسبه ذلك منظر الجندي على عهد نيقولا الأول . وفغمتهم من معطفه الأسود البالى رائحة كريهة .

« بوم . بوم » هكذا كان صوته فكأنه خارج من جوف برميل :

وعرفه إيفانوف بصاحبه يورى فصافحه وهو لا يدرى ماذا يقول . لمثل هذا الرجل . على أنه ذكر أن الناس ينبغي أن يكونوا سواء عنده فتأدب مع المغنى الكهل وتركه يتقدمه في الدخول .

وكان بيت إيفانوف أشبه بمخزن أخشاب منه بمسكن لإنسان لكثرة التراب وقلة الترتيب والنظام .

ولكن إيفانوف لم يكد يشعل المصباح حتى وجد يورى أن الجدران مغطاة بصور فاستسوف وأن ما خاله أقداراً ليس سوى كتب مكادسة أكواما على أن هذا لم يخفف من ضيقه فذهب يتأمل الصور ليخفى ما به .

وسأله إيفانوف :

— « أتحب فامينتسوف ؟ » .

ولم ينتظر الجواب بل غادر الغرفة طلباً للصحاف .

وتعني نسانين صديقهم سمينوف إلى بيتر فقال هذا :
« رحمته الله ! آه ! لقد قضى أمره ! » .

قرماه يورى بنظرة المستطلع وأدركه العطف على هذا الشيخ الهرم .
وعاد إيفانوف بخبز وكؤوس وبشيء من الخضر المملحة ووضعها على
المائدة وكانت مغطاة بجريدة . ثم فتح زجاجة بسرعة لا تكاد تحس ويحدث
بلغ منه مع السرعة أن لم تسقط قطرة واحدة .
فقال بيتر معجباً موافقاً :

« يد صناع ! » .

فقال إيفانوف بلهجة الراضى عن نفسه وهو يملأ الكؤوس بالشراب
الأخضر .

« إنك تستطيع أن تبين في لحظة هل المرء عارف بما يعالج أم
جاهل به » .

ثم رفع صوته وهو يتناول الكأس وقال :

« والآن أيها السادة لنشرب على ذكر الفقيد الخ ! » .

وشرعوا يأكلون وأصابوا من الفودكا كثيراً وأقلوا من الكلام وأكثروا
من الشراب وما هي إلا برهة حتى عاد جو الغرفة جاراً ثقيلًا .
وأشعل بيتر سيجارة فاختلط بالهواء الدخان الأزرق المتصاعد من الطباقي
الردىء .

فدار رأس يورى من الخمر والدخان والحرارة وجرى بهاله سمينوف
مرة ثانية فقال :

« إن في الموت شيئاً مفرعاً » .

فسأله بيتر :

« لماذا ؟ الموت ؟ هو هو هو ! إنه لا بد منه . الموت ؟ تصور أن يحيا
الإنسان أبداً ؟ هو هو ! لا ينبغي لك أن تتكلم على هذا النحو . الحياة الأبدية
حقاً ! ماذا عساها أن تكون ؟ » .

فعالج يورى أن يتصور الحياة الأبدية كيف تكون . فارتسم لعينه خط أبيض ضارب إلى السواد ممتد إلى غير غاية في الفضاء كأنما تقذفه موجة وتلقفه أخرى واستعجمت كل صورة للألوان والأصوات والعواطف وتسرب بعضها في خلال بعض وغابت في ثنانيا جدول مربد يتحدر أبدا . وليس هذا في شيء من الحياة وما هو إلا الموت الدائم . فاستهول هذا الخاطر . وتمتم .

— « نعم لاشك » .

وقال إيفانوف :

— « يظهر أن الأمر عظيم الوقع في نفسك » .

فسأله يورى :

— « ومن ذا الذى لا يعظم وقع الموت في نفسه ؟ » .

فهز إيفانوف رأسه هزة مهمة المعنى وشرع يحدث بيتر عن آخر ساعات سمينوف . وكان الهواء في الغرفة قد صار لا يطاق . وراقب يورى إيفانوف وهو يرشف النفودكا المتألقة في ضوء المصباح وبدأ له أن كل شيء يدور ويجول .

وهمس في أذنه صوت غريب ضئيل « آ آ آ » .

فقال وهو لا يدرى أنه إنما يرد على هذا الصوت العجيب الهامس :

— « كلا ! أن الموت شيء فظيع ! » .

فلاحظ إيفانوف منهمكيا :

— « إنك تضطرب له أكثر مما يجب » .

فقال يورى :

— « أو لست أنت كذلك ؟ » .

— « أنا ؟ كلا ! لا أريد أنى لا أشهى الموت فليس فيه متعة كبيرة

ترغب . والحياة أشهى منه وأمتع . ولكن إذا كان لابد من الموت فأنى أحب أن يكون حيا وأن تخلو موافاته من الجلبة والكلام الفارغ » .

فضحك سنانين وقال :

— «لأنك لم تجرب الأمر بعد ! » .

فأجابه إيفانوف :

— « كلا ! هذا صحيح » .

فقال يورى :

— « لقد سمعنا كل هذا من قبل . قولوا ماشئتم فالموت هو الموت وهو فظيع فى ذاته وكفى هادما لكل لذة فى الحياة أن يفكر المرء فى هذه الخاتمة العنيفة التى لا مفر منها . مامعنى الحياة ؟ » .

فصاح به إيفانوف متضايقاً :

« لامعنى لها » .

فأجابه يورى :

« كلا ، هذا مستحيل . إن كل شئ أحكم نظاما وأبرع ترتيباً

من .. »

فقال سنانين مقاطعاً :

— « إن رأي أنه ما من خير فى أى شئ » .

فقال يورى « كيف تذهب إلى هذا ؟ وما قولك فى الطبيعة ؟ » .

فضحك سنانين ضحكة خفيفة ولوح بيده مستخفاً وقال :

— « الطبيعة ؟ ها ها ، إنى أعلم أن من المألوف أن نقول إن الطبيعة بالغة حد الكمال . والحقيقة هى أن الطبيعة مثل الإنسان نقصاً وعيوباً . وفى وسع كل منا بدون جهد كبير أن يتصور عالماً يكون خيراً من هذا مائة مرة . لماذا لا تكون الحرارة والضوء سمرداً علينا والرياض خضراء نضيرة طليقة أبداً ؟ أما عن معنى الحياة فلا أشك فى أن لها معنى فإن الغاية فى مطاوعها مجرى الأمور وأخلق بالفوضى أن تكون شاملة محيطية إذا لم يكن ثم من

١٠٦

غاية . ولكن هذه الغاية خارجة عن دائرة وجودنا إذ هي كائنة في أساس الوجود . هذا محقق . ونحن لا يمكن أن نكون أصل الوجود ولا آخره كذلك . وليس دورنا فيه إلا سلبيا إضافيا . ونحن نؤدى مهمتنا بمجرد حياتنا . فحياتنا ضرورية . وكذلك موتنا أيضاً .

فقال يورى «لأى سبب ؟» .

فأجاب سانين :

— «أنى لى أن أعلم هذا ؟ وماذا يعينى منه فضلا عن ذلك أنى حياىى معناها نحوالجى لذيدة كانت أوغير لذيدة وكل ما هو خارج عن هذه الحدود . . فإلى الشيطان به ! ومهما تكن النظرية التى نشاء أن نخرجها فهى لا تعدو أن تكون نظرية ولا يمكن أن تخرج عن كونها نظرية . ومن الخرف أن نبنى عليها فكرة عن الحياة . ومن شاء فليذهب ذهنه فى ذلك أما أنا فإنى معترم أن أحياا !»

فقال إيفانوف مقترحا :

— «لنشرب جميعا على قوة هذا العزم !» .

وقال بيتر لسانين وهو يتأمله بعينه الضعيفتين :

— ولكنك تؤمن بالله أليس كذلك؟ أنه لا يؤمن أحد بشىء فى هذه الأيام

حتى ولا بما يسهل الإيمان به »

فضحك سانين وقال :

— نعم أؤمن بالله . ولقد آمنت به طفلا ولا حاجة إالى المنازعة فى أسباب

ذلك أو تأييدها . والحقيقة أنه ليس أجدى علينا من الإيمان فإذا كان

الله موجودا تقديبت إالىه بأصدق الإيمان وأخلصه . . وإذا لم يكن له

وجود كان ذلك خيرا لى » :

فقال يورى :

— « ولكن كل حياة تقوم على الإيمان أو عدم الإيمان »

فهز سائين رأسه وابتسم مغتبطاً وقال :

— « كلا ، إن حياتي ليست بقائمة على شيء من هذا القبيل » .

فسأله يورى وقد تداعت قوته :

— « على أى شيء تقوم حياتك إذا ؟ » .

وقال لنفسه : « آه ، ينبغي أن أكف عن الشرب » .

ومسح جبينه البارد الرطب بكفه ولم يسمع مقال سائين رداً عليه فقد

كان رأسه يدور وغلبته الخمر على أمره برهة ،

وقال سائين :

— « إنى اعتقد أن الله موجود وإن كنت لست على يقين جازم مطلق .

وسواء أكان موجوداً أم غير موجود فإنى عاجز عن تصوره ولا أستطيع أن

أعرف هذا حتى لو كنت أحر الناس إيماناً به ؟ إن الله هو الله ولما كان غير

أدى فلسنا نستطيع أن نجري عليه المقاييس الإنسانية ، إن عالمه المخلوق المحيط بنا

شامل لكل شيء : للخير والشر ، وللحياة والموت ، وللجمال والقبح — كل

شيء فى الواقع — ولذلك يعجزنا كل معنى وكل تعريف محدود لأن معناه غير

انسانى وآراؤه فى الخير والشر ليست بإنسانية ولا معدى لنا عن أن تكون فكرتنا

عن الله وثنية فى صميم أمرها وليس يسعنا إلا أن نكسو معبودنا السحنة والثوب

الملائمين للأحوال الجوية فى بلادنا التى نعيش فيها — سخافة — أليس كذلك ؟

فقال إيفانوف :

— « نعم ، أصبت . كل الإصابة ! » .

فسأله يورى ودفع كأسه مكروباً :

« إذن ما الفائدة من الحياة ؟ أو من الموت أيضاً ؟ » .

فأجابه سائين :

— « إنى أعرف شيئاً وحداً هو أنى لا أريد أن تكون حياتى شقية . لذلك

يجب على المرء أن يرضى رغباته الطبيعية قبل كل شيء . إن الرغبة هى كل

شئ . ومتى انقطعت الرغبة انتقطعت الحياة معها . وإذا قتل المرء رغباته فإنه يكون قد قتل نفسه » .

فقال يورى : « ولكن رغباته قد تكون شراً ؟ » .

فأجاب سائين : « ربما » .

فقال يورى : « إذاً ماذا يكون من أمرها ؟ » .

فأجابه سائين فى رفق وحنق فى وجهه بعينه الزرقاوين الصافيتين :

— « إذاً تكون شراً ، لا أكثر ولا أقل » .

فرفع إيفانوف حاجبيه غير مصدق ولم يتكلم . وصمت يورى كذلك وجيرته هاتان العينان الزرقاوان الصافيتان لسبب ما وجعل يرنو إليهما .

وساد السكون لحظة فكان المرء يسمع فراشة هناك تصطدم مستيثة بزجاج النافذة . وهز بيتر رأسه فى حزن وتدلّى رأسه المخمور إلى الجريدة القذرة الملوثة .

فعاد سائين إلى الابتسام . وكانت هذه الابتسامة المرتسمة أبداً على ثغر سائين تثير يورى وتفتنه كذلك فقال لنفسه :

— « ما أصفى عيذه ! » .

ونفض سائين فيجأة وفتح النافذة وأخرج الفراشة واندفعت موجة هواء بارد عليل كأنما أرسلتها أجنحة رقيقة .

وقال إيفانوف مجيئاً على خواتره :

— « نعم ليس فى الناس اثنان متشابهان . فلنشرب على هذا كأساً أخرى »

فقال يورى وهز رأسه :

— « كلا ! لن أشرب شيئاً آخر »

أجاب إيفانوف : « ولماذا ؟ » .

قال يورى : « أنى لا أكثر من الشراب »

وكانت الفودكا والحرارة قد صدعاها فطلبت نفسه الهواء الخالص وقال وهو ينفض :

— « لا بد لي من الخروج » .

فقال إيفانوف : « إلى أين ؟ تعال . اشرب كأساً أخرى » .

فقال يورى متلعثماً باحثاً عن قبعته :

— « كلا ، يجب أن ... » .

فرد عليه إيفانوف : « حسن . عَمِ مساء » .

وخرج يورى وأغلق الباب وراءه .

وسمع سائين في هذه اللحظة يقول لميتر :

— « نعم أنت لست كالأطفال . إن هؤلاء لا يستطيعون أن يميزوا بين

الخير والشر . لأن نفوسهم ساذجة على الفطرة . وهذا هو السبب في أنهم ... »

وكان يورى قد أتم إغلاق الباب فلم يسمع شيئاً .

وكان القمر مضيقاً في قبة السماء ، وهب نسيم الليل البليل على محيا يورى ،

وجلت له الطبيعة كل جميل محرك للخيال وجرى بذهنه سمينوف وهو يجتاز

الشوارع الساكنة المضيقية . فتصور سمينوف راقداً في قبر مظلم ساكن على أنه

مع ذلك لم تعاوده تلك الهواجس المحزنة التي كانت من قبل تجثم على صدره

وتسود الدنيا كلها في نظره . بل خامرتة المكآبة الهادئة المطمئنة وأحس دافعاً

يغريه بالشخص بطرفه إلى القمر . وذكر سائين وهو يجتاز ميداناً مهجوراً

فسأل نفسه « أى رجل هذا ؟ » .

وغاظه أن في الدنيا رجلاً لا يستطيع هو أن يحلل شخصيته في لحظة فراح يجد

لذة في النيل منه وقال :

— إن هو إلا صواغ عبارات ليس إلا . وقد كان يتكلف الطيرة أولاً ويدعى
مقت الحياة ويرفه عن نفسه بالإعراب عن المستحيل من الآراء أما الآن
فإنه يعبث بالحيوانية .

وانتقل يورى من التفكير فى سائين إلى تأمل نفسه وانتهى من الموازنة إلى
أنه لا يعبث بشيء ما، وأن كل خواطره وآلامه وشخصيته مبتكرة وأنها لا تشبه
خواطر الناس غيره وشخصياتهم فى دقيق أوجليل .

فارتاح إلى هذه النتيجة أعظم الارتياح . . ولكنه أحس افتقاد شيء
فانقلب يفكر فى سمينوف وأحزنه أن عينيه لن تقع عليه أبداً ، واستوحشت
نفسه وإن كان لم يشعر له بإعزاز فى حياته ، وترقرقت الدموع فى عينيه
وتصور الطالب الميت مدرجاً فى قبره وقد صار كتلة متحفنة وذكر هذه الكلمات
له :

« ستكون حياً تستنشق الهواء وتتمتع بضوء القمر وتمر بالقبر الذى يضم
رفاقى » .

فرمى يورى بلحظة إلى التراب وقال لنفسه :
— « إن هاهنا تحت قدمى آدميين أيضاً . وإنى أظأ بقدمى عقولا وقلوبا
وعيوناً آدمية ! آه وسأموت مثلهم ويمشى غيرى فوقى وتخطر طم ما يطوف
بلهنى الآن : آه . يجب أن يحيا الإنسان قبل أن يخرج الأمر من كنفه .
الأنه يجب أن يعيش المرء ! نعم ولكن على الطريقة الصحيحة حتى لا تضيع
عليه لحظة من حياته . ولكن كيف هذا ؟ » .

وكانت السوق عارية بيضاء فى ضوء القمر وكل مافى البادية ساكت
فغنى يورى نفسه : « لن نسمعنا المزمار عنه نبأ » .

ثم قال بصوت عال :

— « ما أثقل كل شيء وأشجاء وأرهيه ! »

. كأنما يقول بشجوه لرفيق معه وأفرعه صوته وتلفت ونفض المكان بعينه ليرى هل سمعه أحد. وخطر له أنه «سكران»

وكان الليل مشرفاً في سكون وجلال .

لما كانت سينا كارسافينا وزميلتها دوبرفا غائبتين في زيارة كانت حياة يورى مملة فاترة :

وكان أبوه أبدأ في شاغل من «النادى» أو من شئون البيت .

ولم تكن لياليا وريازا تتريف يرتاحان الى وجود شخص ثالث معهما فكان يورى يجانبهما :

وصار من عادته أن يركز في الذهاب إلى مضجعه وأن لا يقوم إلا وقت الغداء وكان يقضى نهاره كله بين غرفته والحديقة مفكراً في أموره .
! منتظراً أن تساعفه موجه نشاطاً تدفقه إلى عمل جليل .

وكان هذا العمل الجليل يتخذ في كل يوم صورة فيوما يكون صورة ويوما يكون سلسلة مقالات تكشف للعالم عن الخطأ الجسم الذي وقع فيه [الديمقراطيون الاشتراكيون بأن لم يعقدوا ليورى الزعامة في حزبهم . وطوراً . تكون مقالا في الحث على معاضدة الشعب والتعاون معه - مقالا شاملاً ضافياً في الموضوع . ولكن كل يوم كان يعضى عليه ولا يخلف له سوى السأمة .

وجاء إليه نوفيكوف وشافزوت مرة أو مرتين يزوران .

وحضر يورى بعض المحاضرات وأدى بعض الزيارات غير أن هذا كله كان في نظره فارغاً لاخير فيه وليس هو بالذى يفكر فيه أو يظن أنه يفكر فيه .

. وفي يوم من الأيام ذهب لزيارة ريازان تريف وكانت غرف هذا الطبيب رحيبة مهواة حافلة بكل ما يحتاج إليه الرجل الصحيح

الجسم المعافى البدن من وسائل التسلية فمن عصى هندية إلى كتل حديدية وسيوف وأدوات الصيد وحقائب للطباق غير ذلك مما هو بسبيل الملاحى التى يباشرها الرجال الأصحاء .

فرحب به ريازانتزيف وأحسن ملاطفته ومحادثته وقدم له السجائر ثم سأله أن يخرج معه للصيد .

فتمال يورى : « لىس معى بندقية » .

فقال : « خذ واحدة من هنا فإن لدى خمساً »

وإذ كان يورى أخا ليا ليا فقد أراد ريازانتزيف أن يلاطفه ما أمكنته ملاطفته . أصر على أن يأخذ يورى إحدى بنادقه وعرضها كلها عليه ليختار من بينها وفككها وشرح له تركيبها بل لقد أطلق إحداها على هدف فى الفناء . فاقتنع يورى وأخذ واحدة بعض والخراطيش وهو يضحك .

فسر ريازانتزيف وقال :

— « هذا حسن جداً . لقد كان عزمى أن أخرج غداً لصيد البط فلنذهب معا » .

فقال يورى :

« هذا يسرنى جداً » .

ولما عاد إلى بيته قضى نحو ساعتين يفحص بندقيته ويتحسس رندها ويسددها إلى المصباح ثم صقل حذائى الصيد القديمين . وفى مساء اليوم التالى جاء إليه ريازانتزيف يهتزمسوراً فى مركبة يجرها جواد مضممر وصاح به من النافذة وكانت مفتوحة .

— « أنت مستعد ؟ » .

وكان يورى قد احتمل حزامه الخراطيش وحقبة انصيد والبندقية فخرج إليه مثقلاً بها وقال :

— « إني مستعد . مستعد » :

وكان ريار انتزيف قد أخف من هذه الاحمال فمعجب ليورى وماتأهب به :
وقال مبتسما :

— « ستغنى البرح من هذه الأثقال . اخلعها وضعها هنا . فإليك
حاجة إلى لبسها قبل أن نبلغ المكان » .

وساعد يورى على التخلّص منها ووضعها تحت المقعد ثم ألحبا الجواد
فأخب بالمركبة وكان النهار قد أوشك أن ينتفضى ولكن الجو كان لا يزال
دافئاً كثير التراب .

وجعلت المركبة تميل يمنة ويسرة حتى اضطر يورى أن يتشبث بمقعده :
وكان ريار انتزيف يتكلم ويضحك طول الطريق فلم يسع يورى إلا أن
يشاطره جذله .

ولما برزا إلى الحقول كانت الاكلاء الطويلة تلمس أقدامهم وصار الجو
الطيف وانقطع التراب .

وبلغا حقلاً واسعاً مستوياً فأوقف ريار انتزيف الجواد وكان يتصبب
عرقاً ورفع كفه إلى فمه وصاح بصوت رنان صاف :
« كوسما ! كوسما » :

وكان المرء يرى عند نهاية الحقل صفّاً من الرجال صغيرى الأجسام
فشخصه بأبصارهم إلى مصدر الصوت .

ثم اجتمار أحدهم الحقل متحرزاً بين الأخاديد ولما دنا منهم رأى يورى فلاحاً
ضخماً أبيض الشعر طويل اللحية مفتول الساعدين .

فسار إليهما وقال مبتسماً :

— « إنك تحسن الصياح يا أناتول بافلوفتش » .

— « عم مساء كوسما كيف حالك ؟ أسمح لى أن أترك الخواد
معك ؟ » .

فقال الفلاح بصوت ساكن وى وأمسك الاجام :
 - « نعم ولا شك . جئت للصيد أليس الأمر كذلك ؟ ومن هذا ؟ » وألقى
 إلى يورى نظرة رقيقة . فقال ريازانتريف :
 - « إنه ابن نقولا يجوروفتش » .

أجاب : « آه نعم ! إلى أراه شيئا بلياليا ! نعم . نعم ! » .
 وسر يورى أن هذا الفلاح الهرم المغتبط يعرف اخته ويذكرها ذكر
 الصديق المخلص .

وقال ريازانتريف بصوته الطروب وتقدم زميله بعد أن احتمل
 بندقيته وحقيبة الصيد .

- « والآن فلنمض فى سبيلنا » .

فقال كوسما :

« أرجو أن يكون حفلكما عظيما » .

وكان يسمعانه يلاطف الجواد وهو يحجره إلى كوخه .
 وكان عليهما أن يسيرا نحو ميل قبل أن يصلا إلى المستنقع وكادت
 الشمس تغيب وكانت الأرض مكسوة بالحشائش والأعشاب تحس القدم
 بللها وتجذ الأنف ريح رطوبتها والعين جهامتها . والماء تانع صفحته فى
 بعض المواضع .

وكف ريازانتريف عن التدخين ووقف ورجلاه منفرجتان وتجههم
 وجهه كأنما كان يهيم بعمل عظيم التبعة .

ووقف يورى إلى يمينه يبحث عن مكان جاف مريح . وكان أمامهما الماء
 صافيا عميقا تنعكس فى صقاله صفحة السماء المجاورة ومن ورائه الشاطئ
 كالحط الأسود .

وهب البط مثنى وثلاث وجعلت أغراخه تطير مثرثة فوق الماء خارجة
 من الأعشاب محاذة فوق رأسى الصائدين صفا من الأشباح السوداء باديا
 دون السماء فأرسل ريازانتريف أول طلقة فأصاب وهوت بطة مكرومة إلى

الماء وجناحها يخبطان الأعشاب فقال ريارانتزيف وضحك عالياً :
— « لقد أصبتها » .

وقال يورى لنفسه وكان قد جاء دوره : « إنه رجل طيب حقيقة .. » .
وأطلق بندقيته فهوت ببطة ولكنها سقطت في مكان بعيد لم يصل إليه
يورى وإن كان قد جرح كفيه ونخاض إلى ركبتيه في الماء ولم تزد هذه
الحيلة إلا حاسة وظن الأمر طويلاً .

وكان لدخان البنادق رائحة لذيذة في هذا الجو الصافي البليل وكانت
الطلقات تبرق في الظلام فيجد المرء لبريقها وقعاً حسناً . وجعلت الطيور
الجرمجة ترسم وهي تهوى أقواساً رشيقة تحت قبة السماء الخضراء التي بدت
فيها النجوم . وأحس يورى من النشاط والاعتباط مالا عهد له به كأنما لم يمر
به ما هو أمتع من هذا وأعظم إنعاشاً للنفس . وقلت الطيور الطائرة الآن
وتعذر تسليد المرمى في الظلام المتكاثف .

وصاح ريارانتزيف بزميله :

— « يورى ! يجب أن نعود الآن ! » .

فأسف يورى لذلك وعز عليه أن يرجع ولكنه مضى إلى رفيقه إجابة
لرغبته وكان يتعثر في سيره بين الأعشاب ويخوض الماء الذي لم يعد يفترق
في الظلام عن الأرض الصلبة .

فلما اتقيا برقت عيونهما وكان كلاهما يلهث .

فقال ريارانتزيف :

— « هل مالأك الحظ ؟ » .

فقال يورى وكشف عن حقيقته المكتتة :

— « أظن ذلك ! »

فقال ريارانتزيف متبسّطاً :

— « إنك أشد منى ساعداً وأحكم رماية » .
فابتهج يورى بهذا الثناء وإن كان لا يفتأ يدعى قلة الاعتماد بالقوة
الجهانية أو المهارة وقال بعبر اهتمام :
— « لا علم لى بأنى خير أو شر . وكل ما فى الأمر أن الحظ ظاهرنى » .
وكان الظلام قد اشتد لما بلغا الكوخ وغمرت الدياجى حقل الليمون
فلم تكن العين تأخذ منه سوى صفوفه الأولى تلتمع فى ضوء النار وتلقى على
الأرض ظلالاً طويلة .
وكان الجواد واقفاً ينفخ إلى جانب الكوخ حيث أوقدت النار من عيدان
الكأ الجافة فجعلت تققع وهى تحترق .
وسمعا أصوات رجال ونساء يتكلمون ويضحكون .
وخيل لورى أنه يعرف أحد الأصوات وكان ليناً بجداً .
فقال ريزانترىف وقد أخذه العجب :
— « إنه سانين . ماذا جاء به إلى هنا ؟ » .
واقتربا من النار . وكان كوسما ذو اللحية البيضاء جالساً بجانبها فرفع
طرفه إليهما وهز رأسه مرحباً بهما وسألها بصوت غليظ عميق يخرج من
تحت شاربيه المتهلدين .
— « كيف كان حظكما ؟ » :
فقال ريزانترىف :
— « متوسطاً » .
وكان سانين جالساً على جذع ضخم فرفع رأسه أيضاً وابتسم لهما .
فسأله ريزانترىف :
— « كيف جئت إلى هنا ؟ » .
فقال سانين وزاد ابتساماً :
— « أوه . إني أنا وكوسما صديقان قديمان » .
فضحك كوسما وانفرجت شفتاه عن بقايا أسنانه الصفراء المتداعية وجعل
يربت ركة سانين بيده الخشنة وقال :

« نعم نعم . اجلسا يا أنا تول بافلو فتش وذوقا هذا البطيخ وأنت ياسيدي الشاب ما اسمك ؟ » .

فقال يورى مسرورا :

— « يورى نيقولا ييفتش » .

وأحس بعض الارتباك ولكنه أحب هذا الفلاح الشيخ الرقيق وارتاح إلى لهجته الودية . وقال كوسما :

— « يورى نيقولا ييفتش . أها . يجب أن نتصادق . اجلس يا يورى » .
فجلسا قريبا من النار على جذعين كبيرين وقال كوسما :
— « والآن اريانا ما صدمنا » .

فأفرغا من الحقيبتين كوماً من الطيور المقتولة وتلوثت الأرض بدمها وكان لها في ضوء النار المضطرب منظر منفر وبدا الدم أسود اللون وكأنما كانت المخالب تتحرك .

فرفع كوسما بطة وأمر يده تحت جناحيها متحسباً . وقال :

— « هذه بطة سمينة . يجب يا أنا تول أن تدع اثنتين . وماذا تصنع بكل هذه ؟ » .

فقال يورى فى خجل :

— « نخذها كلها » .

فضمحك الشيخ قائلاً :

— « لماذا آخذها كلها ؟ إنك أكرم مما يجب . لا آخذ سوى اثنتين » .

ودنا منهم فى هذه اللحظة فلاحون آخرون ومعهم نساؤهم ولم يستطع يورى أن يميز وجوههم لفرط ما ازاحت النار من نظره وكان الوجه تلو الوجه يخرج من الدجى ثم لا يكاد يظهر حتى يغيب .

ورمى سائين الطيور بعينه وهو عابس ثم أدار وجهه ونهض واستكره أن يرى هذه المخلوقات الحميلة مكسورة الأجنحة ملطخة بالدم والتراب .

وراقب يورى كل شىء باهتمام وهو يمص بطيخة كبيرة ناضجة شهية قطعها له كوسما بسكين يدها من العظم الأصفر وقال كوسما :
— « كل يا يورى . إن هذه البطيخة جيدة . إلى أعرف أحتك الصغيرة لياليا وأباك أيضاً . كل وتمتع » .

وشاع السرور فى نفس يورى بكل شىء : برائحة الفلاحين والخبز الجليد وضوء النار والجناح الضخم الذى كان جالسا عليه ووجه كوسما كلما أطرق . وكان إذا رفع رأسه يلفه الظلام ولا تظهر منه إلا عيناه وكانت الظلمة الطاغية فوقهم تكسب المكان المضاء بهجة وأنسا .
وكان يورى إذا رفع رأسه لا يرى شيئاً ثم لا تايث السماء الشاسعة الساكنة أن تبدو متألقة فيها نجومها البعيدة .

على أنه حيره أنه لا يعرف ماذا يقول هؤلاء الفلاحين .
وكان كوسما وسانين وريازانتزيف يتحدثونهم بلا كلفة وببساطة عن هذا الأمر أو ذاك ولا يهتمون بأن يتخيروا موضوعاً خاصاً للكلام .

ولما انقطع الحديث سألهم :
— « كيف حال الأرض ؟ » .
وأحس أن سؤاله متكلف لا محل له فرفع كوسما لخطه وقال عجيباً :
— « سنصبر . سنصبر ونرى » .

ثم طفق يتحدثهم عن حقول البطيخ وغيرها من الشئون الخاصة ويورى يزداد ارتباكاً وحيرة وإن كان قد سره أن يصغى إليه .

وسمعوا وقع أقدام مقبلة وظهر فى الضوء كلب أحمر صغير ذنبه أبيض ملتو وجعل يشم يورى وصاحبه ويحك جسمه بركبة سائين فمسح له هذا جلده الخشن . وجاء على أثر الكلب شيخ قصير له لحية خفيفة وعينان صغيرتان لامعتان . وفى يده بندقية صدئة ذات خرطوم واحد . فقال كوسما :
— « إنه الجلد حارسنا » .

وجلس الشيخ على الأرض ووضع إلى جانبه سلاحه وأقبل يتأمل يورى وصاحبه ثم قال وكشف عن لثاه المجعد المشوه :

— « كتما تصيدان ؟ نعم . نعم . هاها ! كوسما لقد آن أن تغلى البطاطس » .
فالتقط ريزانتزيف بندقية هذا الشيخ وأرى يورى إياها ضاحكا ،
وكانت قديمة علا الصدا كل أجزائها ، ثقيلة مشدودة بسلك ملفوف عليها ،
وقال لصاحبها :

— « أى بندقية هذه ؟ ألا تخشى أن تصيد بها ؟ » .
أجاب الشيخ :

— « هاها . لقد كادت تفتلنى مره . قال لى ستيبان شابكا إن المرء
يستطيع أن يطلقها بدون . . اسطوانة . هاها . بدون اسطوانة . وقال إنه
إذا كان فى البندقية مقدار من الكبريت باقياً فإنك تستطيع إطلاقها بغير
اسطوانة . فوضعت البندقية المحشوه على ركبتى هكذا وأطلقت زنادها
بأصبعى هكذا — انظروا . فانطلقت وكدت أقتل نفسى . هاها . حشوت
البندقية وأطلقتها وكدت أقتل نفسى » .

فضحكوا جميعاً وانخلدت دموع السرور من عيني يورى وما كان
أمتع هذا الشيخ الضمائل ولحيته الخفيفة وشدقيه الغائرين .
وضحك الشيخ كذلك حتى دمعت عيناه وحمل يورده قوله :
— « كدت أقتل نفسى ! هاها » .

وكان المرء يستطيع أن يسمع فى الظلام وراء دائرة النور ضحكاً وأصوات
بنات نأى من الحياء عن المجلس .
. وكان سائين جالسا على بضعة أقدام من النار فى مكان غير الذى توهمه
يورى .

فأوقد سائين عود كبريت ورأى يورى فى ضوئه الأحمر عينيهِ الساكتين
الودودين وإلى جانبه وجه غض عيناه الرقيقتان مرزوعتان إلى سائين وفيهما
نور الجذل الساذج .

١٢٠

فنظر ريبازانتزيف إلى كوسما وقال :
 — « أيها الجمد أليس خيراً لك أن ترقب بعينيك حفيدتك ؟ » .
 فأجاب كوسما عنه وأومأ بإيماءة من لا يكثرث :
 — « ما الفائدة ؟ إن الشباب هو الشباب » .
 وضحك الشيخ والتقط بأصابعه جمرة متقدة من النار .
 وسمع القوم ضحكة سائين في الظلام .
 وكأن الفتيات خجلن فقد انصرفن عنه وعادت أصواتهن وهي لا تكاد
 تسمع :

وقال ريبازانتزيف وهو ينهض :
 — « لقد آن أن نذهب . أشكرك يا كوسما » .
 فقال كوسما : « لا شكر البتة » .
 ومسح بكمه بنور البطيخ التي علقت بلحيته البيضاء . وصافحهما .
 وأحس يورى استكراهاً لمس هذه الراحة الحسنة المعروفة .
 وخفت الظلمة لما نأيا عن النار ورأيا فوقهما النجوم الزهراء المقرورة
 وقبة السماء الهائلة الجلييلة الجمال .
 وبدا الجالسون حول النار والخييل وكوم البطيخ في شملة من الظلام
 وقال لهما سائين :
 — « افتحا عيونكما . عما مساء » .
 فقال يورى : « عم مساء » .

وتلفت وراءه ليرى قوامه الطويل وخييل إليه أن امرأة رشيقة القد
 معتمدة على كتفه فخفق قلبه وذكر سيناً وأحس الغيرة تدب في صدره لسائين .
 وانطلقت عجلات المركبة تخطف الأرض وجعل الجواد ينفخ وهو
 يجرى وخفيت عنهما النار والأصوات والضحكات وساد السكون وتطلع
 يورى إلى السماء ورتنا إلى نجومها المنتورة ولما قاربا البلدة بدأت الأضواء
 تسطع هنا وهناك والكلاب تنبح .

وقال ريزانتزيف ليورى :

« إن كوسما هذا فيلسوف . ألا ترى ذلك ؟ » .

وكان يورى جالسا خلف صاحبه ينظر إلى عمقه فنبهه السؤال وأيقظه
مما كان غارقا فيه من الخواطر السوداء وحاول أن يفهم ما ألقى إليه وأجاب
بتردد :

« آه — نعم ! » .

فقال ريزانتزيف وهو يضحك :

« لم أكن أظن أن سانين فاجر إلى هذا الحد » .

ولم يكن يورى يحلم الآن فذكر منظر سانين ومخيا الفتاة الجميل فى نور
الكبريت وعادته الغيرة وما عثم أن طاف برأسه أن معاملة سانين للفتاة
وضيعة مستوحجة للاحتقار فقال مجيباً صاحبه :

« كلا . ما حسبته كذلك قط » .

وكان فى صوته نبرة تهكم لم يلتفت إليها ريزانتزيف فألهب الجواد
بالسوط وقال بعد فترة :

« إنها فتاة جميلة . أليست كذلك ؟ وأنا أعرفها . حفيذة الشيخ الهرم » .

فصمت يورى . وانقضت عنه سحابة التفكير واقتنع بأن سانين رجل

سوء .

وهز ريزانتزيف كتفيه ثم قال :

« إلى الشيطان بها ! وفى آية كهذه أيضاً ؟ وأرانى أخذت كذلك .

أسمع . ما قولك فى أن نعود وأن ... » .

ولم يفهم يورى فى أول الأمر ما أراد صاحبه الذى عاد فقال :

« إن هناك بضع فتيات حسان كما تعلم . ما قولك ؟ أعود ؟ » .

فصبغ الحياء وجه يورى وشاعت فى كيانه هزة شهوة حيوانية ومثلت
لعينيه ولخياله الملهب صور مغرية ولكنه ضبط نفسه وقال بصوت جاف :

« كلا ! لقد آن أن نكون في البيت الآن » .

ثم زاد على ذلك بنخبث :

« لياليا تنتظرنا » .

فتداعى رياز انتزيف وقال :

« نعم . نعم بالطبع . نعم يجب أن نكون في البيت الآن » .

وقرض يورى أسنانه وحديق في ظهر صاحبه العريض تنسجم عليه الجاكّة البيضاء وقال متحدّياً مناصباً :

« لست أحب المغامرات التي من هذا القبيل » .

فأجابه رياز انتزيف ضاحكاً في فتور :

« كلا ! كلا ! اعلم ذلك ! ها ها ! » .

ثم صمت . وقال لنفسه :

« قاتلني الله ما أغباني ! » .

وسارا بالمركبة إلى البيت دون أن ينبساً بحرف آخر وكان يخيل إليهما أن الطريق لا آخر له ولما وصلا قال يورى دون أن يرفع رأسه :

« ألا تدخل معي ؟ » .

فقال رياز انتزيف متردداً :

« أ . . أ . . لا ! إن على أن أعود مريضاً . والوقت متأخر كذلك » .

فنزّل يورى ولم يعن بأن يأخذ البندقية أو الطيور وكأنما صار يمتقت كل شيء مما يتعلق برياز انتزيف فصاح به هذا :

« لقد نسيت بندقيتك » .

فالتفت يورى وعاد فأحتمل البندقية والحقيبة مهيئة المتقزز وصافح صاحبه ملفاً ودخل .

١٢٣

ومضى الآخر بمركبته في بطاء مسافة قصيرة ثم انثنى فجأة وعطف على زقاق وكان يورى يسمع صوت المعجلات آتيا من ناحية أخرى غير التي درجت فيها المركبة أولا فأصغى يورى وهو نائر النفس إلا أنه غائر وقال لنفسه :

« حظ سيء » وأدركه العطف على أخته .

(١٤)

أدخل يورى ما معه ولم يجد بعد ذلك ما يصنع فأنحدر إلى الحديقة وكان الليل كظلمة القبر وزاد في وقعه منظر السياء وما فيها من النجوم المتألقة وكانت لياليا جالسة على إحدى درجات السلم وهي لا تكاد ترى في الظلام فسألته :

« أهذا أنت يا يورى ؟ » .

« نعم هو أنا » .

وجلس إلى جانبها فأسندت رأسها إلى كتفه وهي كالحاملة وفاح منها غير الصبا الغض فتحركت حواسه وقالت :

« هل آتاك الحظ في الصيد ؟ » .

ثم سأله بعد قليل بصوت رقيق :

« وأين أنا تول بافلوفتش ؟ لقد سمعت صوت المركبة » .

وود يورى - وقد هاج فجأة - لو يقول لها « إن أنا تولك هذا بهيم

قدر » غير أنه أجابها غير محتفل :

« لا أدري أين هو . لقد كان عليه أن يعود مريضاً » .

فرددت لياليا لفظة « مريض » ولم تزد وشخصت بعينها إلى النجوم ولم يسؤها أن ريازانتزيف لم يحضر فقد كانت على نقيص ذلك تبغى الوحدة لتطلق لأحلامها وخيالها اللذيذة العنان ولا يكبحها وجوده وكانت العاطفة التي استولت على كيائها الغض غريبة حلوة رقيقة أشعرتها أنها تستقبل غاية منشودة

محتومة إلا أنها مقلقة تطوى بها صفحة ماضيها ويبدأ بها عهد جديد بالغام من الجدة مبلغا جعل لياليا تحسب أنها ستصير كائنا آخر غير الأول في كل شيء .

وعجب يورى لأخته اللعوب الضحك كيف تغرى بالسكون والتفكير وكان هو مكروبا مكتئبا فبدا له أن كل شيء به مثل سهومه وفتوره - كل شيء حتى لياليا والحديقة المظلمة والسماء البعيدة الملتمة النجوم ولم يفتن إلى هذه الحالة الخاملة لا تنطوى على الحزن بل على قوة الحياة نفسها . في السماء قوى مجهولة لا حدها توج وتتصارع . والحديقة الغامضة تمتص من الأرض ما تحتاج إليه من العصير الحيوى . وفي قلب لياليا غبطة تامة كاملة تضمن بها أن تنفى سحرها أية حركة أو شعور . وفي صدرها الحب والحنين يتجاوبان وهى بما يختلج فى نفسها من ضيئة كالسماء المزدانة بالنجوم وعليها كالحديقة المستسرة نقاب يخفى ما تحته .

وسألها يورى مترفقا كأنما نحشى أن يوقظها :

« خبرينى يا لياليا . أتخبين أنا تول كثير ؟ » .

فبدا لها أن تقول « كيف تسألنى عن هذا ؟ » ولكنها كبحت نفسها ودنت منه حتى التصقت به وفى نفسها له الشكر على أن لم يحدثها إلا عما يعينها فى حياتها - أى الرجل الذى تحبه .

فقالت لياليا : « نعم أحبه حباً جماً » .

وكان صوته من الرقة بحيث حزر يورى ما قالت إذ لم يكده يسمعه وهى تتكلم وتحاول أن تمنع دموع الفرح . ولقد خيل إلى يورى أن فى صوتها نعمة أسى فزاد عطفه عليها ومقتته لريازات تزييف .

فسألها وأذهله أن يسألها ذلك :

« ولماذا ؟ » .

فرفعت طرفها إليه مستغربة وضحكت فى رفق وقالت :

« أيها الولد الحرف ! لماذا حقاً ؟ لأن . . . اسمع ! ألم تحب مرة

فى حياتك ؟ لأنه طيب شريف مستقيم . . » .

وكان بودها أن تزيد على ذلك « وهو جميل قوى ولكنها خجلت ولم
تزد شيئاً » .

فقال يورى :

« أتعرفينه حق معرفته ؟ » .

وخطر له أنه لم يكن ينبغي أن يسألها هذا لأنها بالبداهة تحسبه خير
من فى العالم .

فأجابته بخجل وفى صوتها لهجة الظافر المنتصر :

« إن أنا تول لا يكتمنى شيئاً » .

فابتسم يورى وإذا كان يدرك أن لا سبيل إلى التراجع فقد ألح عليها
بالسؤال :

« أنت على يقين جازم ؟ » .

أجابت : « نعم واثقة بالبداهة . ولماذا لا أكون على يقين ؟ » :
وارتجف صوتها .

فقال يورى وبه شيء من الارتباك :

— « لا شيء . لا شيء . إنه سؤال لم أرد به شيئاً خاصاً » .

وصمتت لياليا ولم يستطع هو أن يحزر ما يجرى فى ذهنها من الخواطر ،
ثم سأله فجأة :

— « لعلك تعلم عنه شيئاً ! » .

وكان فى صوتها ما يرم على الألم .

فحار يورى وقال :

— « لا ! لا ! كلا ماذا يمكن أن أعرف عن أنا تول بافلوفتش » .

فقال لياليا ملحة :

« لولا أنك تعلم شيئاً لما قلت ما قلت » .

قال : « إن كل ما أعنيه هو : . » :

ثم قطع الكلام فجأة واستحي وعاد فقال :

— « إننا معشر الرجال كلنا فساق » .

فلزمت لياليا الصمت هنية ثم انفجرت ضاحكة وقالت :

« نعم . أعرف ذلك ؟ » .

فلم ير أن لضحكها هذا محلا وقال بشيء من الغيظ :

« لا تحسن بك الاستخفاف بالأموال إلى هذا الحد . كذلك لا يسمعك أن تحيطني بكل ما يجري . وأنت خالية الدهن مما في الحياة من حقارة . أنت أصغر سنا من أن تلمي بهذا وأنقى وأظهر » .

فقالت لياليا ضاحكة وقد سرها كلامه :

« أهذا كذلك حقا ؟ » .

ثم اتخذت لهجة الجدة فقالت :

« أتخسب أني لم أفكر في مثل هذه الأمور ؟ لقد فكرت وآلمني وأحزنتني أننا نحن النساء نكثر لسمعتنا وطهرنا وعفتنا كل هذا الاكتراث ونخاف أن نخطو خطوة لثلا . . . لثلا . . . نهوى ونسقط على حين يعد الرجال لإغواء الفتاة من مظاهر البطولة . إن هذا ظلم شنيع أليس كذلك ؟ » .

فقال يورى بمرارة وإن كان على ذلك قد وجد شيئا من الارتياح إلى الاعتراف بمعايبه وذنوبه ولكنه اعتراف يخالطه الشعور بأنه ليس كالناس في شيء .

— « نعم هذا أظلم شيء في الدنيا . سلى من شئت منا أيرضى أن يتزوج من . . (وهم أن يقول مومسا ولكنه رد هذا اللفظ وأعتاض منه) عنجة يقل لك « كلا » ومن أي الوجوه يفضل الرجل المرأة الغنجة ؟ إنها تبيع نفسها في مقابلة المال على الأقل لترتزق وتعيش ، فأما الرجل فيطلق لشهوته العنان بلا خجل ولا استحياء » .

فصمت لياليا .

وكان هناك خفاش يطير تحت سقف البهو رائحا بجائيا ولا يراه أحد
واصطدم جناحاه مرات بالجدار ثم رفر ف واختفى .
وأصغى يورى إلى أصوات الليل الغريبة ثم أستأنف الكلام وقد زادت
مرارة لهجته وصار صوته نفسه يدفعه ويستاقه فقال :

« وشر ما فى الأمر أنهم جميعاً يعرفون ذلك وهم مع هذا متفقون على
أن الحال يجب أن يظل كذلك ثم تزينهم يمثلون مآسى مضحكة فيسمحون بأن
يتزوجوا ثم يكذبون على الله والإنسان . ولا يذهب ضحية أحط الفساق وأدنا
المستهتكين إلا أنقى الفتيات وأطهرهن (قال هذا وهو يفكر فى سينا
كرسافينا) .

ولقد قال لى سمينوف مرة « كلما كانت المرأة أظهر كان صاحبها أقدر » .
وأراه على صواب .

فسأله لياليا بلهجة مستغربة :

« أهذا كذلك ؟ » .

فقال يورى وعلت وجهه ابتسامة مرة :

« نعم كذلك بلا مرء » .

فتمتمت لياليا وقد خنقتها العبرات :

« لا أعرف . . لا أعرف شيئاً عن هذا »

فصاح بها يورى ولم يكن قد سمع ما قالت :

« ماذا ؟ » .

أجابت : « لاشك أن توليا ليس كالباقين ! إن هذا مستحيل » .

وكانت هذه أول مرة ذكرت فيها اسم حبيبها بلفظ الإعزاز ثم طفقت
تبكى فجأة فوقع من نفسه بكاؤها وأمسك بيدها وقال :

« لياليا ! لياليا ! ماذا جرى ؟ لم أكن أقصد أن . . . لا تبكى يا عزيزتى

لياليا ! ازجرى العين عن بكائها » .

ونحى يديها عن وجهها وقبل أصابعها التي بللها الدمع فقالت وهي
تشجج :

« لا ! لا ! إن الأمر صحيح وأنا أعلم ذلك ! » .

وكان قولها أنها فكرت في هذا من قبل تخيلاً محضاً ولم تكن تدرى عن
حياة ريازانتريف وسلوكه شيئاً . نعم إنها تعرف أنها ليست أرل من أحب
ولا تجهل معنى هذا ودلالته ولكن وقع هذا الذي تعلمه كان غامضاً زائلاً .
وكانت تحس أنها تحبه وأنه يحبها . وهذا هو الجوهر وما سواه لا قيمة
له ولا وزن . فأما وقد قال أخوها ما قال بلهجة التعنيف والازدراء فقد
خيّل لها أنها على حرف هاوية واستهولت ما تحدثا عنه وحسبت أن حلم
سعادتها قد انتسخ وأنه لا سبيل إلى إصلاح ما فسد وأنه لم يعد ثم محل
للتفكير في حبها لريازانتريف .

وحاول يوى وهو يكاد يبكي أن يرفه عنها وجعل يقبّلها ويمسح شعرها
ولكنها ألحت في البكاء واستسلمت للأسى والمرارة كالطفل .
وأسى يورى لحزنها وما بدا له من ألمها فعدا إلى البيت وهو ممتقع اللون
مضطرب فاصطدم رأسه بالباب وعاد إليها بكوبة ماء أراق نصفها على
الأرض وعلى يديه وقال لها وهو يقدمها إليها .

— « لا تبكى يا لياليا ! لا ينبغي لك أن تبكى هكذا ؟ ماذا جرى ؟
ما خطبك ؟ لعل أنا تول بافلوفتش خير من الباقيين يا لياليا ؟؟ » .

وجعل يكرر ذلك وبه من اليأس خاطر .

ولكن لياليا ظلت تعول وترجف رجفاً عنيفاً حتى لكانت أسنانها
تصطاك بزجاج الكوبة .

وجاءت الخادمة وقالت :

« ماذا جرى ياسيدتى ؟ » .

فنهضت لياليا وانكأَت على سور البهو ومضت وهي باكية تنفض
إلى غرفتها .

فقال لها خادمتها :

« سيدتى العزيزة خبرينى ماذا حدث ؟ أَدعو سيدى والدك ؟ » .

وخرج فى هذه اللحظة أبوها نيتولا من المكتبة يمشى بخطى بطيئة مترنة
فلما أخذت عينه لياليا وقف فى الباب وقبله أذهله منظرها وسأل :

« ماذا حدث ؟ » .

فأجابه يورى :

« لا شىء ! لا شىء ! مسألة تافهة ! لقد كنا نتحدث عن ريارانتريف .
كلام فارغ » .

وضحك ضحكة مستكرهة فنظر أبوه إليه شزراً وارتسمت على وجهه
دلائل الغضب وصاح به :

— « ماذا بالله كنت تقول لها ؟ » .

وهز كتفيه واستدار وخرج .

فطار طائر يورى وهم بأن يجيبه جواباً عنيفاً وقبحاً ولكن ما خالجه من
الحياء أسكته وعقد لسانه . وجاش بصدره الغيظ من أبيه والتوجع
للياليا والاحتقار لنفسه فلم يسعه إلا أن ينحدر إلى الحديقة وداس وهو يمشى
ضفدعة تمتق فسحقها وكادت تزل قدمه فوثب صائحاً محنقاً . وجعل يمسح
قدمه مدة طويلة على الحشائش الطويلة وقد سرت فى ظهره رعدة باردة .

وعبس وأغراه الاشتزاز الجمانى والعقلى باعتبار كل شىء مثيراً
مستفزاً حميراً . وتلمس الطريق إلى متعد جلس عليه وشخص بعينه إلى
الحديقة غير معتمد شيئاً على التعيين بنظره ولم ير إلا رقعة عريضة سوداء
فى الظلام الشامل واصطخمت فى صدره ورأسه الخواطر السوداء .

(م ٩ - ابن الطبيعة)

ورمى بعينه إلى حيث كانت تموت تلك الضفدعة الصغيرة المسكينة
أو حيث ماتت بعد كرب وألم هائلين . فكأنما ماتت دنيا بأسرها وزحق
عالم برمته فيألفها من حياة مفردة مستقلة لقيت حثفها الشنيع ولم يحسبها أحد
ولا سمع بها ديار !

واستطرد يورى من ذلك إلى خاطر مقلق غريب هو أن كل ما يكون
الحياة من غرائز الحب أو البغض الخفية التي تدفع المرء إلى قبول شيء بعينه
ورفض آخر — وإحساسه الفطري بالخير والشر ، كل هذا ليس إلا ضباباً
رقيقاً يغطي شخصيته وحدها ويلفها ويحجبها . فأما أعمق تجاربه وأوجعها
فلا يكثر لها العالم في جملة الهائلة كما لم يكثر لمصرع هذه الضفدعة
الصغيرة . وكان قبل ذلك يتصور أن آلامه وعواطفه تعنى غيره فنسج من
هذه العلاقة شبكة معقدة بينه وبين الوجود كان مصرع الضفدعة كافياً
لتحطيمها والقضاء عليها فتركه ذلك مستفردا يعوزه العطف والغفران .

ثم كرت خواطره إلى سمينوف وإلى ما بدا له من استخفافه بالمثل العليا
التي استغرقت نفسه هو وملايس غيره من الناس فراح يفكر في لذة الحياة
الحالصة وفي سحر المرأة الجميلة وضوء القدر والبلابل وهو موضوع كان قد
شغل خواطره في اليوم التالي لآخر حديث جرى له مع سمينوف ولم يكن
يومئذ يفهم لماذا يهتم سمينوف بالتأفة من الأمور كركوب زورق أو وجه
فتاة حسنة ، وكيف يأتي أن يكثر لأسمى الآراء وأعمتها . فأما الآن فقد أدرك
أن هذا لم يكن منه بد وأنه لا سبيل إلا إليه إذ كانت هذه الأمور التأفة هي
التي تتكون منها الحياة . الحياة الحقيقية الخاصة بالإحساسات والعواطف والمتع
واللذات — أما تلك الآراء السامية العميقة فليست إلا عبارات جوفاء باطلة
لا يسمعها أن تؤثر أصلاً تأثير في ذلك السر الضخم المحجوب وراء الحياة والموت .
وهب لهذه الآراء قيحة ووزناً فستعنى عليها وتحل محلها في المستقبل آراء أخرى
ليست دونها خطراً وأهمية .

ولما انتهت إلى هذه النتيجة التي نشأت على غير انتظام من آرائه في الخير والشر حار واضطرب وأحس كأنما يواجه فراغاً هائلاً وتحرر ذهنه لحظة وصفاً وشعر بالقدرة التي يشعر بها الخالم على السبح في الفضاء إلى حيث أحب دون أن تقدم به قيود المادة فأفرغه هذا الإحساس وجاهد بكل ما وسعه من قوة أن يجمع آراءه المألوفة في الحياة فزاياله هذا الإحساس المرعب وعاد كل شيء جهماً ملتاثاً في نظره كما كان .

وكان يرى يقول بأن الحياة هي تحقيق الحرية وأن من الطبيعي على ذلك أن يبغى المرء في حياته اللذة وأن يعيش لها . وعلى هذا تكون وجهة نظر ريزانزيف — على انحطاطها — منطقية معقولة إذ كان لا ينشد إلا سد حاجاته الجنسية ما أمكنه ذلك لأنها ألح الحاجات وأعنفها . ولكن هذا جره إلى القول بأن الفسوق والطهر ليسا إلا أوراقاً ذاوية تكسو الحشائش النضيرة الجديدة وأن مثل لياليا وسينا كرسامين من الفتيات الطاهرات الحق كل الحق في الارتقاء في تيار اللذة الجمانية . فأحس لهذا الخاطر صدمة واستناده ورآه عبثاً وصبياناً وعالج أن ينفيه عن ذهنه وقلبه بعبارة الحادة القاسية المألوفة فقال وهو ينظر إلى السماء :

« نعم . إن الحياة هي الشعور ولكن الناس ليسوا بها هم لا تعقل وعليهم أن يحكموا شعورهم وعواطفهم وأن يضبطوها وأن يوجهوا رغباتهم إلى ما هو خير . ولكن أتم إله فيما وراء هذه النجوم ؟ » .

وما كاد يسأل نفسه هذا حتى شاع في جوانب نفسه إحساس مضطرب مؤلم رهيب كاد يسحقه وألح بالنظر على نجم وضئ في ذيل الدب الأكبر وذكر أن كوسا الفلاح صاحب حقل البطيخ سمى هذه المجموعة الجلييلة من النجوم « عجلة أثقال » وضايقه أن يذكر هذا الوصف المزدول الوضعي وشخص إلى الحديقة المظلمة السوداء بنظره كأنما يريد أن يقابل بينها وبين السماء الرضيئة وأن يفكر فيهما ويتدبر أمرهما . ثم قال لنفسه :

« إذا حرم العالم طهر المرأة وحسنها وهما باكورة أزهار الربيع فإذا عسى أن يبقى للإنسان مما هو مقدس جليل ؟ » .
 وصور لنفسه وهو يقول ذلك سرباً من الغادات الفاتنات كآزهار الربيع
 جالسات في ضوء الشمس على المروج الخضراء في ظل الأغصان المتهللة
 بالثمار والنوار وجعلت صبورهن واكتافهن الرقيقة البديعة التكوين
 وأعضاءهن اللينة تتحرك أمام عينيه وتشيع في جسمه هزات لذة سارة وكأما
 أدارت رأسه هذه الصورة فأمر يده على جبينه يمسح بها .
 وجعل يسائل نفسه « لماذا يثور ثائري لأن لياليا ليست بأول من أحب
 رianza تزيف ؟ » .

ولم يدر كيف يجيب عن سؤال كهذا ثم مثلت لعينه فجأة صورة سينا
 كرسافينا فقرر ثائر نفسه . وحاول أن ينم إحساساته التي ايقظتها هذه
 الصورة ولكنه كان كلها عالج ذلك يزداد شعوراً بما يجعاه ينشدها كما هي :
 نقيية لم تمسحها يد .

وقال لنفسه لأول مرة « نعم واكفى أحبها » .
 ونفى هذا كل ما عداه من الخواطر واستحوذ على نفسه حتى لجالت
 الدموع في عينيه . وما هي إلا برهة ثم راح يسأل نفسه وعلى وجهه ابتسامة
 مرة :

« لماذا إبدأ توددت إلى سواها من النساء قبلها ؟ نعم إنى لم أكن أدري
 أنها موجودة . وكذلك لعمري لم يكن رianza تزيف يعرف لياليا . وكان
 كالانا وقتئذ يحسب أن المرأة التي يشتهي أن يفوز بها هي الوحيدة التي لا عني
 له عنها وكنا في ذلك على ضلال ولعلنا الآن مخطئون أيضاً . فلا معدى لنا
 عن إحدى اثنتين : أن نعب أبداً أو أن نتمتع بالحرية الجنسية دون قيد ما
 ونبيع للنساء مثل ما أبحنا لأنفسنا . وعلى هذا لا يكون رianza تزيف ملوما
 من أجل أنه أحب نساء غير لياليا بل من أجل أنه لا يزال على صالة بعدة
 منهم . وليس هذا مما أصنع أنا في شيء » .

١٣٣

وزهاه هذا الحاطر وأشعره الطهر ولكن هذا الإحساس لم يدم إلا هنية
ثم ذكر ما تخيله من منظر الفتيات الحميلات اللينيات في ضوء الشمس
وغلبه ذلك حتى ملك عليه حواسه وصار دهنه ميدانا تتلذذ فيه الحواطر
المتناقضة واتعبه النوم على جانبه الأيمن فانقلب وتمطى على الأيسر وقال
يخاطب نفسه :

« الحقيقة أنه ما من امرأة عرفتني تستطيع أن ترضيني طول حياتي والذي
أسميته الحب الحقيقي مستحيل لا سبيل إلى تحقيقه ومن الهذيان أن يحلم
المرء بشيء كهذا » .

ولم يجد للتمطى على جانبه الأيسر ما قلده من الراحة فعاد إلى الأيمن
وهو قلق يتصبب تحت الغطاء الدائم وتصعد رأسه .

« إن العذرية مثل أعلى رفى تحقيقه فناء الإنسانية فهي إذا جنون —
والحياة ماذا هي إن لم تكن بالجنون كذلك ؟ » .

وكاد ينطق هذه الكلمات بصوت عال وعرض على نوابجه حتى
أومضت لعيه نجوم صفر .

وهكذا ظل إلى الصباح يتقلب وقد أثقلت فاه وذهنه الحواطر الملوثة
ولما أراد أن يتخلص منها راح يقنع نفسه أنه هو أيضاً أناني شهواني
مستهلك وأن شكوكه ليست إلا نتيجة الشهوة المخبوءة . غير أن هذا لم يزد
إلا مضاً ولم يرفه عنه إلا هذا السؤال البسيط :

« لماذا أعذب نفسي هكذا ؟ » .

وأحرقه عبث هذا التشریح لنفسه ونفدت قواه فنام .

(١٥)

بكت لياليا في غرفتها طويلاً ووجهها مخبوء في الوسائد حتى أخذ عينها
الكري وقامت في الصباح برأس متضامع وعين متفتحة وكان أول ما خطر

لها ان البكاء لا يجعل بها لأن ريارانتزيف سيتغدى معها وأخلق به إذا
هى لجت فى البكاء أن يروعه منظرها وهيئتها ثم ذكرت أن الأمر انقضى
بينهما فألهبت هذه الذكرى حبها وأشعرتها ألماً مرا فبككت من جديد
وقالت وحاولت أن تحبس دموعها :

« يالها من ندالة وشناعة ! ولماذا ؟ لماذا ؟ » .

وجعلت تكرر هذا السؤال كأنما غلبها البث والحزن على الحب الذى
ضاع وأهاجها أن ريارانتزيف كان يكذبها ابدأ على هذا النحو .
« وليس هو بالكاذب وحده بل كل من عداه كانوا يكذبون مثله .
كانوا يدعون أنهم أتم ما يكونون سروراً بوشك زواجنا ويزعمونه رجلاً
شريفاً طيباً ! لا لا ! إنهم لم يكذبوا فى الواقع ولكنهم لم يروا أن
زواجنا خطأ . وما أشنع ذلك منهم ! » .

وهكذا خيل لها أن كل من حولها أشرار بغضون فأسندت جبينها
إلى زجاج النافذة ونظرت إلى الحديقة من خلال درعها وكانت الحديقة
فى ثوب من الجهمامة . والمطر يضرب زجاج النافذة فلم تدر أيهما حجب
الحديقة عن عينها : المطر أم دموعها . وكانت الأشجار كاسفة ولم يزل
القطر عن أوراقها الصفراء ولا تكاد تبدو غصونها السوداء من خلال
خطوط الديمة السحابة السكوب التى أحالت ممشى الحديقة مستنقعاً من الطين .

وأحست لياليا أنها شقية وأرسلت طرفها إلى المستقبل فلم ترفيه
نجم أمل واحد يومض وكرت إلى الماضى فإذا هو مظلم .
وجاءت الخادمة تدعوها إلى الإفطار فسمعت لياليا ألماظها ولكنها
عجزت عن فهم معناها .

ولما جلست إلى المائدة ألقت نفسها مرتبكة كلما خاطبها أبوها ولم
يخامرها شك فى أن كل الناس قد أحاطوا علماً الآن بغدر حبيبها وزيف
حبه فبادرت إلى العود إلى غرفتها وجلست مرة أخرى تنظر إلى الحديقة
الساهمة الموحشة .

« لماذا يغدر ؟ وما الذى يدفعه إلى إبتدائي وإبلاي ؟ أترى يفعل هذا لأنه لا يحبني ؟ كلا ! إن توليا يحبني وأحبه . إذاً فإدا ؟ إن الأمر هذا : لقد خدعني وكان في خلال ذلك يخطب وداد كل امرأة مقبوحة . فياعجباً ، أأحببته كما أحبه ؟ »

سألت نفسها ذلك في دلال وحرارة ثم قالت :

« تالله ما أحقنى ، ما خير أن أقطع قلبي بالأسى والتفكير في هذا ؟ لقد خاني عهدى فانقضى الأمر بيني وبينه ، آه ، ما أتم شقاوتى ! نعم يحق لى أن أقطع قلبي أسى ، لقد غدر بي ، وكان يجدر به أن يعترف لى بذلك على الأقل ولكنه لم يفعل ، فيالها من نذالة ، يقبل زمرأاً من النساء غيرة ، ولعله أيضاً يا للشناعة ، ريحى لقد صرت شتية ! »

ثم غنت نفسها :

« وثبت صفدعة فى الطريق ورجلاها ممدودتان » .

تلك كانت اغنياتها وهى تنظر إلى صفدعة صغيرة تثب فى الطريق الزل . ثم عادت تحدث نفسها بعد أن اختفت الصفدعة بين الحشائش :

« نعم أنا شقية وقد قضى الأمر . وما كان أحلى مامر بي من عهد حبى هذا وأحفظه بالغرائب الممتعة أما هو .. فلم يكن الأمر فى نظره إلا مسألة عادية مألوفة ! وأحسبه لهذا كان يحاذر أن يحدثنى عن ماضيه ! وهذا أيضاً فيما أظن سر ما كان يبدو لى من غرابة شأنه ومن هيئة التفكير التى كانت تلازمه . كأنما كان يقول لنفسه أبداً « إنى خبير بهذا وأنا أعرف ما تحسبته واستطيع أن أتكهن بالنتيجة بينما كنت أنا طول هذا الزمن ... آه ما أقطع هذا وأشنعه ! ألا لن أحب أجداً بعد ذلك ! » .

ثم بكّت مرة أخرى وأسندت خدها إلى الزجاج البارد وشخصت بعينها إلى العالم سائر ولم تكف عن مناجاة نفسها :

« ولكن توليا سيحضر للغداء اليوم ! » .

١٣٦

وارتجفت لهذا الخاطر :

« فإذا عسى أن أقول له ؟ ماذا ينبغي لمثل أن يقول لمثله في هذه الأحوال ؟ » .

وفتحت فمها وأثارت نظرها إلى الحائط :

« لا بد لي من سؤال يورى في هذا . إيه ما أطيب يورى وأقومه ! » .
وجالت دموع العطف في عينيها . ولما كانت لم تألف أن ترجىء أمراً ما فقد
خضت إلى أخيها في غرفته حيث ألقت معه شافروف يناقشه في مالا تعلم فوقفت
مترددة في الباب وقالت بشيء من الدهول :

« عما صباحا » .

فأجابها شافروف :

« عمى صباحا ! تفضلى بالله يالاليا ! إنه لا غنى لنا عن عونك
في هذا الأمر » .

فلم يفارقها ارتباكها واطاعت وجلست إلى المنضدة وجعلت تبحث بأصابعها
بعض الأوراق الخضراء والصفراء المكومة فوقها .

والتفت إليها شافروف التفتاة من يهم بجلاء معضل وقال :

« المسألة هي أن كثيرين من زملائنا في كورسك في ضيق وكره
شديدين ولا بد لنا من بذل كل ما يسعنا بذله لمساعدتهم ومن أجل هذا فكرت
لإحياء ليلة فهل توافقين ؟ » .

فأذكرها سؤاله وعباراته المألوفة ما جاءت من أجله إلى أخيها فنظرت إليه
بعين ملؤها الأمل وقالت وهي تعجب لماذا يتقن يورى لخزائنها :

« لم لا ؟ إنها فكرة حسنة جداً ! » .

وكان يورى بعد الذى شهده من بكاء أخته وما كابده من الخواطر المقلقة
طول الليل - يحس أنه أشد اكتئاباً وحزناً من أن يستطيع أن يكلم أخته . ولقد
توقع أن تقصده إليه طلباً لمشورته ولكنه شعر أن الإشارة عليها بشيء مرضي

مطلب بعيد . كذلك من المستحيل استرداد ماقاله ليرفه عنها ويسرى
أحزانها وليدفعها إلى ذراعى ريازانترزيف . ولم يشعر بالقدره على التقضاء على
سعادتها الوليدة .

وعاد شافروف إلى الكلام ودنا من لياليا كأنما زاد الأمر تعقداً
أو إشكالا :

« حسن . إن الذى قررنا أن نفعله هو هذا : نريد أن نطلب إلى ليذا
سانين وإلى سيدنا كرسافينا أن يغنيا — كل منهما على حدة أولاً ثم بعد ذلك
معاً وليس أصلح من صوتيهما للغناء المشترك فإذا فرغا عزفت على الكمنجا ثم
بعد ذلك يغنى سارودين ومعه تاناروف » .

فسألته لياليا بلا تعمد وهى تفكر فى شىء آخر :

« إذاً فسيشارك الضباط فى الحفلة أليس كذلك ؟ » .

فصاح شافروف ولوح بيده :

« نعم بلاشك ، وما على ليذا إلا أن تقبل فتلتف بها جمهرة منهم
كالزناير . أما من حيث سارودين فهذا يسره أن يغنى وهو لا يكثر
للمكان مادام يستطيع أن يغنى وسيجتنب غناؤه عدداً جماً من زملائه
الضباط فيغص المكان » .

فرمت لياليا إلى أخيها بنظرة ذات معنى وقالت :

« يجب أن تدعو سيدنا كرسافينا » .

وحدثت نفسها قائلة :

« لا أحسبه قد نسى . كيف يكلمنى فى شأن هذه الحفلة وأنا » .

فمال شافروف :

« لقد قلت لك منذ هنيهة أننا دعوناها ! » .

فقالت لياليا :

« نعم قلت ذلك » .

وابتسمت : « وهناك أيضاً ليذا ولكنك ذكرت اسمها فيما أظن ؟ » .

قال شافروف : « نعم فعلت . ومن ندعو غيرهما ؟ » .

فتحتمت لياليا :

« لا أدري والله ! إن برأسى صديعاً » .

فنظر يورى إلى أخته مسرعاً ثم استأنف الإكباب على الأوراق وحرك عطفه عليها اصفرارها وثقل جفونها وقال لنفسه :

« لماذا قلت لها كل هذا ؟ إن المسألة غامضة مستبهمة المعالم فى رأى ورأى الكثيرين من الناس . ولا مفر للمسكينة الآن من تعب القلب والخطار . فلماذا خبرتها ؟ » .

وأحس كأنما سيهم بتمزيق شعره .

وفى هذه اللحظة دخلت الخادمة وقالت :

« سيدنى إن المسيو أناتول بافلوفتش قد حصر ! » .

فأسرع يورى وألقى إلى أخته نظرة فزعة فالتفت عينه وعينها فأشاحت لارتباكها بوجهها عنه إلى شافروف وقالت على عجل :

« هل قرأت شارل برادلاف ؟ » .

أجاب : « نعم قرأنا بعض كتبه مع دوبروفا وسينا كرسافينا . إنها ممتعة ! » .

قالت : « نعم . أو قد عادتنا ؟ » .

أجاب : « نعم » .

فسأل يورى وكنتم انفعاله :

« متى ؟ » .

قالت : « منذ أول من أمس » .

فقال يورى : « حقاً ؟ » .

ونظر إلى أخته وخجل منها وأحس الخوف في حضرتها كأما كان قد خدعها .

وظلت لياليا لحظة وهي واقفة مترددة تعبت بأصابعها بكل شيء ثم دنت من الباب .

فقال يورى مخاطباً نفسه « ويحي ماذا صنعت ؟ » وأصغى وهو مكروب إلى وقع قدميها المتعثرتين .

ومضت لياليا إلى الغرفة الثانية مترددة حزينة وأحست كأما جمد الدم في عروقها وكأنما هي تائهة في غابة مظلمة فنزلت إلى امرأة ورأت في صقالها وجهها المقطب وقالت تحدث نفسها :

« سيراني بهذا الوجه ! » .

وكان رياز انتزيف واقفاً في غرفة المائدة يقول لنيقولا بصوته الخلو :

« بلديهي أن هذا غريب ولكنه لا بأس منه » .

فلما سمعت لياليا صوته خفق قلبها خففاً عنيماً كأنما بهم أن يتمزق وأبصرها رياز انتزيف فكف فجأة عن الكلام وتقدم إليها وذراعاه مفتوحان ولم يكن أحد سواها يعلم أن هذه الإشارة دليل على أنه يريد أن يحتضنها .

فرفعت إليه طرفها في حياء وارتجفت شفتاها ونزعت كفها من كفه دون أن تنبث واجتازت الغرفة وفتحت الباب الذي يفضي إلى الشرفة وجعل رياز انتزيف يرقبها وهي تفعل ذلك — وهو هادىء غير أن به بعض الدهشة . والتفت إلى أبيها وقال بوقار الممازح :

« إن لود ميللا ناعرة ! » .

فانفجر الأب نيقولا يضحك وقال :

« الأولى أن تذهب إليها وتتألفها » .

فتنهذ رياز انتزيف وقال مهيمته مضحكة وهو يتبعها إلى الشرفة :

« ليس ثم غير ذلك » .

وكان المطر لا يزال يهطل وفي الجو صوت قطراته المتساقطة المملة
وامكن السماء كانت أصفى والسحب متقطعة .

وكانت لياليا واقفة وخدها الى أحد عمهات الشارقة والمطر يضرب
يدها العارية وشعرها مبتل

فقال ريزانتريف وهو بدنو منها

« أن سيدتي غاضبة لياليتشكا ! . . »

ومنح شعرها العطر البابل قبلة خفيفة فأحسنت كان شيئاً يذوب في
صدرها ويتمثال وأقبلت عليه وهي لاتدرى ماتصنع وطوقت عنق
حببيها القوي بذراعيها وامطرته وابلا من اللثامات وهي تقول بينها :

« إني مستاءة جداً جداً منك . . . أنت رجل شرير »

وكانت في خلال ذلك تقول لنفسها أن ليس في الأمر بعد كل
مايقال سوء لاسبيل الى إصلاحه كما حسبت من قبل . وماذا بهم ؟ أن
كل ماتريده هو أن تحب هذا الرجل الكبير الجميل وأن يحبها .

ولما جلسا بعد ذلك الى المائدة آلمها من أخيها نظرة اليها مستغربة
وما سنحت لها الفرصة حتى أسرت اليه « أن هذا مني فطيع وأنا
أعرف ذلك »

فلم يزد على أن ابتسم ابتسامة مجتواة .

وكان يورى في الواقع قد سره أن الأمر انتهى على هذا الحال الحسن
وإن كان على هذا قد ذهب يدعى استنكار هذا التسامح العامي
واحتقاره فانسحب الى غرفته ومكث بها وحده الى المساء

ولما أذنت الشمس بالمغيب ورأى السماء صافية احتمل بندقيته على
نية الذهاب للصيد في حيث صاد هو وريزانتريف أمس .

وكان المطر قد أكسب هذه البركة حياة جديدة فكان المرء يسمع

أصواتنا غريبة كثيرة والحشائش تترنح كأنما تحركها قوة حيوية خفية والصفادع تنفق جماعات والطيور من حين إلى حين ترسل أصواتا حادة متنافرة والبط يصبح بين الأعشاب والأكلاء البائلة على مقربة من يورى وأن كان أبعد من مدى بندقيته . ولم يحس الرغبة في الصيد فاحتمل بندقيته وانثنى آيبا يصغى الى أصوات الصفاء البلورى فى الغسق الساكن ثم قال :

« ما أجمل هذا كل شيء جميل الا الإنسان فهو وضع . »

وأخذت عينه النار موقدة على بعد فى حقل البطيخ ولما اقترب عرف فى ضوءها وجهى كوسيمسا وسانين فاستغرب ونزعت نفسه الى استطلاع السر « ولماذا يدأب على المجدى الى هنا ؟ »

وكان كوسيمسا جالسا الى جانب النار يفص حكاية وهو يضحك ويومئ وسانين يضحك كذلك وكان طيب النار خفيفا كلسان الشمعة ورديا لأحمر قانياً كما يكون فى ظلمة الليل . وفى قبة السماء الزرقاء طلائع النجوم تتوأمض وفى الجو رائحة الجدة غب المطر وشذى النبات المطلول .

وخاف يورى لسبب ما أن يرياه وأحزنه فى الوقت نفسه أن لا يستطيع أن يلحق بهما ويكون معهما فكأنما قام بينهما وبينه حجاز كاذب غير مفهوم أو فضاء لاجو فيه أو بون لاسبيل الى تخطية . .

وثقلت على نفسه وطأة هذا الإحساس بالعزلة . وتجسم له أنه مستفرد وحيد وأنه واقف بمعزل عن هذه الدنيا بأضوائها وألوانها ونيرانها ونجومها وأصواتها الآدمية كأنما هو ملقى به فى غرفة خالكة وبلغ من جثوم هذا الشعور بالوحدة أن خيل له وهو يحتاز حقل البطيخ حيث كانت مثاث منه أن هذه ليست سوى جماجم آدمية مبعثرة فوق ظهر الأرض .

الزقاء المشرقة الصفحة كأنما يغشاها ويسبح فيه نقاب خفيف من البخار الذهبي وكأنما أُرهِق الحر الأشجار فنامت وألقت أوراقها المتدللية الساكنة ظلالاً شفافة قصيرة على الثرى الطامىء الخاف . وفى البيوت الرطوبة . والحدائق ترسل ألواناً خضراء باهتة ترسمها الأضواء على السقوف وكل شئ ساكن ما خلا الستائر المجموعة إلى جوانب النوافذ . هذه وحدها كان النسيم الوافى يعابثها .

وكان سارودين فى جاكنة من التيل مفكوكة الازرار يقطع أرجاء الغرفة فى بطاء وهو يدخن سيجارة فى كسل وفتور ويكشف عن أسنانه الكبيرة البيضاء . وعلى الكنية تاناروف فى ثياب الركوب متمطياً يلحظ سارودين بعينه الصغيرتين السوداوين . وكان فى أشد الحاجة إلى خمسين روبلا وقد طلب إلى سارودين مرتين أن يسلفه أياها ولم يجزؤ على معاودة الكرة مرة ثالثة . فجعل ينتظر فى قلق أن يعود سارودين من تلقاء نفسه إلى الموضوع ولم يكن سارودين قد نسى ولكنه كان قد قامر وأضاع سبعائة روبل فى الشهر الماضى فضعف على صاحبه بأى قرض آخر . وكان يقول لنفسه وهو ينظر إلى تاناروف إذ يمر به « أن عليه لى دائى روبل وخمسين روبلا . وهذا مدهش حقاً ! نعم نحن صديقان حميان الخ ولكنى أعجب له كيف لا ينجل . أنه على الأقل يستطيع أن يعتذر إلى من أنه مدين لى بكل هذا المبلغ . كلا . لن أقرضه درهما واحداً آخر » .

ودخل فى هذه اللحظة خادمه وهو جنلى صغير الجسم منقط الجلد ووقف بشكل محتوى وحيا وفال وهو لا ينظر إلى سارودين :

« سيدى لقد طلبت جعة ولكنه لم يبق منها شئ »

فطر سارودين على غير إرادته إلى تاناروف وأحمر وجهه وقال لنفسه :

« حقاً أن هذا أكثر مما يطافى ! أنه يعلم ما أنا فيه من الضيق ومع

ذلك لا بد من الجعة ! » .

١٤٣

وزاد الخادم على خبره السابق :

« والباقي من الفودكا قليل أيضاً »

قال « حسن . لعنة الله عليك ! أنه لا يزال معك روبيلان فاذهب واشتر ما تريد » .

أجاب « عفواً سيدي، فليس معنى شيء على الإطلاق » .

فوقف سارودين وصاح به :

« كيف هذا ؟ ماذا تعني بالكذب على ؟ » .

قال « عفواً ياسيدي . لقد أمرت أن أنقد الغسالة روبيلاً و ٧٠ كوبيك ففعلت ووضعت الثلاثين الباقية على المنضدة » .

فقال تاناروف متكلفاً عدم الاهتمام وإن كان على هذا قد احمر خجلاً :

« نعم هذا صحيح . لقد أمرته بهذا أمس وكانت المرأة لم تزل تعقبني منذ أسبوع وأنت تعلم ذلك » .

قادت على خدى سارودين الخليقين المصقولين نقطتان حمروان وتقبضت عضلات وجهه واستأنف رواجه ومحيثه في صمت تم ما عثم أن وقف بغتة أمام تاناروف وقال والغضب يرعش صوته :

« اسمع . إنني أكون شاكرًا جداً إذا تركتني أدير شئونى المالية في المستقبل » .

فاحتقن وجه تاناروف وتمتم وهو يهز كتفيه :

« هـ . م ! ومسألة تافهة كهذه ! » .

فقال سارودين :

« أنها ليست مسألة توافه . بل مسألة مبدأ . فهل تسمح لى أقول لك

بأى حق . . . » .

أجاب « أنا . . . » .

وقاطعه سارودين بنفس هذه اللهجة الجارحة وقال :

— « أرجوك أن لا تشرح لى شيئاً . وليس يسعنى إلا أن أرجوك أن لا تستعمل هذه الحرية مرة أخرى » .

فارتجفت شفتا تاناروف وتدلّى رأسه وجعلت أصابعه تعبت « بفم » سيجارة .

وبعد لحظة استدار سارودين بحدة وأخرج مفاتيحه وفتح درج مكتبه وقال :

« خذ واذهب واشتر ما نريد ! » .

قال ذلك بصوت أهدأ وأعطى الجندى ورقة بمائة روبل .

فقال الخادم : « حسن يا سيدى » .

وحيا ونخرج .

ثم أغلق سارودين صندوق نقوده ورد الدرج وأدار فيه المفتاح واستطاع تاناروف أن يرى الصندوق الذى يحتوى الخمسين روبلا التى به الحاجة إليها ثم تنهد وأشعل سيجارة وهو على أشد ما يكون ألماً ولكنه خشى أن يظهر ألمه لئلا يزداد سارودين غضبا واكتفى بأن يقول لنفسه :

« ما قيمة روبيلين عنده ؟ أنه يعلم علم اليقين أنى فى ضيق شديد » .

وظل سارودين يروح ويحيى فى الغرفة والغضب باد عليه إلا أنه كان يهدأ شيئا فشيئا ولما عاد الخادم بالجمعة كرع كوبا من هذا الشراب المرغى المتلج بالتذاذ واضح وبعد أن مص حافة شاربيه قال كأنما لم يكن قد حدث شىء :

« لقد عادت ليلا إلى أمس ! تالله ما أحلاها ! حارة حامية ! » .

وكان تاناروف لا يزال متوجعا فلم يجبه ولم ياتمت سارودين إلى صحته . واجتاز الغرفة فى بطء وفى عينه ضحكة ذكرى مكتومة . وجعل الحر كيانه القوى الصحيح أحس بتأثير العواطر المثيرة . ثم ضحك ضحكة قصيرة فكأنما كان يصهل ثم وقف وقال :

« تعلم أنى البارحة حاولت ... »

وهنا استعمل لفظة خشنة وضيعة لا يليق أن يشار بها إلى امرأة واستأنف الكلام .

« فتأبّت قليلاً في أول الأمر ؛ بالنظرة عينيها ! أنت بالضرورة تعرف » .

فابتسم تاناروف ابتسامة الشهوان وقد ثارت غرائزه الحيوانية .
وقال سارودين والذكرى ترعش منه .
« ولكن بعد ذلك لانت أعطاف الأمور . لم يمر بي مثل هذا الوقت في حياتي كلها » .

فقال تاناروف حاسداً أياه :

« ما أسعد حظك ! » .

وصاح بهما صوت من الشارع :
« هل سارودين هنا ؟ أندخل ؟ » .

وكان السائل هو إيفانوف ففزع سارودين وأشفق من أن يكون ما قاله عن ليذا قد سمعه أحد ولكن إيفانوف كان يناديه من السكة ولم يكن بحيث يرى فصاح به سارودين من النافذة .
« نعم . نعم هنا » .

وعلمت في الغرفة الأخرى جلبة ضحك ووقع أقدام كأنما غزا البيت جيش من أهل القصف ثم دخل إيفانوف ونوفيكوف والكبتن مالمينوسكى وضابطان آخران وسائين وصاح المينوسكى وهو يدفع بفسه داخل الغرفة .
« هورا ! كيف أنتم أيها الصبيان ؟ »

وهو رجل وجهه أحمر وخدهاه سمينان طريان وله شاربان تحالها عودين من القش .

وقال سارودين يحدث نفسه مغضباً :

« وستذهب أيضاً ورقة بخمسة وعشرين روبلا ! »

ولكنه لم يكن يجب أن تسوء سمعته وأن يظن به إلا أنه غنى كريم فصاح بهم وهو يبسم لهم :

« هلموا ! أين أنتم ذاهبون جميعاً ! آتون إلى ؟ هيا ياشير يانوف هات لنا فودكا وسائر ما نحتاج إليه . أجر إلى النادى واثت بشيء من الجمعة . أنكم تريدون جعة أليس كذلك يا سادة ؟ فى مثل هذا الحر ؟ »

ولما جاء الخادم بالجنة والفودكا زادت الضجة وعلت الجلبة وصاروا جميعاً يضحكون ويصيحون ويشربون كأنما آلوا أن يحملوا أكبر صخب ممكن . ولكن نوفيكيوف كان مطرقاً مكتئباً وعلى وجهه الطيب أمارات منذرة . ولم يكن قد عرف إلا أمس ما تلغظ به البلدة فطغت به فى أول الأمر الغيرة والشعور بالمهانة ثم قال لنفسه .

« إن هذا مستحيل ! سخافة مطبقة وحديث خرافة » .

وأبى أن يصدق أن ليدا الجميلة المزهوة البعيدة المال — ليدا التى يحبها من أعماق قلبه — يمكن أن تكون قد تورطت على نحو مخز مع مخلوق مثل سارودين الذى يعده نوفيكيوف دونه ذكاء ومواهب . ثم استحوذت على نفسه الغيرة الجاحدة الحيوانية ومرت به لحظات يأس مرة فكانت تمزق قلبه الكراهية لليدا ولسارودين على وجه أنخص . وهو إحساس لا يلائم مزاجه الهادئ اللين فكان لذلك يتطاب منفذا ومتهنفا وظل الليل كله يرثى لنفسه بل لقد خطر له الانتحار غير أنه ما كاد الصبح يتنفس حتى نازعته رغبة جاحدة طاغية غامضة أن يرى سارودين .

ولما جاء انتحى ناحية وجعل يكرع السكأس أثر الكأس وعينه ترصد كل حركة لسارودين كما يرصد الوحش فى الغابة قرينه الوحش — متطاهراً بأنه لا يرى شيئاً ولكنه على هذا أتم ما يكون استعداداً للوثوب — وكان كل ماله علاقة بسارودين — ابتسامته وأسنانه

البيضاء وقسمات وجهه المليحة وصوته — كل هذه كانت سهاما أو خناجر في جرح رغب فاجر .

وقال ضابط طويل نحيف له ذراعان طويلتان :

« سارودين ! لقد جئت إليك بكتاب » .

وسمع نوفيكونوف وسط الصخب العالي اسم سارودين يذكر وصك أذنه صوته كذلك كأنما كانت السنة الحضور خرساء وقال .

— « أى كتاب ؟ »

فقال الضابط الهزيل ورفع صوته كأنما يلتقي بيانا :

« إنه كتاب عن النساء بقلم تولستوى » .

وكانت على وجهه الطويل المضمين آيات الزهو والمباهاة بأنه يقرأ تولستوى ويبحثه .

فسأله ليفانوف وقد لاحظ دلائل هذا الزهو .

« أو تقرأ تولستوى ؟ »

وقال مالتوسكى مجيباً عنه :

« إن فون دايتز مجنون بتولستوى » .

وتناول سارودين الكتاب الصغير وقلب بعض صفحاته وقال .

« أهو المذنب ؟ »

فقال فون دايتز بحماسة :

« سترى . لعمرى أنه لعقل ! ويخيل لك بعد قراءته كأنما كنت تعرف

هذا من قبل ! »

فسأل نوفيكونوف بصوت منخفض وعيناه إلى الكأس في يده .

« ولكن لماذا تطلب إلى فيكتور سر جيفنش (سارودين) أن يقرأ تولستوى

مع أن له آراء خاصة عن النساء ؟ »

فقال سارودين بخذر وقد استروح نية المحوم :

« ما الذى يجعلك تظن هذا ؟ »

فصمت نوفيكوف وكان يود أن يلطم سارودين على وجهه الحسن الذى ينم على الرضى عن النفس وأن يطرحه على الأرض ويلكزه لكز من طخى بصدره ورأسه جنون العاطفة . ولكن الألفاظ التى يطلبها خائنه . وأدرك - وآلمه أن يدرك - أنه ينطى بما لا يريد حين قال :

« حسب المرء أن ينظر إليك ليعرف ذلك » .

فأحدث لهجته الغريبة المنذرة سكواً مبالغاً كأنما ارتكبت جريمة قتل وفطن إيفانوف إلى سر المسألة وقال سارودين بهرود :

« تخيل إلى أن . . . »

وتغيرت هيئته قليلاً وإن كان قد ملك عواطفه وضبطها .

فصاح بهما إيفانوف :

« مهلاً مهلاً يا سادى ، ماذا حدث ؟ »

فقال سارين مقاطعاً :

« لاتدخل بينهما ، دعهما يقتتلان ويفرغان من الأمر » .

وعاد نوفيكوف فقال مجيباً سارودين بنفس اللهجة وعيناه إلى كأسه :

« ليس فى الأمر تخيل وإنما هو كذلك » .

ولم يكده يقولها حتى حال بين المتنافسين حائط من اللحم والدم وكثر الصياح والتلويح بالأذرع واطلقت الألسنة بعبارات المزاح والدهشة وأمسك مالمينوسكى وفون دايتز بسارودين ورد إيفانوف والضباط الآخرون نوفيكوف وأترع إيفانوف الكؤوس وقال شيئاً غير معتمد أحداً بخطابه وصار السرور متكلفاً لا إخلاص فيه راحس نوفيكوف أن خروجه واجب ولم يطق البقاء فابتسم ابتسامة خرقاء والتفت إلى إيفانوف والضباط الذين كانوا يعالجون أن يلفتوا نظره إليهم وقال يحدث نفسه .

« ماذا دهاني ؟ أحسب أن واجبي أن أضربه ... أن أهجم عليه وألكنه في عينه ، وإلا تعدوني طفلاً إذ لابد أن يكونوا قلب حزرروا أنى أتحمكك به .. »

ولكنه بدلاً من أن يفعل هذا ادعى الاهتمام بما يقوله إيفانوف وفون دايتز .

وقال فون دايتز .

« أما من حيث النساء فاست أوافق تولستوى كل الموافقة » .
فقال إيفانوف :

« إن المرأة ليست إلا أنثى . وقد تجد في كل ألف رجل واحداً جديراً بأن يسمى رجلاً فأما النساء ... ويجهن أنهن جميعاً سواء ولسن إلا قردة عارية حمراء ولكنها بغير أذنان »
فقال فون دايتز موافقاً .

« ما أذكى هذا ؟ »

فقال نوفيكوف بمزعة .

« بل ما أصدقه ، »

واستمر إيفانوف ملوحاً بيديه قريباً من أذن صاحبه فقال .

« يا سيدى العزيز . اسمع . إذا ذهبت إلى الناس وقلت لهم (إن المرأة إذا نظرت إلى الرجل نظرة اشتها فقد زنت معه في فلها) - كان الأرجح أن يعد أكثرهم هذا القول صحيحاً متهكراً » .

فأخرج فون دايتز ضحكة جشاء كأنها نباح الكلب ولم يكن قد فهم نكتة إيفانوف غير أنه على هذا أسف لأنه لم يقلها دونه .

ولهم كذلك وإذا بنوفيكوف يمد يده إلى فون دايتز فقال فون دايتز مستغرباً :

« ماذا ؟ أذهب أنت ؟ »

فلم يجر نوفيكوف جواباً . وسأله سائين :

« إلى أين ؟ »

فظل نوفيكوف صامتا وهو يحس كان الألم المكثوم يوشك أن ينهمر دموعا .

فقال سائين .

« إلى أعرف ما بك . ابصق على كل ذلك . »

فرمى إليه نظرة من يرثى له وارتجفت شفته وأوماً إيماة الأسف وخرج في صمت والإحساس بعجزه يخامره فقال ليتسلى ،

« ما خير أن أنظم هذا النذل على وجهه ؟ أن هذا ما كان ليفضى إلا إلى قتال سخيخ ولخير لى أن لا ألوث يدي » .

ولكن الغيرة الثائرة والإحساس بالعجز ظلا ضاغطين فعاد إلى بيته وهو في أشد حالات الغم والأسى والى بنفسه على الفراش وأخفى وجهه في الوسادة وظل كذلك بقية النهار وبه ما به من مرارة الشعور بأن لا حيلة له



وسأل ماليتوسكى زملاءه :

« الا نلعب الورق ؟ »

فقال إيفانوف :

« حسن جداً » .

وجاء الخادم بمنضدة اللعب وعليها غطاؤها الأخضر يستهويهم جميعاً . وكان اقترح ماليتوسكى قد أيقظهم فجعل ينقل الأوراق بكفيه الصغيرتين الكثيرتي الشعر وانتشرت على المائدة الخضراء الأوراق الزاهية وسمع رنين الروبيلات الفضية بعد كل دور أو صارت الأصابع تطبق عليها كالعناكب ولم تند عن الأفواه إلا عبارات وجيزة مصرحة عن السرور أو الكمد .

ونخل الحظ سارودين فذهب إلى العناد وأصر على المخاطرة في كل شوط بخمسة عشر روببلا وكان يخسرها في كل مرة وصار وجهه ناطقاً

بالألم الشديد وكان فى الشهر الماضى قد قادر وخسر سبعمائة روبل يضاف
إليها كل مذهب اليوم وأعدى غيره بسوء خلقه فلم يلبب فون دايتز
وماليتوسكى أن تراشقا بالعبارات الجارحة

فصاح بهما سارودين وألقى ورقة :

« ويحكم مامعنى هذا كله ؟ »

وفى هذه اللحظة ظهر قادم جديد فى مدخل الغرفة . فمخجل سارودين
لانفجار مرجلى غضبه وانطلاق لسانه بعبارات العامة ولوجود هؤلاء الضيوف
المحمورين الصاخبين ولأوراق اللعب وزجاجات الخمر وخيل اليه أن غرفته
قد صار لها منظر الحمارة

وكان القدام رجلا نحيفا طويلا فى بدله بيضاء فضفاضة وأنيقة عالية
فوقف على العتبة مذهولا وجعل يتأمل الحضور باحثاً عن سارودين بينهم
فصاح سارودين وتقدم اتحيته ووجهه كالجمر من الغيظ

« أهلا بك يا بافل لفوفتش ! ماذا جاء بك »

ودخل القدام بهيئة المتردد وصارت كل العيون قيد حذائيه الأبيضين
الناصعين وهو يخطو بهما على حذر بين زجاجات الجمعة وسداداتها وأعقاب
السيجار وكان من البياض والنظافة والتمطر وحسن الهندام بحيث صار بين
سحب الدخان المعقود فى جو الغرفة ومرسليها السكرى أشبه شئ بالزنبقة
فى المستنقع لولا خورة وذبوله ولولا أن قسما وجهه ضعيفة وأسنان البادية
تحت شاربيه الخفيفين الأحمرين — متداعية .

فقال سارودين :

ومن أين جئت أغبت طويلا عن بتجر (١)

ثم أدركه الخوف من أن تكون بتجر لفظه لا يحمل مثله استعمالها

(١) اسم عامى ليتروغراد .

فقال الرجل ذوالثوب الأبيض بلهجه بآنة وإن كان صوته كصباح الديك المكتوم :
« جئت أمس فقط » .

فقال سارودين وقدمه إلى الحاضرين :
« هذا هو المستر بافل لفوفتش فلوتشين » .
فاتحني فلوتشين قليلا وقال لبافانوف وكان ثملا فأزعج سارودين :
يجب أن تدون هذا !

« تتفضل واجلس يا فلوتشين . أتشرب نبذاً أم جمعة ؟ »
فجلس فلوتشين ببطاء وحذر على كرسي ذي ذراعين فظهر نصوع ثوبه إلى جانب الغطاء القنز وقال بمرود ودارت عينه في الحضور :
« أرجوك أن لا تتعب نفسك . انما جئت لأراك هنيهة »
فسأله سارودين :

« كيف تقول هذا ؟ سأطلب لك نبذاً أبيض . فإتلك تحية أليس كذلك ؟ »
وأسرع فخرج وهو يقول لنفسه :
لماذا شاء هذا الأحمق أن يأتي إلى اليوم ؟ إنه سيروى غنى في بطرسبرج ما يجعل
من المستحيل علي أن تظاً زجلي عتبة بيت محترم فيها »

وبعث خادمه ليشتري النبيذ
وفي خلل ذلك كان فلوتشين ينقد الحاضرين نقداً صريحاً وبنظر اليهم نظار
الموقن أنهم دونه بمراحل . ويقلب فيهم عينة الزجاجية تقلب من يعرض مجموعة
من الوحوش ووقع من نفسه على وجه الخصوص قادة سائين ووثاقه تركيبه
وثيابه فقال لنفسه

(هذا نوع ممتع ! ولا بد أن يكون قويا !)

وبه إعجاب الضعيف الحوار للقوى الباطش . والواقع أنه اعتم أن انطلق
يكلم سائين غير أن سائين كان متكئاً على حافة النافذة ينظر إلى الحديقة
نكف فيوتشين عن الكلام وعاظلة حتى صوته وحدث نفسه أن هؤلاء ليسوا
الاحتمالة الخلق

وعاد سارودين في هذه اللحظة وجلس بجانبه وجعل يسأله عن بطرسبرج وعن مصنعه ليفهم الحاضرين أن زائره رجل ثرى خطير الشأن وبدت على وجهه الوسيم دلائل الزهو والغرور الحقيق فأجابه فلوتشين بلهجة السأمان :

« كل شيء هناك كما كان ! وكيف حالك أنت ؟ »

فقال سارودين وأخرج زفرة :

« إني أعيش عيشة النبات »

فصمت فلوتشين ورفع طرفه بازدراء إلى السقف حيث كانت تلتصع الأضواء المنعكسة عن الحديقة .

وعاد سارودين إلى الكلام :

« إن سلوتما الوحيدة هي هنا »

وأشار إلى الورق والزجاجات والضيوف .

فقال فلوتشين .

« نعم نعم ، »

ونخيل لسارودين أن صاحبه يقول له « أنك لست بخير منهم .. »

ثم وقف فاوتشين يودع صاحبه وقال

« يجب أن أذهب الآن . إني مقيم بالفندق القائم في الميدان وأرجو أن

أراك مرة أخرى ، »

وفي هذه اللحظة دخل الخادم وحيا بهيئة رثة وقال :

« سيدى أن السيدة الصغيرة هناك »

ففزع سارودين وصاح به :

« ماذا ؟ »

اجاب : « لقد حضرت ياسيدى »

فقال سارودين :

« آه ! نعم سمعت »

وأدار لحظة في الغرفة مضطربا وأوجس خيفة وقال لنفسه .

« أتراها ليذا مستحيل ! »

فالتمعت عين فلوتشين وكأنما استعجد جسمه الصغير الضعيف في ثيابة
الواسعة البيضاء حيوته المفقودة فقال وهو يضحك :

« حسن أسعد الله نهارك . أراك لا تزال على عهدك القديم ها ها ! »

فابتسم سارودين وهو قلق وماشى زائر إلى الباب :

ولما عاد سارودين قال لرفقائه :

« والآن يا سادة . كيف يجرى اللعب ؟ نخذ (البنك) عنى يا تاناروف

إذا سمحت . وسأعود إليكم عاجلا »

وكان يتكلم بسرعة وعينه قلقتان .

فنبحه مالبينوسكى وكان قد سكر .

« وهذا كذب ! لا بد أن نشبع من النظر سيدتك الصغيرة هذه .. »

فأمسك تاناروف بكتفه وردّه إلى كرسیه وعاد الباقيون إلى أماكنهم حول
المنضدة وهم لا ينظرون إلى سارودين ويجلس سائين كذلك ولكن ابتسامته
كان فيها شيء من الجذبة وكان قد أدرك أن ليذا هى التى جاءت ونجّلتها إحساس
غامض بالغيرة والمرثية لأخته الجميلة التى صارت الآن فى كرب شديد .

(١٧)

جلست ليذا على سرير سارودين يائسة تلوى المنديل لى الاضطراب فلما
دخل عليها لحظ تغير منظرها وحاول هيئتها — فما بقى شيء من تلك الفتاة المزهوة
الشامخة الرأس العالية الروح — ورأى أمامه امرأة محزونة حطمتها الأسى
وأغار من خديها وأحمد لمعة عينيها . فحدقته هاتان العينان السوداوان ثم
ما عتمتا أن جانبته فأدرك بغريزته أن ليذا تحشاه وفاجأة الملاك غيظ شديد
فرد الباب بعنف ومضى إليها . وقال وهو لا يكاد يغالب جماح رغبة أن يضربها :

« إنك حقيقفة عجيبة جدا ! هاذا أنا هنا فى غرفة غاصة بالناس وفى جملةهم أخوك . أما كان يسعلك أن تتخبرى وقتا آخر للمجىء ؟ أن هذا مثير حقا . »

فانطلقت اليه من العينين السوداوين نظرة تداعى لها سارودين فتغيرت لهجته وابتسم وكشف عن أسنانه البيضاء وتناول يد ليذا وجلس الى جانبها على السرير وقال :

« حسن حسن . أن الأمر غير مهم . وإنما كان قلقي وإشفاقي عليك ولقد سرنى أنك جئت فقد كنت مشتاقا لرؤيتك »

ورفع سارودين يدها الحارة المعطرة الى شففيه وقبلها مما يلى القفاز فسأله :

« أتقول حقا ؟ »

فأدهشته غرابة لهجتها . ثم نظرت اليه مرة أخرى وقالت له حينها بأصرح ما تنطقان :

« أصبح أنك تحببى ؟ أنك ترى مبلغ شقوى الآن . وكيف إن لم أعد فى شىء مما كنت . وإنى لأخافك وأشعر بكل ما فى حالتى من الذلة والمهانة ولكنه ليس لى معين سواك »

فأجابها سارودين :

« كيف يخامر الشك فى صدق ما أقول ؟ »

ولكن صوته خلا من رنة الإخلاص بل لقد كان باردا جافيا . وتناول يدها مره أخرى ولشمها وأحس أنه عالق بشبكة عجيبة من الأحساسات والخواطر — منذ يومين فقط على هذه الوسادة بعينها كانت تحصل شعرها متهدلة وهو يطوقها بذراعيه وشقاها ملتقية فى قبلة عن أحر عاطفة وأجمعها ، وفى تلك اللحظة خيل اليه أن كل

ما استمتع به من النساء الآخر قد تحقق وأنه بلغ سؤله من الإساءة الى هذه المرأة التي جعلتها العاطفة درج يديه لإساءة وحشية متعمدة - والآن شعر لها فجأة بالوقت . وود لو استطاع أن يدفعها عنه وأن لا يراها أو يسمع صوتها بعد ذلك . وبلغ من قوة هذه الرغبة وطغيانها أن الجلوس الى جانبها صار مؤلماً له . على أنه نازعه خوف مبهم منها فسلبه ذلك إرادته واضطره الى البقاء بجانبها . وكان يدرك أتم إدراك أنه ليس ثم ما يربطه بها وأنه ما نال منها شيئاً إلا برضاها دون أن بعدها شيئاً فكأن كلا منهما قد أخذ كما أعطى بيد أنه سع ذلك أحسن كأنما لصق بمادة لزجة لم يقو على التخلص منها وتوقع أن تطالبه ليدها بشيء وأنه سيكون بين أمرين : أن يوافق ويقرها على ماتدعى أو أن يأتي عملاً حقيراً دنيئاً . وأحس أن كل قوة له مسترقة كأنما نزعت عظام رجليه وذراعيه وكأنما صار لسانه الذى فى فيه خرقة مهلولة . وأراد أن يصيح فى وجهها وأن يفهمها صراحة أن ليس لها حق ما فى مطالبتها بشيء ولكن قعد به عن ذلك الخوف والعجب وندت الى لسانه عبارة فارغة كان يعلم أنها لا محل لها على الإطلاق

« آه . المرأة . المرأة . »

فنظرت اليه ليدها مستفضة وكأنما أضواء لذهنها بارق فأدركت فى لحظة أنها فقدت كل شيء وأن كل مامنحت من طهرها وشرفها إنما منحت رجلاً ليس له وجود وأن حياتها وصباها وطهرها وكبرها قد ألفت بها جميعاً عند قدمى بهيم جبان نذل لم يشعر لها بالشكران على ما بذلت له بعد أن لو شأها فهمت أن تاطم كفا بكف وأن تسقط على الأرض يأساً ولما غير أن الرغبة فى الانتقام المنبعثة عن مرارة البغض حلت محل ذلك الشعور بسرعة البرق

فقالت وأسنانها مطبقة وعينها محدقة به :

« ألا تعلم أنك غاية فى الغباء والسخف . ؟ »

فجاءت قحة هذه الألفاظ ونظرة الحقد التي لاتلائم ليذا اللينة السمحة —
صدمة لسارودين تراجع لها ولم يكذب يفهم مدلولها وحاول أن يمزح
ويضيع أثرها بالفكاهة وقال وهو مستغرب مغيط :

« أى ألفاظ هذه ؟ »

فردت ليذا بمرارة وخبطت كفها بكف
« لست فى حالة تسمح لى بانتقاء الألفاظ »

فقطب سارودين وسألها :

« لماذا كل هذه السمات الحزينة ؟ »

واستهواه وهو لا يشعر جمال شكلها فجعل ينظر الى كتفها الرقيقتين
وذراعيها البديعتى التكوين وأشعرته إيماءات اليأس والضعف الثقة بقوته
فكأنما هما فى كفتى ميرآن اذا شالت إحداها رجحت الأخرى ووجد سارودين
لذة قاسية لعلمه أن هذه الفتاة التي كان يعدها أسمى منه قد صارت تعذبة
من أجله وكان فى العهد الأول من علاقتهما يخافها فسرره الآن أنها هوت الى
حضنيض العار :

فلان لها وتناول فى رفق يديها الضعيفتين وجذبها اليه وتذبت مشاعره
وصار نفسه سريعا وقال :

لاتراعى . سينصلح الأمر فافيه شىء فظيع بعد كل مايقال .

فأجابته باحتقار .

« أو تظنى ذلك ؟ »

وساعدها الاحتقار على أن تثوب اليها نفسها وقوتها فحذجته بنظرة غريبة
العنف

فقال سارودين وهو يحاول أن يضمها اليه ضمة يعلم أن لها سحرا

نعم بلا شك اطن ذلك .

غير أنها ظلت باردة جامدة فقال بلهجة العاتب المترفق :

« تعالى تعالى . مبالاك نافرة يا حبيبتي » .

فصاحت به ليذا وهى تدفعه عنها :

« دعنى ! أقول لك دعنى ! »

فتألم سارودين وحز في نفسه أن عوطفه هاجت عبثاً وحدث نفسه « إن المرأة هى الشيطان بعينة » وسألها وقد حرج صدره واحمر وجهه « ماخطبك ؟ »

وكأنما أطاف سؤاله بذهنها ذكرى فسترت وجهها بكلمات يديها وبكت بكاء الفلاحات الساذجات وأعولت ووجهها مدفون في راحتها وجسمها منحني وشعرها متهدل على محياها البليل المتهم فاستمط في يد سارودين ولم يسعه الابتسام. وإن كان على هذا خشى أن يسوءها ابتسامه وحاول أن ينحى كفيها عن وجهها فقاومه مقاومة عنيدة وظلت تبكي

فقال « ياألهى ، » ونازعته نفسه أن يصيح بها وأن ينزع كفيها وأن يسبها ويشتمها وقال لها بخشونة :

« لماذا تبكين ؟ لقد خطئت معنى وهذا من سوء الحظ ولاحيلة الآن ، فلماذا كل هذه الدموع اليوم ؟ أمسكى بالله ، »

وأمسك بإحدى يديها فاهتز رأسها يمنة ويسرة فكفت عن البكاء بغتة ونحت كفيها عن وجهها المبلل بالدمع ورفعت عينها إليه كما رفعها الطفل الخائف وطاف بذهنها بمثل سرعة البرق أن في وسع من شاء أن ياطمها الآن ولكن سارودين الآن من شدته وقال بصوت المواسي :

« اسمعى ياليدوتشكا ، كفى عن البكاء ، إنك ملومة مثلى ، فلماذا تحدثين ضجة ؟ لقد خسرت الكثير ولاشك وإنى لأعلم ذلك ولكننا نلنا حظاً كبيراً أليس كذلك ؟ ويجب علينا أن ننسى ... »

فانطلقت ليبدأ تبكى من جديد فصاح :

(آوه ، أمسكى عن هذا ،)

ثم مشى الى آخر الغرفة وجعل يشد شعر شاربيه بعنف وشفته ترفجان وصارت الغرفة ساكنة . وحط طائر على أغصان شجرة مما يلي النافذة

فاهتزت في رفق وحاول سارودين أن يكبح جماح غضبه فدنا من ليذا
وطوق خصرها بذراعه ولكنها أفلتت منه بسرعة وضربته بجمع يدها على ذقنه
ضربة اصطكت لها أسنانه فصاح مغضباً :

« إلى الشيطان بها ! » .

وآلمته الضربة وغاظه صوت أسنانه المصطكة أكثر مما ألم للظمة .

ولم تسمع ليذا قوله هذا ولكنها أدركت بفطرتها أن موقف سارودين
مضحك فانهزت هذه الفرصة بكل ما أوتيت المرأة من قسوة وقالت تحاكيه .

« أى ألفاظ هذه ؟ » .

فأجابها مغيظاً :

« أن هذا يكفي لاستفزاز أى أنسان ! » .

ثم عاد فقال :

« لو أنى عرفت ما خطبك ! » .

فقالت ليذا بلهجه جارحة مرة :

« أتريد أن تقول إنك مازلت تجهل ؟ » .

وصمتا برهة . وجعلت ليذا تنظر إليه شزرا ووجهها أحمر كالنار
فامتقع سارودين كأنما انسدل على وجهه نقاب أصفر ثم صرخت به صرخة
المتشنج حتى لأفزعها صوتها :

« مالك صامتاً ؟ لماذا لا تنطق ؟ تكلم قل شيئاً تعزيني به ! » .

أجاب « أنا ... » .

وارتجفت شفته السفلى .

فصرخت مرة أخرى ودموع الحنق واليأس تكاد تخنقها :

« نعم أنت — ولا أحد سواك ! » .

وسقط عنه كما سقط عنها نقاب الأدب والمجاملة وطهر الوحش الشارد

الجامح في عيونهما كليهما .

وظافت برأس سارودين خواطر كالجردان والفران ... وخطر له أولاً أن ينقدها مالا وأن يقنعها بالتخلص من الحنين ررأى أن لا بد له من بت كل صلة بها وبذلك ينتهى الأمر غير أنه لم يقل شيئاً وإن كان يرى أن هذه خير وسيلة وتتم :

« لم يخطر لي قط ... » .

فصرخت ليذا كالمجنونة :

« لم يخطر لك قط ! لماذا لم يخطر لك ؟ بأى حق لم تفكر ؟ » .

فقال والألفاظ تتعثر :

« ولكنى يا ليذا لم أقل لك أبداً لى ... » .

وخاف أن يتم ما يريد فأمسك وفهمت ليذا مراده دون أن يصارحها به فاسود وجهها ومسحه الاستفضاع واليأس وسقط ذراعاها إلى جانبيها وهوت إلى السرير وقالت وكأنها تفكر بصوت عال :

« ماذا أصنع ؟ أغرق نفسى ؟ » .

أجاب « لا ! لا ! لا تقولى هذا ! » .

فرمته ليذا بنظرة قاسية وقالت :

« هل تدرى يا فيكتور سرجيفتش ؟ أى واثقة أن هذا لا يحزنك أبداً » .

وكان فى عينها وعلى فيها الحميل المرتجف من الحزن والأسى مما جعل سارودين يدير وجهه عنها .

ثم وقفت . وكانت تحسب فى أول الأمر - ويعزىها حسبانها هذا - أنها ستجد فيه منقذاً لها وعوناً وأنها ستعيش معه أبداً . فلان كطها مأهداه إليها من خيبة الأمل بالمقت والتقرز منه وودت لو هزت له قبضة يدها وبصقت احتقارها فى وجهه جزاء له على إذلالها وامتهانها ولكنها شعرت أتمها ستبكى قبل أن ينطلق لسانها بحرف وصدتها بقية من الكبر هى كل مابقى من ليذا الحريئة الجميلة وقالت له وأسنانها مطبقة وفى لهجتها من الاحتقار العميق ما أدهشها كما أدهشه :

« أيها الوحش ؟ » :

وانطلقت كالسهم خارجة من الغرفة وعلق كعها برتاج الباب فتمزق .
فاصطبغ وجه سارودين بالحمرة إلى جذور شجره . ولو أنها قالت
« أيها الشقي » أو « أيها النذل » لاحتمل منها هذا في سكون ولكن لفظة
« الوحش » خشنة لا تتفق في رأيه مع شخصيته الساحرة . فأذهله ذلك واحمر
حتى بياض عينيه فتلوى وهز كتفيه مضطرباً وزر جاكته ثم فك أزرارها
وهو على أتم ما يكون اضطرباً .

ولكنه ما عزم أن استشعر الارتياح الناجم عن الإحساس بالتخلص . فقد
قضى الأمر . على أنه غاظه أنه لن يظفر مرة أخرى بليدا وأنه خسر مثل
هذه الرفيقة الجميلة المشتبهة . غير أنه نفي هذا الأسف بإيماءة احتقار .
« إلى الشيطان بهن جميعاً . إن في طوق أن أنال ما أشاء ممن أشاء
ممن » .

وسوى جاكته وأشعل سيجارة وشفته لا تزالان ترتجفان ثم استعاد
مألوف هيئته وكر إلى ضيوفه .

(١٨)

لم يعد أحد من المقامرين — ما خلا مالمينوسكي السكران — يلتذ باللعب .
ولج بهم جميعاً حب الاستطلاع والرغبة في معرفة السيدة التي جاءت إلى
سارودين من عسى أن تكون . وأدرك بعضهم أنها ليذا وخالجهم لذلك
الغيرة وتصوروا جسمها الأبيض بين ذراعي سارودين .

وبعد برهة وقف سانيون وقال :

« لن لعب أكثر مما لعبت . فإلى الملتقى » .

فسأله إيفانوف :

« تمهل يا صديقي . إلى أين ؟ » .

فأشار سانيون إلى الباب الموصل وقال :

« سأذهب لأرى ما يجري هنا ! » .

فقال إيفانوف :

« لا تكن أحمق ! اجلس واشرب كأساً ! » .

فأجابه سانين وهو يخرج :

« إنك أنت الأحمق ! » :

ولما وصل سانين إلى منعطف تكثر فيه الأشواك النابتة نفص المكان ليرى الموضوع الذى تشرف عليه نافذة سارودين ثم مشى بحذر بين الأشواك وتسلق الحائط ولما بلغ قمته كاد ينسى لماذا صعد لفرط ما بهره جمال المنظر وهويطل من مرقبه على النجائل والحديقة الفيحاء — والنسيم الرقيق يسمح اعضاءه الحارة القوية ثم وثب عن الحائط إلى الداحية الأخرى بين الأشواك وجعل يبدلك جسمه فى حيث شكته واجتاز الحديقة وباغ النافذة حين كانت ليذا تقول :

« أتريد أن تقول أنك لا تزال تجهل ؟ » .

فأدرك من غرابة لهجتها حقيقة الأمر فاستند إلى الحائط وعينه إلى الحديقة وأرهف سمعه وأدركه العطف على أخته الحسنة التى لا تلتئم جمالها لفظة « الحبلى » الخشنة . ووقع من نفسه الاختلاف بين هذه الأصوات الآدمية الصاخبة والسكينة الرائعة التى كانت تجلجل الحديقة الزاهية .

وطارت فراشة بيضاء فوق الحشائش وقد انعشتها الشمس فضمحت لها فجعل سانين يرقبها بمتل اهتمامه بالإصغاء .

ولما صاححت ليذا « أيها الوحش ! » ضحك سانين جذلاً وعاد ادراجه فى تناقل وإبطاء غير مكترث لمن يراه أو لا يراه .

وعدت أمامه سحلية فلبث برهة يرصد حركاتها السريعة وهى تزحف بجسمها الصغير الأخضر بين الحشائش الطويلة .

لم تعد ليدا إلى البيت بل حثت خطاها في طريق ينأى بها عنه وكانت الشوارع خالية والحر يأخذ بالخنق والظلال متقلصة إلى الحائط والسياح بعد أن هزمتها الشمس الظافرة وردتها ففتحت ليدا مظلتها بحكم العادة وقوتها ولم تلتفت إلى الحر أو البرد ولا إلى النور ولا الظلمة ولم تدر في أيها تسير فمضت مسرعة وتجاوزت الأسيجة المعفرة المكسوة بالاكلاء ورأسها متنى وعينها إلى الأرض ولم تصادف في طريقها إلا نفراً من الراجلين كاد يخنقهم الحر وفيما عدا ذلك كانت البلدة ساكنة كما تكون في القيلولة .

وكان قد تبعها جرو أبيض شم رداءها ثم انطلق يعدو أمامها يلتفت إليها ويبصص لها بذنبه كأنما يريد أن يقول لها أنهما زميلان مترافقان . ورأت ليدا عند منعطف الشارع صبياً صغيراً بدينا مضحك الهيئة أطل قيصه من جاكته عند كتفه وخذاه طويلاً ملوثان بعصير بعض الفاكهة ويداه تعملان بقوة في منفاخ خشبي .

فأومأت ليدا إلى الجرو وابتسمت للصبي غير معتمدة شيئاً مما فعلت فقد كان روحها سجيناً وكانت تدفعها إلى الأمام قوة غامضة تفصل ما بينها وبين الدنيا وتجاوز بها ضوء الشمس والحضرة وكل ما في الحياة من مفارح ومتع وتسوقها إلى هاوية سحيقة مظلمة أشعرها الألم أنها منها قروية .

ومر بها ضابط تعرفه على جواده فلما أبصرها وقف وسألها بصوت طروب : « ليدا بتروفتنا ! إلى أين في هذا القيط » .

فارتفعت عينها بلا عمد إلى قبعته المشدودة إلى جيبيته الملوح الرطب ولم تتكلم ولكنها منحتة ابتسامة الدلال المألوفة رجعت تردد سؤاله « إلى أين ؟ » وهي تجهل ماعسى أن يقع لها .

وزايلها غضبها على سارودين ولم تكذب تفهم لماذا قصبت إليه فقد كان يخيّل أن من المستحيل أن تحيا بدونه أو أن تحتل حزنها وحدها . أما الآن

فكأنما اختفى وغاب ولم يعد له وجود في حياتها ومات الماضي ولم يبق إلا ما يعينها وحدها وهذا ما يسعها أن تبت فيه دون أن ترجع في ذلك إلى أحد. وكان ذهنها يفكر بسرعة المموم غير أن خواطرها كانت على هذا واضحة جليلة . ولكن أهول ما كان يهولها هو أن ليـدا الجميلة المزهوة ستذهب وتخاف وراءها مخلوقاً شقيماً مضطهداً باطخا ضعيف الحول .. كلاً! لا بد أن تبقى النفس المزهوة والوجه الجميل .. وإذن لا بد لها أن تمضى .. إلى حيث لا تعلق بها الأوحال .

ولما تقرر هذا في ذهنها أحست كأنما أحاط بها فراغ وغابت الحياة والشمس والناس وصارت مستفردة بينهم كل الاستفراد . . ألا لا مفر ! لا معدى لها عن الموت ! يجب أن تغرق نفسها . وما عمت أن استولت عليها هذه النية واستغرقتها هاته الفكرة فبدأ لها كأن سوراً من الحجر التفت بها وحجبها عن كل ما كان وكل ما عسى أن يكون .

وقالت : « ما أبسط هذا في الحقيقة ! » .

ودارت بعينها ولم تر شيئاً ..

وصارت خطاها أسرع . وأولا سعة ثوبها لجرت فقد كانت تحس أن بطشها لا يطاق .

« هنا بيت وههنا آخر له نوافذ خضراء ثم هنالك الفضاء ! » .

والنهر والجسر ثم ما سيحدث . . فلم تتمثل لها صورة واضحة لهذا ، فكأن ثم سحابة أو ضباباً يحجب كل شيء . غير أن هذه الحالة النفسية لم تدم إلا ريثما بلغت الجسر . ولما حنت على سور الجسر ترمق الماء المربد زياتها ثقها بنفسها وتملكها الخوف وإرادة الحياة وعادتها إحساسها بكل شيء حتى وسكت سمعها الأصوات وتناغى الأطيار ورأى نور الشمس والأزاهير في الرياض والجرو الأبيض يتطاع إليها تطاع من يعدها سيدته بلا مرأى وكان مقعياً قبالتها يرفع لها كفه ويضرب الأرض بذياه .

فرنت إليه ليذا واشتافت أن تضمه على ساعديها إلى ثدييها واغرورت
عينها وغلبها الأسى والأسف على حياتها الجميلة التي درست
فحالت إلى السور وهي تكاد تفقد رشدها واتكأت على حافته المتهبة فسقط
لسرعة انحنائها أحد قفازيها في الماء فجعلت ترقب في فزع صامت هويه
الساكن إلى صفحة الماء واندياح الدوائر فيها فرأت قفازها الأصفر يحلوا لك
شيئا فشيئا ويملاه الماء وينقلب كأنما لواه ألم النزع ثم يهوى إلى اغوار النهر
الخصراء فحددت ليذا نظرها لترى غوصه ولكن النقطة الصفراء لم تزل
تتضائل حتى غابت ولم تعد تأخذ عينها إلا صفحة الماء المصقولة .

وأنها كذلك وإذا بصوت انثى على كذب منها يسألها : « كيف حدث
هذا أيتها السيدة ؟ » .

ففزعت متراجعة ورأت فلاحه مفرطحة الأنف ترمقها مستطلعة بعين عطوف
ومع أن هذا العطف لم يكن المقصود به إلا الففاز المفقود إلا أن ليذا شعرت
كأنما هذه الفلاحه النسمينة الطيبة القلب تعرف كل شيء وترثي لها فهمت أن
تقص عايتها خبرها وأن ترفه بذلك عن قلبها غير أنها نحت هذه الفكرة
وطاردتها مستخفة إياها . واحمر وجهها وتمتمت « لاشيء ! » وهي تتطرح
متراجعة عن الجسر .

« هنا ! مستحيل ، لو أغرقت نفسي هنا لأنقذوني » .

وسارت مسافة أخرى على شاطئ النهر متوخية طريقا ممهدا إلى اليسار
بين النهر والحقول وعلى جانبيه الأشواك والأزهار وأشجار الصفصاف منحية إلى
النهر وكان الشاطئ المنحدر مكسواً بالخصرة ومغموراً بنور الشمس والنباتات
ترنح نواراتها اللزجة فوق الأكلاء والأشواك التي علقت بأهداب ليذا ولمست
وهي سائرة نباتا هائجا وانتثرت فوقها حباته البيضاء .

وكانت ليذا تدفع نفسها دفعاً وتغالب القوة التي تحاول أن تثنيها
وتقول وتكرر « لا بد من ذلك ! لا بد منه ! » وهي تجر نفسها وكأن

رجليها أنبت ما بينهما لما نأت عن الجسر ودنت من الموضع التي اعتزمت أن تنهى إليه .

ولما بلغت الماء الأسود البارد في ظل الاغصان المتهدة والتيار يندفع ويزخر عند زاوية نائمة من الشاطئ أدركت لأول مرة كيف شوقها إلى الحياة وفزعها من الموت ولكنه لم يكن لها مفر من الموت إذ كان البقاء مستحيلا . فرمت بقفازها الثاني ومظلتها دون أن تنظر حولها وعاجت عن الطريق ومالت إلى النهر بين الحشائش ومر بذهنها في تلك الهنية ألف خاطر وتنبه لإيمانها من أعماق روحها حيث ظل راقدًا فجعلت تردد هذه الصلاة : « رب انقذني ! رب ساعدني » . وما أتمتها حتى ذكرت من حيث لا تحتسب قطعة من انشودة كانت تدرسها في الأيام الأخيرة فارتد ذهنها إلى سارودين ثم بدا لها وجه أمها وزاد حبها لها في تلك الآونة . فلم يشأ ذلك بل زاد عزمها مضاء فاندفعت تعدو إلى النهر ولم تكن ليذا تدرك حتى الساعة أن أمها وسائر من يحبونها إنما يحبون منها ذلك الذي يودون أن تكونه لا ليذا على حقيقتها وبكل عيوبها ونقائصها وشهواتها . فالآن وقد حادت عن الطريق الذي لا يعدون غيره مستقيما فإن هؤلاء الوامقين وأمها على وجه أخص سيقسون عليها بقدر حبهام لها .

ثم اختلط كل شيء في نظرها اختلاط الحلم في مخيلة المحموم وتنازعها الخوف والشوق إلى الحياة والإحساس بالقدر المحتوم والإنكار والافتناع بأن الأمر قد قضى والأمل واليأس والشعور المفزع بأنها هاهنا ستموت ثم مثلت لعينها صورة رجل شبيه بأخيها يشب بين الأكلاء إليها . « لم يكن يسعك أن تفعل أسخف من هذا ! » .

هكذا قال سانين وهو يلهث .

ومن عجيب الاتفاق أن ليذا كانت قد انقلبت إلى نفس الموضع الذي أمكنت فيه سارودين منها لأول مرة وهو موضع تحجبه الأشجار الضخمة عن ضوء القمر فرآها سانين وفطن إلى ما عقدت عليه نيتها فخطر

له بادىء الرأى أن يدعها وشأنها ولكن حركاتها العصبية المضطربة حركت عطفه فتخطى مقاعد الخديقة وحواجزها وأسرع إلى إنقاذها .

فكان لصوت أخيعها تأثير مفزع فى نفسها فتداعى أعصابها بعد أن شلدا الصراع الباطن ودارت بها الأرض وصار كل شىء يسبح أمام عينيها ولم تعد تدرى أنى الماء هى أم على الشاطئ . وكان سائين قد أمسك بها ولما يكد وتراجع عن الماء وقد سرته قوته ومهارته وقال : « هذا أنت ! » وأجلسها إلى سياج الخديقة وأدار عينه فيما حوله وهو يقول لنفسه « ماذا أصنع لها ؟ » .

وثابت إلى ليذا روحها فى هذه اللحظة وشرعت تبكى بكاء ألياً وهى مصفرة مضطربة وتقول وهى تعول كالطفل : « يا إلهى ! يا إلهى ! » : فقال سائين ناهراً فى رفق : « سخافة مطبقة ! » .

ولم تسمعه ليذا ولكنها لما أخذ يتحرك تعلقت بذراعه وزاد عويلها ثم قالت لنفسها خائفة :

« آه ! ماذا أنا صانعة ؟ لا ينبغى لى أن أبكى . يجب أن أضحك وإلا فطن إلى الأمر » . فسأها سائين وربت كتفها بخنان :

« مالك مضطربة ؟ » . فرفعت إليه طرفها تحت القبة وبها مثل حياء الطفل وكفت عن البكاء . فقال سائين : « إنى أعرف كل شىء . القصة كلها . أعرفها من زمن مليد » .

وكانت ليذا تعلم أن أناساً كثيرين قد فطنوا إلى نوع علاقاتها مع سارودين ولكنها أحست لما قال سائين هذا كأنما لطمها على وجهها فتقبض جسمها اللين ونظارت إليه بعين غاض منها اللمع . فقال سائين وهو يضحك : « ماذا دهاك الآن ؟ إنك تنظرين إلى كأتى دست على قدمك » . ثم أمسك بكتفها المستديرتين المصقولتين فارتجفتا للمستته وردها فى رفق إلى مجلسها الأول وهى مدعنة طائعة وقال : « تعالى ! ماذا يحزنك ؟ أهو

أنى أعلم كل شىء ؟ أم تحسبن خطيئتك مع سارودين من الفظاعة بحيث تخافين أن تقرى بها ؟ الحق أنى لا أفهمك ياليدا — إذا كان سارودين لا يريد أن يتزوجك — حسن . . هذا شىء يجب أن تحمدى الله عليه . لقد عرفت الآن — ولا بد أنك كنت تعرفين من قبل — أى حقير دنىء هو على الرغم من قسامته ومن صلاحه لمواقف العشق . إن كل ماله هو الوسامة وأحسبك الآن أصبحت منها كفايتك .

فقالت ولسانها يتعثر : « لقد أصاب هو كفايته منى . . لا أنا منه ! آه ! ربما كنت قد أصبحت كفايتى ! آه ! يا إلهى ماذا أصنع ؟ » فقال سانين : « والآن أنت حبلى . . . »

فأنغمضت ليدا عينها وأطرقت . فمضى سانين فى كلامه مترققاً :

« لا شك أن هذا أمر سيء . فالوضع — أولاً — عمل ثقيل مؤلم والناس ثانياً وهو المهم — قد يضطهدونك . على أنك ياليدوتشكا لم تسيء إلى أحد واو أنك جئت إلى هذه الدنيا بعشرة أطفال لما أضرب هذا بأحد سواك . »

وأمسك سانين ليفكر وطوى ذراعيه على صدره وجعل يعض أطراف شاربه وقال : « وفى وسعنى أن أشير عليك بما ينبغى لك أن تصنعى ولكنك أضعف وأسخف من أن تعملى برأى . إنك أجبن من ذلك ! ومهما يكن من الأمر فالمسألة لا تستحق أن تلتجئى من جرائها . انظرى إلى الشمس المشرقة وإلى النهر المتحدر الساكن وادكرى أنك إذا مت عرف كل إنسان ماذا أماتك فأى خير لك فى هذا ؟ إنك لا تريد الموت من أجل أنك حبلى بل من أجل أنك تخافين ما سيقوله الناس . فشر ما فى مصيبتك ليس فى المصيبة نفسها بل فى أنك تضعينها بينك وبين حياتك التى ترين أنها يجب أن تنتهى . ولكن هذا فى الحقيقة لن يغير من الحياة شيئاً . إنك لا تخافين البعداء بل القريبين منك ولا سيما من يحبونك ويعدون بذلك نفسك إحدى الكبر لأن البذل كان فى غابة أو مرج لا فى سرير شرعى . وهؤلاء لن

يتلكؤا فى عقابك على زلتك فأى خير فى هؤلاء لك ؟ إنهم قوم أغبياء غلاظ القلوب فارغو الرعوس . ولماذا تموتين من أجل قوم أغبياء غلاظ القلوب فارغى الرعوس ؟ » .

فسأله بصوت أجش : « ولكن ماذا ينبغى أن أصنع ؟ خبرنى ماذا . . . ماذا . . ؟ » .

فقال سانين : « أمامك طريقان . أن تتخلصى من هذا الطفل الذى لا يريدك أحد والذى لا يفيدك ميلاده إلا المتاعب كما لا بد أن تعرفى . فأعربت عينا ليذا عن الاستفطاع وعاد سانين إلى الكلام فقال : « من الظلم الشديد أن يقتل المرء مخلوقاً يقدر لذة الحياة ويعرف هول الموت . ولكن جرتومة . . . كتاة جامده من اللحم والدم . . . » .

فوجدت ليذا إحساساً عجيباً . وشعرت فى أول الأمر بالعار حتى لكأنها نضت عنها ثيابها جميعاً وراحت أصابع وحشية تجسها وتلمسها . ولم تجرؤ أن تنظر إلى أخيها وخشيت أن يميتهما العار كليهما . ولكن عيى سانين السوداوين كانتا ساكتتين وكان صوته متزناً هادئاً كأنما يحدثها عن أمور مألوذة . وهذه القوة الهائلة وعمق الصواب هما اللذان أزالا خجل ليذا وخوفها غير أنها ما لبثت أن غلبها اليأس فأمسكت بجبينها وجعلت أطراف ثوبها الرقيق تخفق كجناحى الطائر الفزع وقالت :

« لا أستطيع . كلا . لا أستطيع ! أحسبك مصيباً ولكن لا أستطيع ! إن هذا وظيع ! » .

فقال سانين وهو يركع وينحى كفيها فى رفق عن وجهها :

« حسن حسن . إذا لم تستطعى هذا فلا بد لنا أن نحتال على إخفائه على نحو ما . وسأرى لى رأياً فى حمل سارودين على الخروج من البادية : وأنت — حسن — ستزوجين نوفيكونوف وتسعدين . لى أعرف أنك كنت حقيقة أن تقبلى نوفيكونوف لولا أن لاقيت هذا الضابط اللعج ! لى على يقين من هذا » .

فلما ذكر اسم نوفيكيوف بدا لليدا النور في الظلمة وخيل إليها لحظة أن من السهل إصلاح ما فسد لأن سارودين أشقاها وهي مقتنعة أن نوفيكيوف لم يكن ليصنع بها ما صنع ذاك . ولم يبق عايتها إلا أن تنهض لتوتها وأن تعود وأن تقول كلمة أو اثنتين لتعود الحياة وضيئة الجمال . وستحيا مرة أخرى وتحب ثانية .

ولكن حياتها في هذه المرة ستكون خيراً وحجها أعمق وأظهر بيد أن هذا الحلم لم يطل فذكرت أن هذا مستحيل وأن الحب السخيف الحقيق قد لوثها وهوى بها .

وخطرت ببالها كلمة خشنة لم تكن تدرى أنها تعرفها ولم تنطق بها قط فنعنت بها نفسها فكأنما لكرمها لا كم على أذنيها وصاحت :
« ويحى . هل صرت حقاً . . ؟ نعم نعم لا شك » .
ثم تمتعت وقد أخرجها رنين صوتها : « ماذا قات ؟ »
فسألها سانين : « حسن علام عولت ؟ » .

ونظر إلى شعرها الجميل المتهدل على جيدها الناصع المتألق في ضوء الشمس النافذ إليه من خلال الأوراق . وتملكه الخوف من أن يعجز عن إقناعها وأشفق أن تغيب في فراغ الموت المظلم هذه المرأة الجميلة التي خلقت لتنشر السرور والغبطة وكانت ليدا صامته تعالج أن تصرع رغبتها في الحياة وكانت هذه الرغبة قد طغت بها على رغم إرادتها واستولت على كيائها المرتعد . وحسبت أن من العار بعد الذي جرى لا أن تعيش فقط بل أن ترغب في الحياة . غير أن جسمها القوى المملوء حيوية رفض هذه الفكرة الممسوخة كأنها السم الزعاف .

وسألها سانين : « مالك صامته ! » .

قالت : لأن هذا مستحيل . إنه يكون دناءة ! إلى .. » .

فقال سانين وقد نفذ صبره : « لا تنطقى بهذه السخافة ! » .

فرفعت ليدا طرفها إليه مرة أخرى وفي عينيها المغرورقتين بارقة أمل .
وكسر سانين غضبنا صغيراً عضه ثم ألقى به وقال :

« دناءة ! إن ألفاظى تذهلك . ولكن لماذا ؟ إن المسألة لا يسعنى لا أنا ولا أنت أن نجيب عنها جواباً صحيحاً . جريمة ؟ ما هى الجريمة ؟ إذا تعرضت حياة الأم للخطر وهى تضع طفلاً وأميت هذا الطفل الحى لتنجو أمه لم يعد الناس هذا العمل جريمة بل ضرورة منحوسة ! فإما أن نقضى على شئ علم يوجد بعد فهذا جرم شنيع ! نعم جرم شنيع حتى ولو كانت حياة الأم بل سعادتها وهى أكبر من حياتها رهن بذلك ! لماذا يكون هذا هكذا ؟ لا يدري أحد ! ولكن كل امرئ يذهب إلى هذا ويصبح مرحى ! » وضعك سانين ساخراً » ويحكم معاشر الرجال يخاقون لأنفسهم خيالات وأشباهاً وأوهاماً هم أول من يروح فريستها . على أنهم يقولون إن الإنسان أشرف الكائنات وأعمالها وأنه تاج الخليقة وملكها وأراه ماكلاً لم يحكم قط . ملكاً معذباً يفزعه ظله ! » .

وأمسك سانين هنية ثم عاد يتكلم :

« على أن هذا ليس بسبيلنا الساعة . تقولين إن هذا يكون عملاً دينياً . لا أدري . لعل الأمر كما تقولين . وأحسب أن لو سمع نوفيكيوف بما أنت فيه لأمضه جداً وأحزنه . وربما قتل نفسه على أنه مع ذلك سيحبك كما أحبك من قبل . ولئن قتل نفسه ليكون هو المعلوم . أما إذا كان لبيباً ذكياً فأخلق به أن لا يكثرث لكونك (معدرة من هذه العبارات) ضاجعت سواه فإن جسمك لم يفقد شيئاً بذلك — لا ولا روحك . وياعجباً له ! أما يمكن أن يتزوج أرملة مثلاً ؟ إذن فليس هذا بالذى يمنعه أن يتزوجك وإنما تمنعه — إذا منعه — آراؤه المشوشة المختلطة التى حشى بها رأسه وأما أنت باليدا فلو أنه كان ممكناً أن لا يجب الآدمى إلا مرة فى حياته كلها لكانت معاودة الحب

عبثاً لا يسر ولكن هذا ليس هكذا . والحب متعة مشتهية دائماً وستألفين
نوفيكوف وتخبينه فإذا لم تفعل رحلنا معاً يا ليدو تشكا ، إن المرء يستطيع أن
يعيش حيثما اتفق أليس كذلك ؟ »

فتنهدت ليدا وحاولت أن تغلب ترددها وتمتعت :

« ربما . . . صلحت الأمور . . . نوفيكوف . . . طيب رقيق القلب . . .
وجميل أيضاً أليس كذلك ؟ نعم . . . لا . . . لا أدري ماذا أقول . . . »

فقال سانين « ولو كنت أغرقت نفسك . . . ماذا إذن ؟ ان قوى الخير والنشر
ما كانت لتكسب أو تخسر بذلك وكل ما كان يحدث هو إن جثتك المشوهة
الممسوخة الملطخة بالأوحال كانت تطفو وتجر إلى الأرض وتدفن . هذا كل
ما كان يحدث . »

فتصورت ليدا الماء المربد والأوحال والأعشاب والفقايع سابحة حولها
وقالت واصفرت : كلا . كلا . اهدأ . اهون من ذلك ان احتمل كل عار . . .
ونوفيكوف . . . كل شيء . . . « أى شيء سوى هذا » .

فقال سانين ضاحكاً : « انظري كيف تفزعين » .
فابتسمت ليدا بين دموعها وعزتها ابتسامتها وقالت بقوة :
« مهما يكن ما يحدث فإنني مصممة على الحياة » .

فصاح سانين ووثب :

« حسن لأنه ليس أفضح من فكرة الموت ومادام المرء يستطيع أن يحتمل
العبء وأن لا يفقد إحساسه بمناظر الحياة واصواتها فلا يحى . ألسنت على صواب؟
والان ناوليني يدك . »

فمدت إليه ليدا يدها شاكرة

وقال سانين : « هذا حسن . . . ما أحلى يدك وأجملها » .

فابتسمت ليدا ولم تقل شيئاً .

ولم يذهب كلام سانين سدى فقد كانت ليدا قوية الحيوية زخارها وكانت

الأزمة التي مرت بها قد وترت أعصابها إلى أقصى حد فإو زاد الضغط لتمزقت ولكن الضغط لم يزد وعاد كيائها يتجاوب بالرغبة في الحياة زاحرة قوية . فانظرت فوقها وحولها وهي ثملة وأحست السرور تنبض به كل جارجة وكل شيء أحسته في ضوء الشمس وفي المروج الخضراء وفي النهر المأثلق وفي وجه أخيها الساكن المبتسم وفي نفسها فكانما كانت ترى ذلك وتسمعه لأول مرة وصاح بها صوت طروب من أعماق صدرها « الحياة . الحياة » .

وقال سائين : « حسن سأكون عونك في متاعبك وظهيرك وساعدك في معاركك . والآن لما كنت فتانة الجبال فهاتي قبالة » .

فابتسمت ليلدا ابتسامة عرائس الغاب ولف سائين ذراعيه حول خصرها وضمها فاهتز جسمها الحار اللين للمسته وهصرها وعانقها عناقا حاراً وشاع في نفسها السرور وحنّت إلى الحياة الرحيبة الفوية ولم تك أكثر ثلما تصنع فطوقة عنق أخيها بكاء ذراعيها في بطء وزمت شفقيها لتتأق قلبه وعيناها مفتوحتان كمنضتين .

وأحست سعادة لاتدانيها سعادة بين ذراعي سائين ونسيت في هذه اللحظة من يقبها أهواؤها أو أجنبي منها مثل الزهرة تدثها الشمس ولا تسأل من أين كل هذه الحرارة .

ثم قالت معتبطة : « ماذا جرى آه ! نعم ! لقد أردت أن اغرق نفسي .. ما أحمقني ! ولماذا ؟ آوه إن هذا جميل ! مات أخرى وأخرى . والآن سأقبلك أنا : ما أحلى هذا ! ولن أكثر ثلما يحدث مادته أحياء » .

فقال سائين وأطلقها : « هذا أنت فانظري إن كل شيء حسن في الدنيا حسن ولا ينبغي لنا أن نحياه قبيحاً ونمسخه » .

فابتسمت ليلدا ابتسامه المفكر ورثبت شعرها وسوته وناولها سائين المظلة والقفاز فأدهشها في أول الأمر أن قفازها الثاني لا وجود له ولكنها لم تائب أن ذكرت السبب وأضحكها اهتمامها العظيم بذلك الحادث لما وقع وقالت : « حسن حسن لقد مضى هذا وانتفضى » .

وسارت مع أخيها على شاطئ النهر وأرسلت الشمس أشعتها القوية على صدرها الناضج المكتنز .

٢٠

لما فتحت نوفيكيوف الباب بيده لسانين لم تكن لمحته تدل على الارتياح إلى هذه الزيارة لأن كل ما يذكره ليبدأ وحامه المنتسخ كان يحرك آلامه .
ولاحظ سانين هذا ودخل الغرفة يبتسم وكان كل ما فيها مبعثر على غير نظام كأنما ثارت به زوبعة وكانت الأرض مغطاة بالأوراق والقش وغير ذلك . والسرير والكراسي عليها الكتب والثياب وأدوات الجراحة وحقيقية . فسأله سانين مستغربا : « أمسافر أنت ؟ وإلى أين ؟ » .
فتحاشى نوفيكيوف نظرة سانين ومضى في جمع أشياءه وهو مرتبك مغبط لارتبأكه ثم قال أخيراً :

« نعم . لا بد لي من مغادرة هذا المكان . فقد أمرت بذلك رسمياً » .
فنظر إليه سانين ثم إلى الحقيقية . وبعد نظرة أخرى انبسطت أسارير وجهه عن ابتسامة وكان نوفيكيوف صامتا يجثم على صدره إحساسه بالوحدة وحزنه العميق وشرع - وهو غارق في خواطره - يلف حذاءين مع بعض الأنايب الزجاجية . فقال سانين : « إذا كنت تحزم أمتعتك على هذه الطريقة فستصل إلى حيث تقصد بدون الأنايب أو بدون الحذاءين » .
فأرسلت عين نوفيكيوف المغروقة ردها وقالت : « آه ! دعني . أما ترى كيف حزني وألمى ؟ » .

ففهم سانين هذا الرد الصامت وسكت :
وكان الأصيل قد جاء وصارت السماء صافية كالبلور ثم قال سانين :
« أظن أن الأرشد لك والأولى بك بدلا أن تذهب إلى حيث لا يدري إلا الشيطان - أن تتزوج ليبدأ » .

فاستدار نوفيكيوف وهو يرجف وقال : « لا يسعني إلا أن أطلب إليك أن تكف عن هذا المزاح السخيف » .

قال ذلك بصوت عال شديد فرن صدها وتجاوبت به الحديقة الحاملة
فسأله سانين : « لماذا هذا الغضب ؟ » .

فأجاب نوفيكونوف بصوت مخنوق : « اسمع ؟ » .
وكان في عينه وعلى وجهه من الغضب ما جعل سانين ينكره ولا يعرفه
على أنه مع ذلك سأله ضاحكا :
« أتريد أن تقول إنه لا يكون من حسن حظك أن تتزوج ليدا ؟ » .
فصاح به نوفيكونوف « اخرس : » .

وتطرح إليه وفي يده حذاء قديم يلوح به فوق رأس سانين . فقال
سانين بعنف وهو يتراجع : « تمهل ! لا تغضب أبخون أنت ؟ » .
فرمى نوفيكونوف الحذاء ساخطاً وأسرع أنفاسه وعاد سانين يتكلم فقال :
« لقد هممت فعلا بهذا الحذاء أن .. »

وأمسك وهز رأسه ورثى لصديقي وإن كان قد استخف سلوكه هذا
فقال نوفيكونوف وهو مرتباك : « إن هذا خطأك »
نم شاعت في نفسه الثقة بسانين والاطمئنان إلى قوته وسكونه وكان هو
كالتلميذ الصغير يود اوقال بشجوه لخل موافق وجمال الدمع في عينيه وقال
وهو يغالب عواطفه : « لو أنك عرفت كيف يتنمطر قلبي ؟ ... » . فقال سانين
بعطف :

« يا صديقي العزيز إنني أعرف كل شيء » فأجابه نوفيكونوف وجلس إلى
جانبه « كلا : إنك لا تستطيع أن تعرف كل شيء » .
وأحس أنه ما من أحد به مثل حزنه وكده فقال سانين :
« نعم نعم أعرف . واقسم على ذلك . وإذا وعدت أن لا تحمل على مرة
أخرى بخدائك التديم هذا أثبت لك ما أقول . فهل تعدني ؟ » . أجاب « نعم
سأحني يا فولودكا ! »

وسمى سانين أول أسائه وهو ما لم يفعله من قبل فتأثر سانين وزادت
رغبته مساعدة صديقه فقال ووضع يده على ركة نوفيكونوف :

« إذن فاسمع ولنكن صريحين . إنك مسافر لأن ليدا رفضت أن تزوجك ولأنك لما كنا عند سارودين طننت أنها هي التي جاءت إليه سرّاً » .
فأطرق نوفيكوف ولم يسمعه الكلام لفرط حزنه وكأنا نكأ سائين جرحاً وجيحاً ولا حظ سائين اضطراب صاحبه فقال لنفسه « يالك من أبله طيب القلب : » ثم استأنف الكلام :

« أما من حيث العلاقات بين ليدا وسارودين فلا أستطيع أن أجزم بشيء لأنى لا أعرف شيئاً ولكنى لا أعتقد .. » .

ولم يتم الجملة لما رآه من اسوداد وجه صاحبه ثم عاد فقال :
« إن علاقتهما من حداثة العهد بحيث لا يمكن أن يكون قد حدث شيء خطير لاسيما إذا اعتبرنا أخلاق ليدا . وأنت بالضرورة تعرف كيف أخلاق ليدا » .

فثلت لعين نوفيكوف صورة ليدا كما عرفها وأحبها - ليدا المزهوة العالية الروح المؤتلفة العين وعليها من الجمال الناضج أكليل وضياء فأغمض عينيه واستراح إلى كلام سائين الذى عاد فقال :

« وهبهما تعابلاً قليلاً فقد مضى هذا وانقضى الآن . وعلى أنه ماذا يهلك إذا كانت فتاة شابة مبنحة الخيال مثل ليدا قد تسلت قليلاً ؟ أحسبك بلا جهد كبير تستطيع أن تذكر على الأقل اثنتى عشرة حادثة خلعت فيها العذار وفعلت ما هو أخطر من هذا » .

فنظر نوفيكوف إلى سائين نظرة الواثق وخاف أن يتكلم لئلا تنجو بارقة الأمل الوائية الباقية ثم تمتم :

« إنك تعرف أنى إذاً .. » : ووقف وخانته الألفاظ وخنقته العبرات فسأله سائين بصوت عال والتمعت عينه :

« إذاً ماذا ؟ إنى أستطيع أن أقول لك هذا . وهو أنه ليس بين ليدا وسارودين ولم يكن بينهما شيء » .

فنظر نوفيكيوف إليه مذهولاً وشرع يتكلم : « أنا . لقد ظننت ... » .
وأحسن أنه لا يسعه أن يصدق سائين . فقال سائين بحدة « لقد ظننت
سخافات كثيرة ! وكان ينبغي أن تكون أعرف بليدا . أى حب هذا مع
كل ذلك التردد ؟ » .

فطار نوفيكيوف فرحاً ودفع يده إلى سائين . ولكن وجه سائين تصلب
وهو يرصد تأثير كلماته في نفس صديقه .

وبدا على نوفيكيوف السرور الواضح والارتياح البين إلى كون المرأة
التي يشبهها نقية طاهرة ونطقت عيناه الحزینتان الصريحتان بالغيرة الحيوانية .
فنهض سائين وقال بصوت مهدد :

« أو هو . إذن فأنى أقول لك : إن ليدا لم تجيب سارودين فقط بل كانت
لها به علاقات غير شرعية وهى الآن حبلى » .

فسمكت الغرفة سكون الموت وابتسم نوفيكيوف ابتسامة مريضة غريبة
وفرك كفيه وخرجت من شفتيه المرتجفتين صرخة ضعيفة . ودل تقبض
ركنى فمه على الغضب المكتوم فسأله سائين :
« لماذا لا تتكلم ؟ » .

فرفع نوفيكيوف يمينه ولكنه جانب عين صاحبه وكان وجهه لا يزال
تشوّه هذه الابتسامة . فقال سائين بصوت منخفض كمن يحدث نفسه :
« لقد عانت ليدا تجربة هائلة . ولولا أنى أدركتها مصادفة لما كانت
الساعة حية . ولعادت الفتاة الجميلة القوية جثة ممسوخة غارقة بين أوحال
النهر تأكل منها الحشرات . وليس المهم مسألة موتها فإننا جميعاً سموت يوماً ما
ولكن ما أوجع أن يفكر المرء فى أن الغبطة والوضاعة التى تمنحهما شخصيتها
للغير يذهبان بذهابها . نعم إن ليدا ليست منقطعة النظير فى الدنيا ولكن ونحن .
لو نخلت الدنيا من مثل هذا الجمال لعادات مظلمة كالقبر . أما أنا فأنى مستعد
أن أرتكب جريمة القتل إذا رأيت فتاة مسكينة تتقوض حياتها بهذه الطريقة
السخيفة . وليس يعيننى على الإطلاق أن تتزوج ليدا أو أن تذهب إلى
(م ١٢ - ابن الطبيعة)

الشيطان ولكنه لا يسعى إلا أن أقول لك أنك مغفل أبله ! ولو انه كانت في رأسك فكرة صحيحة واحدة أكنت تعنى نفسك وسواك من أجل أن امرأة حرة في الاختيار قد أحبت رجلا ليس بأهل لها وأطاعت غريزتها الجنسية واستوفت تمام نضوجها ؟ ولست فاعلم بالأبلة الوحيد . فإن في الدنيا ملايين مثلك يحيلون الحياة سجنًا مزويًا عن ضوء الشمس وحرارتها ! وكم من مرة أطلقت فيها العنان لشهوتك برائحة مومس تشاطرك نسوئك ؟ وأما ليذا فما دفعها إلا للعاطفة وإلا شعر الشباب والقوة والجمال . فبأى حق تنفر منها أنت يامن تدعو نفسك رجلا رشيداً ذكياً ؟ ما شأنك بماضيها ؟ أهى أقل جمالاً ؟ أم أقل صلاحاً لأن تحب وأن تحب ؟ أم المسألة أنك كنت تريد أن تكون أول من ينالها ؟ تكلم ! » .

فقال نوفيكوف وشفته تترجفان :

« إنك تعلم حق العالم أن هذا ليس كذلك » .

فصاح سانين : « نعم هو كذلك . وإلا فما السبب من فضلك ؟ » .
فصمت نوفيكوف واسود كل شيء في نفسه ولكن خاطر العفو والتضحية طاف برأسه كما يومض شعاع النور في الظلمة .
وكان سانين يرقبه وكأنما قرأ ما يدور في ذهنه فقال بصوت مضبوط متزن : « أراك تفكر في التضحية بنفسك من أجلها . وكأنى أسمعك تقول لنفسك « سأهبط إلى دركها وأحميها من الرعاع » هذا ما تقول الآن لنفسك الفاضلة فيضمخ شأنك في عينيك كما تضخم الدودة تغتذى بالجنّة . ولكن هذا كله زور . وليس هو إلا أكذوبة ؟ إنك لست مطيفا لتضحية الذات . ولو أن ليذا متلا شوها الجدرى لكان من المحتمل أن تستطيع أن ترفع نفسك إلى مستوى هذه البطولة ولكنك كنت خائفاً بعد يومين اثنين أن تسمى حياتها العلقم وأن تنبذها أو تهملها أو تمطرها بالتأنيب كل ساعة . أما الآن فإنك تقف من نفسك موقف العبادة . نعم لقد استحال وجهك وصار من يراك خليقاً أن يقول « انظروا ! هذا قديس ! » ولكنك لم تفقد شيئاً كنت

تبغيه . إن أعضاء ليلدا ما زالت كما كانت ولم تزل إليها قوة العاطفة ولا أصابها جزر في حيويته البديعة . ولكن من المرغوب فيه جدا أن يروح المرء يستمتع ويقطف أزاهير اللذات وهو يومهم نفسه أنه إنما يأتي عملا شريفا ! ! » .

فلما سمع نوفيكيوف هذا الكلام فارق عطفه على نفسه واستولى على روحه شعور أنبل وأشرف فقال معاتبا :

« إنك تجعلني أسوأ مما أنا في الواقع ، ليس ينقصني الشعور كما تظن . وما أنكر أن لي آراء معينة وأن بي بعض التحرج ولكني أحب ليدابتر وفنا ولو أني على يقين من أنها تحبني أكنت تظن أن يطول بي التردد من أجل أن ... » .

وخانه صوته . وهذا سائين فجأة واجتاز الغرفة ووقف أمام النافذة المفتوحة غارقا في بحر من الفكر وقال :

« إنها في هذه الساعة حزينة جدا لا يسمعها أن تفكر في الحب . وكيف أعرف هل تحبك أم لا تحبك ؟ ولكن يخيل لي أنك إذا ذهبت إليها وكنت بذهابك ثاني رجل لم يضرطها من أجل حبها القصير . . . على كل حال لا أستطيع أن أعلم ماذا عسى أن تقول ! » .

وكان نوفيكيوف حاسنا كأنه يحلم وأشعره الحزن والسرور نوعا من السعادة لطيفا كالضوء في السماء مساء .

وقال سائين : « لنذهب . إليها . ومهما يكن ما يحدث فإنه سيرها أن ترى وجه إنسان وسط هذه الوحوش المسيخة المنتقبة . إن بك يا صديقي بعض الغباء ولكن في غبائك شيئا يقتص سواك . تالله ما أغرب أن الدنيا كانت وما تزال تبني آمالها وسعادتها على مثل هذا الغباء ! تعال نذهب . » .

فابتسم نوفيكيوف وقال : « إني على أتم استعداد للذهاب إليها ، ولكن اتهم بأن تراني ؟ » .

فقال سائين ووضع يده على كتفي نوفيكيوف :

« لا تفكر في هذا . إذا كنت تريد أن تفعل خيراً أو صواباً فافعله ودع المستقبل يعني بنفسه » .

فقال نوفيكونوف بلهجة البت : « حسن فلنذهب » .

ولما صاروا في حرم الباب وقف وقال بلهجة التأكيد وعينه محملة في وجه سائين : « اسمع سأبذل أقصى وسعى لإسعادها . وقد يبدو لك هذا الكلام مبتدلاً ولكني لأعرف كيف أعرب عما في نفسي بما هو خير من هذا » .
فأجابه سائين بلهجة الودود : « لا يكريلك هذا يا صديقي . فإني فاهم ما تريد » .

(٢١)

كان الصيف وهاجا . والليل يسجوا إذا طلع القمر المنير ويعود الجو مثقلاً بشدى الرياض والحقول فتأنس النفوس وتجذ الروح والغبطة :
وكان الناس يكدحون نهارهم أو يشتغلون بالسياسة أو بالفنون وبالأكل والشراب والاستحمام والحديث حتى إذا فتر الحر وخفت وقده وسكنت الضوضاء وأخذ قرص القمر يطلع في الأفق وبطل على المروج والحقول ويريق على سطوح المنازل والحدائق ضوءه البارد خلصت أنفاس الناس واستأنفوا الحياة كأنما نفضوا عنهم ثوباً ثقيلاً وصارت الحياة في حيث تكون للشباب الغلبة أوسع وأكثر حرية فتتجاوب الحدائق بأصوات البلابل وتعمق الظلال وتعود العيون أشد تلماعاً والأصوات أعذب رقة ويبيت الجو مشرباً أنفاس الحب وطيبه .

وكان يورى وشافروف عظيمى الاهتمام بالسياسة وكانت قد تألفت جماعة التهذيب فطالع يورى كل الكتب الحديثة وراح يعتقد أنه وفق إلى العمل الصالح له . واهتدى إلى وسيلة يمحو بها كل شكوكه . ولكنه لم يكن يجد الحياة إلا عقيمة جافة لافتنة فيها على كثرة ما كان يقرأ وعلى الرغم من مشاغله جميعها ولم تكن الحياة تعود مشتهية إلا حين كانت الصحة والعافية يصفوان عليه، وإلا حين ينبه حواسه الحب . وكانت كل الفتيات سواء في

نظرة من قبل فانتقى واحدة منهم رآها جمعت مفاتن اترابها واستبدت دونهن بحسبها وروبقها .

وكانت طويلة القامة بارعة التكوين يعتدل رأسها الجميل على كتفها المصقولتين الناصعتين حديثها تغريد وغناؤها سحر . ولها في الشعر والموسيقى باع تستطيعها وتزهى بها ولكن حيويتها الدافقة لم يكن لها مظهر أقوى ولا صورة أتم من جهدا الجماني فكان يلجج بها الحنين إلى شيء تضمه إلى صدرها وإلى أن تضرب الأرض بقدمها وأن تضحك وتغنى وأن تتأمل ذوى الوجوه الصبيحة من الشبان وكانت ربما اشتاقت - في وقدة الظهيرة أو في الليلة القمرء - أن تخلع كل ما عليها من ثياب وأن تعدو على الحشائش وتقف بنفسها في النهر بحثاً عن تمن إلى اجتذابه واستهوائه إليها بأعذب نغمة وكان محضرها يحرك نفس يورى فيعود أفصح لساناً وأسرع نبضاً وأحضر خاطراً . وكان نهاره يفكر فيها ويحلم بها حتى إذا جاء الليل راح يبغيها وإن أبى أن يقر بذلك لنفسه . ولا ينفك يحلل إحساساته فتدوى على التعاقب كالنورة في الصقيع . وكلما سأل نفسه ماذا يجذبه إلى سينا كرسافينا أجاب « إنها الغريزة الجنسية لاشيء سواها » فيثير هذا التعليل أعمق الاحتقار لنفسه . على أنه كان بينهما تفاهم ضمنى فكأنهما مرآتان تنعكس في صقال كل منهما عواطف الآخر .

ولم تكن سينا تعنى بأن تحلل خواجلها بل كانت تستلذها وإن أقلقتها وكانت تكتمها ولا يبيحها أحداً وكرهها أنها لم تستطع أن تعلم ما ينطوى عليه لها صاحبها وكانت ربما خيل إليها أنه ليس بينهما شيء فتأسى لذلك كأنما افتقدت ثميناً على أنها لم تكن تكره أن نكون موضع احتفال غيره من الرجال وأكسبها اعتقادها أن يورى يحبها دالة جعلتها أفتن لسواه من المعجبين بها . وكان يسحرها وجود سائين كل السحر ويسببها منه كتفاه العريضتان وعيناه الساكنتان وشماله الهادئة المستقرة . ولما تنبت إلى عمق ما يتركه سائين من الوقع في نفسها اتهمت بضعف الإرادة إن لم يكن بالخفة

وقلة الحشمة . ولكنها على هذا ظلت تمنحه أعظم الالتفات والرعاية .
وفي نفس الليلة التي كانت فيها ليذا تجوز ذلك الامتحان القاسي التمت
سينا ويورى في المكتبة فاقترعا على تبادل التحية وانصرف كل منهما إلى
شأنه ومضت هي تنتقى الكتب واشتغل هو بمطالعة الصحف الواردة مع البريد
الأخير من بطرسبرج . على أنه اتفق أن زايلا المكان في وقت واحد فترافعا
في الطريق واجتازا معاً الشوارع الموحشة في ضوء القمر وكان كل شيء
ساكناً سكناً القبر ولم يكن السارى يسمع إلا صوت الحراس من حين
إلى حين وإلا نباح الكلاب عن بعد .

ولما بلغا الميدان رأيا نفرأ جلوساً يضحكون تحت الأشجار واستطاعا
في ضوء سيجارة تشعل أن يلححا شاربا جميلاً وورد على سمعهما صوت
يغنى « إن قلب الحسنة قلب كالريح » ولما اقتربا من بيت سينا جلسا على
مقعد وكان الظلام طائخاً وأمامهما الشارع العريض يضيئه القمر والكنيسة
على قمها صليب ملتصع كالنجم بادياً من فوق قم الصفصاف .
فقالت سينا وأشارت إلى الكنيسة : « أنظر ! ما أجمل هذا ! » .

فنظر يورى إلى كتفها البيضاء الحاسرة نظرة الإعجاب واشتاق أن
يضمها بين ذراعيه وأن يقبل شفيتها الحمراء وينال الناضجين وكأنما لم يكن
له بد من ذلك وكأنما كانت هي تتوقع ذلك وتشتهيها ولكنه ترك الفرصة
السائحة تمر وجعل يضحك من نفسه ساخراً في رفق فسألته ، « لماذا
تضحك ؟ »

فقال يورى وهو مضطرب وحاول أن يخفي انفعاله :
« لست أدري ! لا شيء » .

وصمت كلاهما وأنصتا إلى أصوات ضعيفة يحملها النسيم إليهما في الظلام
ثم باعته سينا بهذا السؤال : « ألم تحب قط ؟ » .

فأجابها يورى ببطء : « نعم » .

وقال لنفسه : « وهينى صارحتها فإذا يكون ؟ » .

ثم قال لها : « إني الآن أحب » . فسألته : « وتحب من ! » .
وأشفقت أن تسمع الجواب وإن كانت على يقين منه .
فأجابها يورى « أحبك أنت » .

وحاول عبثا أن يقول ذلك بلهجة المازح وهو مائل إليها يحدق في عينيها
المؤلمتين وكانتا ناطقتين بالدهشة والانتظار واشتاق يورى أن يعانقها ولكن
شجاعته خانته مرة أخرى فتظاهر بأنه يعالج بأن يكتم الثوباء .

فحدثت سيما نفسها « انه إنما يمزح » ونمذت في نفسها الحرارة هـ
وآلمها هذا التردد من يورى وأرادت أن ترد الدموع فقرضت أسنانها
ثم قالت بلهجة غريبة : « هذا كلام فارغ » .

ونهبضت فقال يورى بجهد غير طبيعي :

« إني مجاد جداً . فصدقيني فإني أحبك حبا طاغيا » .

فتناولت كتبها ولم تنبث وسألت نفسها : « لماذا يتكلم على هذا النحو ؟
لقد أريته أنى أعنى به فلما بدا له هذا أخذ يحتقرنى » .

فانحنى يورى ليلتقط كتابا سقطت وقالت له هى ببرود :

« لقد آن أن أذهب إلى البيت » .

فأحزن يورى أنها تريد العود إلى بيتها فى هذه اللحظة ولكن رأى أنه قام
بدوره على أحسن وجه وأنجح وأنه لم يصنع شيئا مبتذلا ثم قال بصوت
مؤثر : « إلى الملتقى » .

فمدت إليه يدها فأسرع فانحنى وثمها ففرغت سينا وانفجرت شفتاها عن
صبيحة خافتة وقالت : « ماذا تصنع ؟ » .

ولم تكده شفتاه تلمسان يدها الرخصة الصغيرة ولكن صدره مجاش
مع ذلك حتى لم يسمعه أكثر من الابتسام الخفيف وهى تسرع نائية عنه
ثم مالبت أن تسمع صوت بابها ولم تفارقه هذه الابتسامة السخيفة وهو
ماض إلى بيته وراح يحس القوة فى جسمه والغبطة فى قلبه .

(٢٢)

لما بلغ يورى غرفته الضيقة كالسجن وجد الحياة أبعث ما تكون على السامة وخيل إليه أن حادثته الغرامية التي وقعت له مبتدلة أتم الابتذال .

« لقد سرقت منها قبلة ! فأى نعمة ! وما أعظم بطولتى ! إن البطل يستهوى فى ضوء القمر فتاته الحسنة بالألفاظ الملتببة والقبل الذارية ! رباه ! أى سخافة ! إن المرء ليعود مغفلاً فارغاً جداً فى هذا البحر الصغير اللعين ! » .

وكان يورى وهو فى المدن يتصور أن الزيف هو المكان الصالح له حيث يستطيع أن يعايش القرويين ويشاطرهم كدهم تحت الشمس المحرقة . فلما أتيت له الفرصة بدا له أن حياة القرى لا تطاق وأحس الحاجة إلى منشط من المدن التى لا يتسع سواها لتواه ومواجهه وكان لا يفتأ يقول « ما أحلى جلبة المدن وضوضاءها ! وهزة الفصاحة المنبعثة عن قوة العاطفة ! » بيد أنه لم يابث أن كبح هذه الحماسة الصيبانية .

« وبعد فما معنى هذا ؟ أى شىء هذه السياسة والعلم ؟ أنها لكبيرة ما بقيت مُثلاً علياً نائمة ولكنها فى حياة كل فرد ليست إلا تجارة ككل شىء . سواها ! النضال ؟ جهود تبتان ؟ إن ظروف الحياة الحديثة تجعل هذا مستحيلاً . إني أعانى وأجاهد وأتخطى رقاب الموانع ! حسن وماذا إذا ؟ أين المنتهى ؟ إنه ليس فى حياتى على كل حال ! لقد أراد برومسيوس أن يهدى النار إلى الناس وأن يعلمهم قدحها ولقد فعل . ولك أن تعد هذا نصراً كبيراً وفتحاً مبيناً إذا شئت . ولكن ما رأى فينا نحن ؟ إن أقصى ما يسعنا هو أن نضيف عيدانا موقوفة إلى نار لم نوقدها ولن نكون نحن المحمديها ؟ » .

وخطر له أنه إذا كانت الأمور على غير ما ينبغى فذلك لأنه ليس من طراز برومسيوس ! وهو خاطر محزن فى ذاته كل ما أفاده هو أن أتاح له فرصة جديدة لتعذيب نفسه .

« أى برومسيوس أنا يا ترى ؟ إني لأزال أنظر إلى الأشياء من وجهة

شخصية أنانية . « أنا » دائماً « وأنا » في كل شيء . ألا أنى لضعيف مهين كغيرى من الناس الذين أحترقهم من أعماق قباي .

وساعته هذه المقارنة حتى اختلطت خواطره فجلس برهة يفكر في الموضوع ويعالج أن يلتبس مبرراً ما . فتعال وارتاح قليلا إلى هذا الخاطر : « كلا لست مثل سواي لأنى على الأقل أفكر في هذه الأمور وهو ما يحلم بأن يفعله أمثال رianzaنزيف ونوفيكوف وسائين . لأنهم لا يجرى ببالهم قط أن ينقدوا أنفسهم إذ كانوا أتم ما يكونون سعادة ورضى عن نفوسهم كخنازير « زردشتر » . إن الحياة كلها تتلخص في ذاتيتهم الذرية وتالله لقد اعدوني بهذه السطحية ! آه نعم ! إذ كان المرء بين الذئاب فليعوم مثلها . إن هذا طبيعى » .

وجعل يورى يقطع الغرفة جيئة وذهوبا فحدث — وذلك مألوف — أن تغير اتجاه خواطره بتغير المكان .

« حسن جداً . هذا كذلك . وعلى كل حال فالواجب النظر في أمور كثيرة . مثال ذلك ما هو موقفى حيال سينا كرسافينا ؟ وليس المهم هل أحبها حباً جما أم قليلا ، بل المسألة متعلقة بالنتيجة . ولنفرض أنى تزوجتها أو اتصلت بها أنصلا وثيقا . فهل ترانى أعود بذلك سعيداً ؟ إن الغدر بها جريمة وأنا أحبها . . . حسن إذاً فلانى أستطيع . . . الأرجح في الاحتمال أن ترزق منى أبناء . . . » وأخجله هذا الخاطر « وليس في هذا عيب سوى أنه قيد يفندنى حريتى . فأعود رب أسرة . تقول النعيم المنزلى ؟ كلا ليس هذا بسبيلى » .

« واحد . أثنان . ثلاثة . » — هكذا كان يعد وهو يحاول أن يتخطى مربعين ويضع قدمه على الثالث .

« لو استطعت أن أكون على يقين من أن لا تحمل أو من أن أحب أبناءنا إذا رزقناهم وأقف حيسانى لهم ! كلا ! ما اردل هذا وأصغره !

ورياز انتزيف سيكرن له أبناء يحبهم فأى فرق يكون بيننا ؟ حياة تضحية بالذات ؟ ويزعم الزاعم أن هذه هي الحياة الحقيقية ؟ نعم هي كذلك ولكن تضحية لمن ؟ وبأية طريقة ؟ ودع عنك الطريق الذى اختاره والغاية التى أرمى إليها وأرنى المثل الأعلى الذى يستحق أن أموت فى سبيله . كلا ! إن السبب ليس راجعاً إلى ضعفى بل مرده إلى أن الحياة نفسها ليست بأهل للتضحية أو الحماسة . وعلى هذا فلا معنى البتة لأن يعيش المرء » .

ولم يتفق له من قبل أن اقتنع بصحة هذه النتيجة مثل هذا الاقتناع وكان على متضدته مسدس كلما مر به وهو سائر أخذت عينه حديد المصقول . فتناولوه وفحصه بعناية وكان محشواً وصوب فوهته إلى صدغه وقال لنفسه : « هكذا ! بانج - ثم ينقضى الأمر ! فهل من الحكمة أو الغباء أن يقتل المرء نفسه ؟ هل الانتحار جبن ؟ إذاً فاحسبني جباناً ! .

وأحس للمس الحديد البارد لجبينه الملتهب لدة وفزعاً وسأل نفسه : « وماذا عن سينا ! دعنى من هذا فلن أفوز بها ولهذا فأنى أدع لغيرى هذه المتعة » .

وأيقظ خاطر سينا ذكريات سارة حاول أن ينفىها لأنها حمق وضعف وقال « لماذا أفعل ؟ » .

فكأنما كف قلبه عن الخفقان . ثم سد المسدس إلى جبينه فى احتفال وإصرار ورفع الزناد فجمدت دماؤه فى عروقه وطن فى أذنه شىء ومادت به الغرفة .

ولكن الرصاصة لم تنطلق فلم يسمع سوى صوت الزناد فهوت يده إلى جانبه وهو يكاد يغشى عليه وكانت كل شعرة ترتجف ورأسه يدور وشفتاه معصوبتان ويده من الاضطراب بحيث سقط المسدس على المنضدة . فقال وعادت إليه نفسه :

« ما أغرب شأنى » .

ومضى إلى المرأة ليرى فيها وجهه وقال :

« أجبان أنا إذن ؟ كلا ! لست به . لقد فعلتها كما ينبغي وماذا أصنع إذا كانت الرصاصة لم تشأ أن تنطلق ؟ » .

ورامقه خياله في المرأة وكان فيما يرى بادى الجلد . ثم أخذ يقنع نفسه بأنه لا يعلق أية أهمية بما حدث ولأجل هذا أخرج لسانه لخياله ! ونأى عن المرأة وقال بصوت عال : « إن القدر لم يشأ أن يتم ما أردت » .
و كأنما أنعشه صوته . ثم سأل نفسه « ترى هل أبصرني أحد » وتلفت مذعورا ولكن كل شيء كان ساكنا ولم يسمع حركة وراء الباب . فكأنما لا موجود سواه ولا معذب في هذه الوحدة غيره . وأطفأ المصباح فأذهله أن رأى أولا أشعة الفجر الحمراء ثم استلقى لينام وأحس في نومه شيئا هائلا ينحني فوقه ويخرج أنفاساً من النار .

(٢٣)

زحف الأصيل في رفق ولين وقد ترفق في حواشيه أرج الأزهار . وكان سانين جالساً إلى منضدة قريباً من النافذة يطالع — أو يحاول أن يطالع — في الضوء الكاكي قصة يحبها وهي وصف لمصرع أسقف هرم قضى نحبه وهو لا بس ثيابه اللا هوتية وفي يده صليب مرصع والبخور يعقد في الجو سحببات .
وكان الجو في الغرفة بارداً مثله خارجها ونسيم المساء العليل يمسح جسم سانين القوي ويملاً رثيه ويعبث بشعره فضى في قراءة القصة وكانت شفتاه تتحركان من حين إلى حين فلو رأيت له حسبته صبيهاً كبيراً ياتهم بحكاية من حكايات المخاطرة بين الهنود على أنه كان كلما أوغل في الكتاب تسود خواتره ويعجب للندى كيف حشيت كل هذه السخافة والناس وكثافتهم ووحشيتهم !
ولنفسه كيف بذهم وسبقهم !

وفتح الباب ودخل منه زائر فرفع سانين طرفه وقال وهو يطوى الكتاب :
« آها . هاءندك من الأخر » .

فافتقر ثغر نوفيكوف عن ابتسامة حزينة وصافح سانين وقال وهو يدنو

من النافذة : « لاشيء ! إن كل شيء كما كان »
 ولم يكن سائين يستطيع أن يرى من نوفيكونف إلا شخصه الطويل .
 فظل برهة طويلة ينظر إليه ولا ينكلم
 وكان سائين قد مضى قبل ذلك بصديقه إلى ليذا التي تغيرت وزايلها الزهو
 والشموخ فلم يثبثا بحرف عما هو أدنى إلى قلبيهما وأعلق بهما وكان سائين يعلم
 انهما سيشتقيان بعد أن يتصارحا وإنهما خايقان أن يكونا أشقى وأتعس اذا
 ظلا صامتين وأن ما يستسهله هو لا يسعهما الا بجهد جاهد فقال لنفسه « ليكن
 الأمر كذلك فإن الألم ينقّي الروح ويرفعها فأما الآن فقد سنحت الفرصة
 الملائمة لهما

وكان نوفيكونف واقفا قبل النافذة ينظر في صحت إلى مغرب الشمس وكان
 ينازعه الأمل على ما فقد والشوق إلى اللذة المنتظرة فصور لنفسه ليذا حزينة
 مطوقة بالعار فلو آتته الشجاعة لرغم أمامها الساعة ونفث بلمّاته الحرارة في يديها
 الباردتين وبجبه الضخم الغفور حياة جديدة في عروقها ولكن أنى له بالقوة
 والقدرة على المضى إليها ؟

وكان سائين يدرك ذلك فنهض في بطاء وقال ، « إن ليذا في الحديقة
 فهل نذهب إليها ؟ »

فأسرعت دقات قلب نوفيكونف وامترج في نفسه الفرح والحزن أغرب
 امتزاج وتغير وجهه قليلا وجعلت لإصابته تعبت بشاربيه . فأعاد . سائين
 سؤاله في هدوء كأنما آلى أن ينهض بأمر خطير ماقولك في ؟ هذا أنذهب ؟ »
 فأحس نوفيكونف إن سائين يعرف كل ما في نفسه فاستحيا كالصبي وإن
 كان قد أراحته هذا الإحساس قليلا . فقال سائين في رفق « هيا بنا ! »

وأمسك بكتف نوفيكونف ودفعه إلى الباب فتمتم « نعم . . أنا . . »
 وكاد يعانق سائين ولكنه لم يجترأ ولم يسعه إلا أن يرهقه بعين عبرى
 وكانت الحديقة الدافئة العطرة مظلمة وأغصان الأشجار فوق جذوعها تكون
 فيها بينها أقبية تحت السماء الخضراء وعلى سطح الأرض الظامئة ضباب

خفيف خافق فكأنما هناك شبح غيد مرئى يحجب مسالك الحديقة الصامتة ويسرى بين الأشجار الجامدة فترجف لطيفة الأوراق والأزهار الناعسة وكان الشفق لايزال وهاجا فيما وراء النهر المنحدر بين المروج الخالكة وعلى حرفه تجلس ليذا مكبة عايه ماثلة اليه كأنه روح حزين ظفروه الطفل فلما سمعت صوت أخيها ملأها يقينا لم يلبث أن ولى أسرع مما جاء واستحوذ عليها الخوف والحجل وأحست كأنما لاحق لها فى السعادة لا ولا فى الحياة وكانت لذلك تقضى النهار كله فى الحديقة وفى يدها كتاب إذ كانت عينها لا تقوى على النظر إلى أمها . وتحدث نفسها مرة بعد أخرى ان ألم أمها لا يكون شيناً مذكورا بالقياس إلى ماتعانيه هى الآن ولكنها على هذا ما اقتربت من أمها الا تلعم لسانها وارسمت فى عينها نظرة المذنب فاثارت خجلاتها واضطرابها العجيب ظنون أمها وحركت شكوكها ولحت ذاك ليذا فصارت تلوذ بالحديقة فراراً من نظراتها الفاحصة وأسئلتها القلقة . وهكذا كانت الليلة جالسة على حافة النهر تنظر إلى المغرب وتفكر فى مصابها وكانت الحياة لا تزال فى نظرها مستعجمة وكأنما يحول بينها وبين استجلائها شبح بشع . فاستعان بضجة كتب وسعت أفق فكرها وحررتة فجتمحت إلى الاعتقاد بأن سلوكها طبعى بل حقيقى بالثناء ذلك لأنها لم تسيء إلى أحد وما فعلت شيئاً سوى أن أمكنت نفسها وشخصا آخر مثلها من اللذة الجسمية التى لا شباب بغيرها والتى تعقم الحياة بدونها وتقفر وتعود كالشجرة العارية فى الخريف .

واستسخرت أن علاقتها بذلك الرجل علاقة لم تمنحها الكنيسة موافقتها بعد . ذلك أن حرية الفكر قد نقصت هذه الضرورات من زمن بعيد وانها لحقيقة أن تغبط بهذه الحياة الجديدة أغتباط الزهرة استيقظت صباحا على مس اللقاح يحماه إليها النسيم ولكنها مع هذا أحست أنها صارت أحط وأسفل من كل منحط وسافل .

وذابت كالشمع كل هذه الآراء النبيلة الجليلة والحقائق الأبدية لاقتراب

يوم الفضيحة وصارت تفكر في أن تدوس بقدمها من تمهنونها بل همها الوحيد وشغلها الشاغل هو كيف تجانبهم أو تخدعهم .

على أنها مع رغبتها في اخفاء حزنها عن غيرها أحست جاذبا الى نوفيكون كما تجذب الشمس الزهرة . وخيل اليها ان من الحقارة بل من الاجرام أن يراد منه انقاذها . وحز في ضلوعها أن يتوقف أمرها على حبه وصفحه ولكن الرغبة في الحياة كانت أقوى من الكبر

وكان خوفها من غباء أعظم من احتقارها له فلم تكن تستطيع أن تنظر الى نوفيكون بل كانت ترجف في حضرته كالعبد أمام ملك رقه فما أشبهها بالطائر المهيض الجناح الذي لايسعه أن يطير مرة أخرى

وكانت اذا جاوز الألم طاقتها ربما فكرت في أخيها بشيء من الدهشة . وكان لا يخفى عنها انه لا يقدس شيئا وانه ينظر اليها وهي أخته نظر الذكر الى الأنثى وانه أناني لا يكثر للعرف والعادة ولكنه الرجل الوحيد الذي كانت تحس الحرية المطلقة في محضره والذي تستطيع أن تصارحه بأخفى أسرار حياتها : لقد خطت ... حسن . وماذا في هذا ؟ ولقد أمكنت رجلا من نفسها .. حسن جدا وهل كان هذا الابعشيئتها ؟ وسيحتقرها الناس ويمتهنونها فذايم ان أمامها الحياة وصوء الشمس والدنيا الطويلة العريضة وأما من حيث الرجال فهم كثر وستأسى أمها وتحزن . حسن . ان هذا شأنها هي اذا شاءت ذلك . وان ليذا لتجهل شباب أدها ولا تمرق عنه لافليلا ولا كثيرا ومتى ماتت قان يبقى مجال للبحث والتنقيب ، ولقد التقيا مصادفة في طريق الحياة وترافقا مسافة فهل هذا سبب يدعوها الى تبادل المقاومة والمعارضة ؟

وتبينت ليذا أنها ان ترزق حرية أخيها وإنما خطرت لها هذه الآراء بتأثير هذا الرجل القوى الساكن الذي تعجب به وتحميه فطافت برأسها خواطر غريبة . . خواطر ليست مشروعة الصبغة وحدثت نفسها أن « آه لو كان غريبا ولم يكن أخي ! » .

وبادرت فعاجلت أن تحقق هذا الخاطر الفاضح المغري .

ثم ذكرت نوفيكيوف فاشتاقت كالرفيق العزيز أن يمنحها عفوه ورضاه
وسمعت وقع أقدام فتلذمت وجاء إليها سائين ونوفيكيوف في سكون ولم نستطع
أن نتبين وجهيهما في الظلام ولكنها أحست أن اللحظة المرهوبة قد دنت
أصفر وجهها وكأنما أوشكت الحياة أن تنتهى .

وقال سائين : « هذا أنت ؟ لقد جئت إليك بنوفيكيوف وسيقول لك
كل ما عنده فامكنا هنا ريثما أذهب وأعود بشيء من الشاي » .

ولانقلب عنهما مسرعا فظلا هنيئة يرقبان قيصه الأبيض يغيب في ظلمة
الليل وكان السكون من العمق بحيث ظناه لم يجاوز ظلال الأشجار
المحيطة بهما .

وقال نوفيكيوف بصوت رقيق متهدج وقع من قلبها أعمق وقع : « ليذا
بتروفا ؟ » .

فقالت لنفسها مسكين ! ما أطيبه ! » .

ومضى هو فقال : « انى أعرف كل شيء ياليدا بتروفا . ولكن حبي
لك باق على عهده . وربما أحببتنى يوما ما فقولى لى هل نقبلينى
زوجا ؟ » .

وقال لنفسه « خير لى أن لا أكثر من الكلام فى هذا إذ لا ينبغي أن
نعرف أى توضحية أبطلها من أجلها » .

فصمت ليذا فكان المرء يسمع خرير الماء فى هذا السكون وعاد نوفيكيوف
إلى الكلام فقال : « إننا سقيان ياليدا . ولعل الحياة نعود أخف محملا إذا كنا
معا » وكانت هذه الكلمات خارجة من أعماق قلبه ففاضت عينا ليذا بدموع
الشكروهى تميل إليه وتقول « لعل وعسى » .

على أن عينيها قالتا له : « ويعلم الله أنى سأكون زوجة صالحة وأنى
سأحبك وأحترمك » .

فنهض نوفيكيوف ما قالت العيان فهو لى إلى ركبتيه وتناول يدها وأمطرها

قبيلات حارة فأجاشت هذه العاطفة نفس ليدا فنسيت عارها وحدثت نفسها
« أن قد انقضى ومضى ذلك الأمر وسأسعد مرة أخرى . فيالك من رجل
طيب ! »

وأبكاهها الفرح فآنته كلتا يديها وانحنت على رأسه وثبت شعره الناعم
الحريرى الذى كانت تعجب به ومثلت لعينها صورة سارودين ولكنها لم
تظهر حتى غابت .

ولما عاد سانين بعد أن أفسح لها الوقت للتفاهم ألفاهما جالسين وأيديهما
مشتبكة وهما يتحدثان بصوت خافت هادىء
فقال سانين بهيئة الجاد : « آها ! اشكرا الله واسعدا »

وكان يهيم أن يقول شيئاً آخر ولكنه عطس بدل أن يتكلم ثم قال ومسح
عينيه : « إن الجو هنا رطب فاحذر البرد »
فضحكت ليدا وتجاوب ما وراء النهر بصدى صوتها الفاتن ثم قال سانين
بعد فترة : « سأذهب عنكما »
فسأله نوفيكوف « إلى أين تذهب ؟ »

قال « إن سفاروجتش وذلك الضابط الذى يعجب بتولستوى
— ما أسمه ؟ — قد دعوانى »

فقلت ليدا ضاحكة : « اتعنى فون دابتر ؟ »
— « هو بعينه . ولقد أراد أن نكون جميعاً هناك ولكنى قلت لهما أنك
لست فى البيت »

فسألته ليدا ضاحكة أيضاً : « لماذا قلت له ذلك ؟ ربما كنت أذهب »
فقال سانين : كلا . ابقيا هنا . ولو كان معى رفيق لبقيت
مثلكما »

ثم تركهما

وزحف الليل وارتمت على الأرض غيابات الطفل وبدا أول نجم يرتعش
فى مرآة النهر المتدفق .

كانت الليلة داجية والسحب يطارد بعضها بعضاً فوق الأشجار وكانت تمضى مسرعة كأنها مرسلت إلى غاية خفية والنجوم تتلامح لحظة وتختفى أخرى وكل شيء في السماء كأنه في هرج ومرج على حين كانت الأرض كمن ينتظر شيئاً وهو معلق الأنفاس فكانت الأصوات الآدمية المتنازعة وسط هذا السكون مستثقلة عالية .

قال فون دايتز وهو يتعثر تعثراً شديداً : « مهما يكن من الأمر فإن المسيحية نعمة باقية وبركة خالدة على الإنسانية إذ كانت هي النظام الوحيد التام المفهوم للأخلاق » .

فقال يورى وكان سائراً خلفه ورمى برأسه يميناً على سبيل التحدى وعينه إلى ظهر الضابط : « هذا صحيح . ولكن المسيحية في صراعها مع الغرائز الحيوانية في الإنسان ظهر أنها عاجزة كغيرها من الأديان »
فصاح فون دايتز مغضباً « ماذا تعنى بقولك ظهر أنها كذلك ؟ إن للمسيحية المستقبل وفي الإشارة إلا أنها عتيقة . . . »

فقاطعه يورى بجدة : « ليس للمسيحية مستقبل . وإذا كانت لم تنتصر وهى في أوج نشوئها بل صارت آلة في أيدي عصابة من الدجالين فن الصحافة المطبقة أن نتوقع منها معجزة في هذه الأيام التي عاد حتى اسم المسيحية فيها مضحكاً . إن التاريخ لا يرحم وكل ما يخرج من الميدان لا يسعه أن يكرر إليه » .

فصرخ فيه فون دايتز : « هل تريد أن تقول أن المسيحية خرجت من الميدان ؟ »

ففضى يورى في كلامه معانداً : « أعنى ذلك على التحقيق . وأراك تعجب لذلك كأن مثل هذه الفكرة مستحيلة . كما أن شريعة موسى قد بادت وكما أن بوذا وآله الاغريق قد غبروا كذلك ذهب المسيح . هذا قانون النشوء فإذا يدهشك ؟ أتؤمن بالوحيته ؟ »

فقال فون دايتز وقد ساءته لهجة يورى أكثر مما ساءه السؤال :

« كلا لا أو من بألوهيته »

فسأله يورى : « إذا فكيف تقول أن إنساناً يستطيع أن يخلق سنناً أبدية ؟ »

وحدث نفسه إن فون دايتز « قدم غبي » وارتاح إلى الاقتناع بأنه دونه ذكاء بمراحل وأنه يعجز عن فهم ما هو واضح وضوح الشمس .

فقال فون دايتز وقد تحمس بدوره : « لنفرض أن هذا كذلك . فإن المستقبل على الرغم من هذا الفرض ستكون قاعدته المسيحية . ذلك لأنهم لم تفن . ولكنها كالبذرة فى التربة ... »

فقاطعه يورى وبه بعض الارتباك والغضب لارتباكه :

« لم أكن أتكلم عن هذا . وإنما أردت أن أقول ... »

فقال : « عفوا فإن هذا هو ما قلته »

فقاطعه يورى مرة ثانية وقد هاجه أن هذا الغبي يظن نفسه أذكى الاثنين « إذا كنت قد قلت كلا فأنى أعنى ما أقول . ما أسخفك ! أريد أن أقول »

فقال « قد يكون هذا كذلك . وأنا آسف إذا كنت قد أسأت الفهم »

وهز فون دايتز كتفيه الضيقتين هزة المتنازل إلى التسامح وكأنه يقول إنه فاز على مناظره .

ولم يفت يورى هذا المعنى فكاد يخنقه الغضب وقال :

« لست أنكر أن المسيحية قامت بدور عظيم ... »

فصاح فون دايتز : « آه ! إنك الآن تناقض نفسك » والتز هذا النصر

وسره جداً أنه يفوف يورى ذكاء وفطنة .

فقال يورى بحرارة : « ربما خيل إلى مثلك أنى أناقض نفسى ولكن الواقع أن فكرتى منطقية وليس دنى إنك لا تريد أن تفهم . ولقد قلت

١٩٥

وأقول الآن أن المسيحية قد غر عهدها وإن معنى العبث أن نتطلع إليها لخلاصنا «
فسأله فون دايتز قائلا : « نعم نعم . ولكن هل تريد أن تنكر التأثير
الحسن الذى أحدثته المسيحية باعتبارها قاعدة النظام الاجتماعى ؟ »
أجاب « كلا ! لا أنكر ذلك »

فقال سانين : « ولكنى أنكره » وكان يسير الى الان صامتا وراءهما
وكان صوته هادئا لذيذاً على العكس من المتناظرين ، فصمت يورى وغازته هذه
اللهجة الساخرة المضبوطة النبرات ولكنه لم يجد الرد حاضراً ولم يكن يجب أن
ينظر سانين لأن معجم ألفاظه المألوف لم يكن يجديه فى هذا النزاع وكان يخيل
له إذا قارعه كأنما هو واقف على الجليد يحاول أن يهدم حائطاً . غير أن فون
دايتز صاح مغضباً : « أسمع لى أن أسألك لماذا ؟ »

فقال سانين بلهجة جافية باردة : « لأننى أنكر ذلك »
أجاب يورى : « لأنك تنكر ذلك ؟ إذا قرر المرء شيئاً فيجب عليه أن
يثبته » .

أجاب : « لماذا يجب أن أثبته . إنه لا حاجة إلى إثبات أى شيء ! هذه
عقيدتى وليس لى أقل رغبة فى إقناعك . وعلى أن هذا عبث » .
فقال يورى بحذر : « إذا سايرناك فى أسلوب تفكيرك كان الأولى أن
نحرق كل كتب الأدب » .

فأجابه سانين : « لا لا ! لماذا تفعل هذا ؟ إن الأدب شيء جليل جداً
وممتع جداً . والأدب الصحيح الذى أعنيه ليس جدلياً وليس صاحبه كذلك
الدعى الذى لم يكن يجد ما يصنع ذهب يعالج أن يقنع كل إنسان بأنه آية فى الملكاء
وتوقد الذهن . إن الأدب يحدد الحياة ويعيد إنشاءها ويتغلغل وينفذ حتى إلى
دم الإنسانية جيلاً بعد جيل . فى القضاء عليه سلب لكل لون للحياة وكل
طعم وروح لها » .

فوقف فون دايتز وترك يورى يمر به ثم قال لسانين :

« أرجوك أن تزيدنى ! إن ما قلته الآن ممتع لى جداً » .

فأستغرق سنانين فى الضحك ثم قال : « إن ما قلته بسيط جداً وفى وسعنى أن أفيض فى البيان إذا شئت . . . وعندى أن المسيحية قامت بدور ضئيل فى حياة الإنسانية . ذلك أنها فى الوقت الذى أحس فيه الناس أن حالهم لا يطاق وصمم فيه المضطهدون والمستعبدون لما ثابت إليهم مداركهم على أن يقلبوا نظام الحياة الجائر وأن يعصفوا بالطفيليات الآدمية — أقول فى هذا الوقت ظهرت المسيحية وديعة متواضعة تعد الجزيل فأنحت على النزاع واستنكرته وألاحت للناس بصورة النعيم المقيم وعللت الإنسانية بأنغامه حتى أنعستها وانطلقت تنشر دين الإذعان والتسليم لسوء المعاملة وقصارى القول أنها جاءت بمثابة « متنفس » للحق المكتوم فعاد بها ذوو الشخصية القوية الذين درجوا ونشأوا وسط روح الثورة وكانوا يحنون لى خلع نير القرون — أقول عادوا وقد فقدوا كل حرارة كانت تحفزهم فساروا كالحواريين لى ميدان الفناء يطلبونه بشجاعة خليقة بغرض أسمى . ولم يكن خصومهم يبغون بالبداهة غير هذا . والآن فسيحتاج الأمر لى قرون ظلم فاضح قبل أن توقد نيران الثورة مرة أخرى . ولقد خلعت المسيحية على الشخصية الآدمية العنيدة التى لا تصبر على الرق ثوبا من التوبة والندم يخفى تحته كل ألوية الحرية . وخدعت الأقوياء الذين كان يسعهم الآن أن يستحوذوا على الثروة والسعادة بأن نقلت مركز ثقل الحياة لى المستقبل — لى عالم أحلام لا وجود له — عالم لن يراه أحد منهم . وهكذا اختفت روعة الحياة وفتنتها ومائت الشجاعة والعاطفة والجمال . ولم يبق إلا الواجب وحلم العصر الذهبى فى المستقبل — ذهبى للآئين — نعم لقد كان دور المسيحية صغيرا . واسم المسيح ... »

فقاطعه فون دايترز صارخا ووقف :

« أبداً ! إن هذا يتجاوز الحد ! »

وجعل يلوح بذراعيه الطويلتين فى الظلام

فسأله يورى مضطرباً : « ولكن ألم يخطر لك قط أى عصر فظاعة وإزاحة دماء كان خليقاً أن يكون لولا أن حالت المسيحية دون ذلك ؟ » .

فأجابه سانين بإيماءة استخفاف : « ها ! ها ! حدث فى بادىء الأمر أن « الميدان » — تحت ثوب المسيحية — تالطخ بدماء الشهداء ثم حدث بعد ذلك أن الناس كانوا يذهبون أو يلقون فى السجون أو محابس المجانين . والآن يسفك كل يوم من الدم أكثر مما يمكن أن تربقه ثورة عامة . وشر ما فى الأمر أن كل تحسين فى حياة الإنسانية لا يتم إلا بسفك الدماء والفوضى والانتماض وان كان الناس لا يفتأون يدعون أن حب الإنسانية وإيثار الجار هما قاعدة حياتهم وأعمالهم . والأمر كله ينتهى بتأاسة سخيفة كاذبة ليست من هذا ولاداك فى شىء . أما أنا فأنى أؤثر أن تنزل بالعالم كارثة عامة وحيدة تقضى عليه — ذلك خير عندى من وجود نباقى فائر يمتد على الأرجح إلى عام أخرى » .

فصمت يورى ومن الغريب أن ذهنه لم يكن موجهاً إلى ما يقول سانين بل إلى شخصيته . وساءه من سانين يقيمه المطلق ولم يطق أن يحتمل هذا منه ، فقال وهو مدفوع بعامل قوى إلى إيلاام سانين : « هل لك أن تتفضل على فتخبرنى لماذا تتكلم دائماً كأنك تعلم أطفالاً صغاراً ؟ »

فقلق فون دايتز لهذا السؤال وقال شيئاً على سبيل التوفيق .

وسأله سانين بحدة ، « ماذا تعنى بذلك ؟ ولماذا تغضب ؟ »

فأحس يورى أن كلامه جارح وأنه لا ينبغي أن يتساذى ولكن كراتته المثلوبة دفعته فقال : « أن هذه اللهجة ثقيلة الوقع جداً »

فأجابه سانين وبه بعض الغيظ إلا أن به رغبة فى التسرية عن صاحبه « إنها لهجى المألوفة »

فقال يورى درفع صوته : إنها ليست موافقة دائماً ولا أدري ماذا يكسبك مثل هذا اليقين الجازم ! »

فأجابه سانين وقد عاد إلى سكينته : « لعل السبب شعورى أنى أذكى منك »

فوقف يورى وهو يردد من فرعه إلى قدمه وصاح بصوت متهدج : فقال سانين « لاتغضب ! أنى لم أرد أن أسىء اليك وإنما أعربت عن رأيي الصريح . وليس رأيي فيك الا كرايك فى وكرأى فون دايتز فينا وهكذا وذلك طبيعى »

وكان سانين يقول ذلك بالهجة ودبة صريحة لاتدع محلا للغضب فصمت يورى ولكن فون دايتز ظل قلقاً عليه . فتمتم يورى « مهما يكن من الأمر فلانى لا أصارحك برأى وأرميه لك فى وجهك »
فأجابه سانين « كلا ! إنك لاتفعل هذا وذلك حيث تخطىء ولقد كنت أصغى إليك وأنت تناظر صاحبك الآن فرأيت روح الغضب والإساءة يحفز كل كلمة يجرى بها لسانك . والمسألة مسألة شكل . أنا أقول ما أرتأى وليس فى هذا ذرة من الامتاع . ولو أننا كنا كلنا صرخاء مخلصين لكان هذا أمتع لنا جميعاً »

فضحك فون دايتز وقال « ياله من رأى مبتكر ! »

ولم يجبه يورى وكان غضبه قد سرى عنه بل لقد استشعر شيئاً من السرور وإن كان قد آلمه أنه قد خرج من المعركة مهزوماً وإن لم يشأ أن يعترف بذلك

فقال فون دايتز « إن مثل هذه الحالة تكرر بنا إلى الحياة الساذجة »

. فسأله سانين « وهل ترى الأفضل أن تكون الحياة مبهمة معقدة »
فهز فون دايتز كتفيه واستغرقه التفكير

اجتاز ثلاثتهم الميدان ومن بعده السكك المقفرة خارج البلدة وهي أضواء من الميدان وأكثر نوراً وكان الإفريز الخشبي واضحاً حيال الأرض السوداء . وفي السماء الصافية الزرقة تلتصع النجوم .

وقال فون دايتز « هانحن هؤلاء قد وصلنا » وفتح باباً قصيراً اختفى فيه ولم يكده يغيب حتى سمع انبجاص كلب وصوتا يقول له « أرقد يا سلطان » وأبصر فناء واسعاً فارغاً وفي جانب منه كتلة سوداء هي طاحونة بخارية ذهبمت مدخنتها الضيقة في الهواء وحولها خصاص ولم تكن ثم أشجار الا في رقعة ضيقة من الأرض أمام البيت الثاني وقد أضاء أوراقها الخضراء نوراً منبعت من نافذة مفتوحة فقال سانين « ما أظلمه من مكان ! » فسأله يورى « أحسب الطاحون قديمة » فأجابه فون دايتز « قديمة جداً » ولما جاوز النافذة المضئية أطل منها ثم قال بلهجة المرتاح « لقد حضر خلق كثير » فأطل سانين ويورى مثله ورأيا رؤوساً تتحرك في سحابة من الدخان . فقال إلى النافذة رجل عريض الألواح مجعد الشعر وسأل « من هنا ؟ » فقال يورى « أصدقاء ! » .

ولما صعدوا السلم اصطدوا برجل صافحهم مصافحة الاوداء وقال بنبرة يهودية بارزة « لقد خشيت أن لا تحضروا » وقام فون دايتز بواجب التعريف قائلاً « سولوفتشك - سانين » فضحك سولوفتشك ضحكة المضطرب وقال « يسرنى أن ألقاك لقد سمعت عنك كثيراً وأنت تعرف . . . » وتطرح الى الوراء دون أن يخلى كفف سانين فاصطدم بيورى وداس على قدم فون دايتز فقال « عفواً يا جاكوف ادولفوفتش (دايتز) » وأخذ يهز كفه بقوة . وهكذا طال الامر قبل أن يبلغوا الباب وكان في الردهة صفوف من المسامير دقها سولوفتشك لاجتماع الليلة وبها القبعات معلقة وبجانب النافذة زجاجات خضراء ملأى بالجمعة . وسحب الدخان معقودة حتى في حو الردهة .

وبدا سولوفتشك في الضوء يهوديا شابا أسود العينين مجعد الشعر صغير
القسمات قبيح الاسنان باديا إذ كان لا يزاله الابتسام .

فاستقبلهم القوم بضجة عالية وأبصر يورى سينا جالسة على حافة النافذة
فعاد كل شيء في عينه وضاحاً ساراً كأن الاجتماع لم يكن في حجرة مرذولة
خاصة بالدخان بل حفلة بين المروج الخضراء في الربيع .

فابتسمت له سينا وهي مرتبكة . وقال سولوفتشك وهو يحاول أن يرفع
صوته الضعيف الحوار ويداه تتحركان على نحو زرى : ضحكك :

« أيها السادة : أحسبنا جميعاً قد حضرنا — أرجوك العفو يا يورى ! إني دائماً
اصطدم بك » وضحك وهو يدفع نفسه إلى الأمام محاولاً أن يتوخم الأدب
فضغط يورى على ذراعه وقال له « لا شيء ! » .

وصاح طالب حسن الوجه « لسنا جميعاً هنا لعنة الله على الباقين » وكان
صوته العالي يشعره أنه ألف أن يأمر سواء فوثب سولوفتشك إلى المنضدة
ودق جرساً صغيراً وابتسم مرتاحاً إلى أنه فكر في استعمال الجرس .

فصاح به الطالب « آوه ! لا تفعل هذا ! إنك مولع بكل أنواع
السخافات ! ليس بنا أدنى حاجة إلى هذا » .

فتمتم سولوفتشك « لقد . . . ظننت . . . أن . . . » وارتبك ووضع الجرس
في جيبه فقال الطالب :

ينبغي أن تكون المنضدة في وسط الحجرة » .

فأجاب سولوفتشك « نعم نعم سأجرها حالا » وأسرع فأمسك بطرف
منها فصاحت ديوفا قائلة : « حاذر أن تكسر المصباح » .

وقال الطالب ودق ركبته : « إنها لا تنقل بهذه الطريقة » .

فقال سائين : « دعني أساعدك » .

— « اشكرك » .

٢٠١

فوضع سائين المنضدة فى وسط الحجره ، وكانت كل عين تنظر إلى ظهره القوى وعضلات كتفيه التى كان قميصه الرقيق يشف عنها .

وقالت دييوبا : « والآن يا جوشنكو من حيث أنك مقترح هذا الاجتماع فلن عليك أن تلقى الخطاب الافتتاحى » وكان من الصعب أن تعرف من عينها أجادة هى أم صاحكة بالطالب .

فقال جوشنكو ورفع صوته :

« أيها السيدات . أيها السادة . إنكم جميعا تعرفون لماذا اجتمعنا الليلة هنا وعلى ذلك نستطيع أن نستغنى عن خطاب تمهيدى » .

فقال سائين : « الواقع أنى لا أعرف لماذا جئت ، ولكن ربما كان السبب أنهم قالوا لى إن هنا جمعة ! » وضحك .

فنظر إليه الطالب باحتقار ومضى فى كلامه :

« إن جماعتنا مؤلفة لتهديب النفس بواسطة المطالعة المتبادلة والمحاضرات والمناقشات المستقلة . . » .

فقاطعه دييوبا : « المطالعة المتبادلة ؟؟ لست بفاهمة ! » قالت ذلك بلهجة قد تعد ساخرة . فاحمر وجه الطالب وقال :

« أردت أن أقول مطالعة نشارك فيها جميعا ، فالغرض من جماعتنا هو تربية الرأى الفردى تربية تفضى الى أن يتألف فى هذه البلدة اتحاد يعطف على الحزب الديمقراطى الاشتراكى » .

فقال إيفانوف : « آها !! » وحك رأسه .

« ولكننا سنتناول هذا الموضوع فيما بعد . أما فى مبتدأ الأمر فلن نتولى حل شىء من هذه المسائل الكبيرة . . » .

فلقنته دييوبا : « أو الصغيرة » .

فتظاهر جوشنكو بعدم الالتفات إليها وقال : « وسنبداً بوضع برنامج يتضمن بياناً بالكتب التي ننوي أن نطالعها واقترح أن نقصر اجتماع الليلة على هذا العمل » .

فسألت ديوفا : « سولوفتشك ، هل سيحضر عمالك ؟ » .

فوثب سولوفتشك كأنما كان لدغ وقال : « نعم سيحضرون ولقد أرسلت في طلبهم » .

فصاح الطالب : « لا ترفع عقيرتك هكذا ! » .

وقال شافروف وكان يصغى إلى خطاب جوشنكو باحترام :
« ها هم أولاء قد حضروا » .

وصر الباب وسمع نباح الكلب وانطلق سولوفتشك من الغرفة وهوى قول :
« لقد حضروا » وصاح بالكلب أن « أرقد ياسلطان » وسمعوا وقع أقدام ثقيلة وسعالاً وأصوات رجال ثم دخل طالب هندسة شبيه بجوشنكو لولا أنه أسمر وأقل وسامة ودخل معه الحجره عاملان مستحييان مرتبكان أكفهم خشنة وعلى كل منهما جاكته قصيرة تحتها قميص أحمر قذر وكان أحدهما طويلاً عريضاً تقرأ في وجهه الخلق النحيل آيات الجوع سنين والكمد الباطن ٦ المخامر والبغض والسمخطة المكتومين . أما الثاني فله هيئة الرياضى وهو عريض الكتفين حسن الوجه مجعد الشعر وكان يتلفت حوله كالفلّاح إذ يرى مدينة لأول مرة . فتقدمهما سولوفتشك وقال بجذ ووقار : « أيها السادة هولاء . . . » .

فقاطعه جوشنكو كعادته : « كفى كفى ! عمو مساء أيها الرفاق » .

فقال طالب الهندسة مقدماً رفيقيه : « بتسوف وكودريانجى » .

فدخل العاملان بجذر وصافحا الأيدي الممتدة للترحيب بهما وابتسم بتسوف وهو مرتبك أما زميله فكان يلوى عنقه الطريل كأنما كان الزريق « الياقة » يخنقه . ثم جلسا إلى النافذة قرب سينا .

٢٠٣

فسأله جوشنكو: « لماذا لم يحضر نيقو لايف؟ » .

فأجاب بتسوف: « لم يستطع الحضور » .

وزاد كودريافجى: « لقد شرب حتى عمى » .

فقال جوشنكو وهز رأسه: « آه ! فهمت » .

فأثارت هذه الحركة التى أراد بها جوشنكو أن يعرب عن عطفه حتى يورى ووجد فى الطالب خصما شخصياً له .

وعاد الكلب إلى التباح فقالت دييوبا « لقد حضر آخرون » .

فقال جوشنكو وتكلف الاستخفاف: « لعالمهم الشرطة » .

فصاحت دييوبا: « إنى على يقين من أنك لا تكترث إذا كان الطارقون هم الشرطة ! » .

فنظر سانين إلى عينيها الذكيتين وإلى جدائل شغرها الجميلة المرسلة على كتفيها وقال لنفسه: « إنها فتاة ذكية الفؤاد » .

ووثب سولوفتشك كأنما يهيم بالخروج وأكده استعداد صوابه فتظاهر بأنه يتناول سيجارة على المنضدة . ولم تفت جوشنكو هذه الحركة فقال ولم يجب دييوبا: « ما أكثر قلقك وحركاتك ياسولوفتشك » .

فاحمر وجه سولوفتشك وتجهم وخالجه الأسف على حماسه التى لا تستحق أن يكون جزاؤها هذا التعنيف . ثم دخل نوفيكيوف وهو باش مبتسم: « هذا أنا » . فقال سانين: « وكذلك نراك » وتصافحا . وهمس نوفيكيوف فى أذن سانين على سبيل الاعتذار: « إن ليذا تستقبل زوار اليوم » .

وعاد طالب الهندسة إلى موضوعه فسأل: « هل جئنا للتكلم؟ ألا دعونا نبدأ ! » .

فقال نوفيكيوف والسرور باد عليه: « إذأ فأنتم لم تبدأوا: بعد؟ » وصافح العالمين اللذين وثبا إلى اقدامهما وارتبكا لمقابلته هنا مقابلة الند والزميل وهو لا يعاملهما فى المستشفى إلا معاملة من هم دونه .

ثم أخذ جوشنكو يتكلم وبه بعض الغيظ وقال :

« أيتها السيدات ، ويا أيها السادة . إننا كلنا نريد بطبيعة الحال أن نوسع آفاقنا ونعمق نظرنا إلى الحياة ولما كنا نعتقد أن خير وسيلة لتهديب النفس أن نضع طريقة منتظمة للمطالعة وتبادل الآراء في ما نقرأ فقد رأينا أن ننشىء هذا النادي . والمسألة الآن هي : أى كتب نقرأ ؟ ربما استطاع بعضكم هنا أن يقترح شيئاً .

فوضع شافروف نظارته على عينيه ونهض في بضع وفي إحدى يديه مذكرة صغيرة وقال بصوته الخاف المنفرد : « أرى أن نقسم برنامجنا قسمين . ولا بد في تهديب عقولنا وصقلها من أمرين دراسة تبدأ بأول أطوارها ودراسة الحياة كما هي في الواقع » .

فقالت ديبوفا : « إن شافروف قد بدأ يتفصح » .

واستمر شافروف : « فأما الأول فيتم بقراءة الكتب العلمية والتاريخية القيمة والثاني طريقه كتب الأدب ومنها نواجه الحياة » .

ولم يسع ديبوفا إلا أن تقول وفي عينيها لمعة خبيثة : « إذا مضيت في كلامك على هذا النحو فسيأخذنا النوم » .

فقال شافروف بلطف : « إنى أجهل أن يكون كلامي مفهوماً من الجميع » .

فقالت ديبوفا وأومأت لإيماءة التسليم بقضاء الله : « حسن جداً قل ما بذلك » .

وضحكت سينا أيضاً من شافروف وودت رأسها إلى الوراء فبدأ اللعين جيدها الاتلع الناصع وكانت ضحكاتها موسيقية منغمة .

فقال شافروف وعينه إلى ديبوفا : « لقد وضعت برنامجاً — ولكنني أحشى أن تملكم قراءته وأرى أن نبدأ بكتاب « أصل الأسرة » مع مؤلفات داروين . أما من حيث الأدب فلنبدأ بتولستوى » .

فصاح فون دايتز وهو راض عن نفسه وفي يده سيجارة يشعلها : «تولستوى بكل تأكيد ! » .

وانتظر شافرون حتى أشعل صاحبه السيجارة ثم قال : « ثم بتشيكوف وابسن وكنوت همسون » .

فصاحت سينا : « ولكننا قرأنا كل هؤلاء ! » .

فاهتز يورى لصوتها وقال : « بالطبع ! إن شافروف ينسى أننا لسنا في مدرسة في وما أعجب هذا الخلط ! تولستوى وكنوت همسون ! » .

فساق شافروف بعض الحجج تعزيزا لرأيه ولكنه بعثها فلم يفهمه أحد فقال يورى وسره أن سينا تنظر إليه : « كلا ! لا أوافقك » وراح يشرح رأيه في الموضوع وأكثر ما يعينية من الكلام أن يفوز بموافقة سينا فحمل على مشروع شافروف حملة شعواء وأنحى حتى على ما يوافق عليه منه وتلاه جوشنكو فأدلى برأيه وكان يعد نفسه أذكاهم وأفصحهم وأعظمهم تهديبا وكان يتوقع أن يفوز بالحل الأول فغاضه ما وفق إليه يورى من النجاح فعارضه في رأيه وتلت ذلك مناقشة طويلة لا آخر لها وشرع نوفيوكوف وجوتشكو وإيفانوف يتكلمون جميعا في وقت واحد واختلطت الأصوات اختلاطا لم يعد معه مجال للفهم . ولزم سولوفا تشك الصمت في هذه الحرب وجلس في زاوية يصغى وكان في أول الأمر عظيم الاهتمام ثم لم يلبث الشك والأسى أن غضنا وجهه ورسمنا خطوطا حول فمه وعينيه .

وكان سانين يشرب ويدخن ولا يقول شيئا وعلى وجهه دلائل الملل ولما علت الضجة ولم تعد محتملة وقف وأطفأ سيجارته وقال : « ألا تشعرون أن هذه حالة لا تطاق ؟ » .

فقات ديوبوفا : « إنها لكذلك حقا ! » .

وسأله جوتشكو : « كيف ذلك ؟ » .

فلم يلتفت إليه سانين وقال ليورى : « هل تعتقد أنك تستطيع أن

أستخلص فكرة الحياة عن الحياة الكتب ؟ » .

فأجابه يورى بدهشة : « أعتقد ذلك بلاشك » .

فقال سائين : « إذا فأنت مخطيء ! إذا كان هذا صحيحاً فإن المرء يستطيع أن يصب الإنسانية كلها في قلب واحد بأن يجعل الناس يقرأون كتباً تنزع إلى منحني واحد . إن فهم الحياة لا يتأتى إلا من ملاسة الحياة نفسها في جملتها وليس الأدب أو مطاهر العقل الإنساني إلا ذرة ضئيلة فيها . وليس في وسع أي نظرية عن الحياة أن تعينك عن تكوين فكرة عنها . لأن هذا رهن بمزاج كل فرد وخلق أن يختلف ذلك مادام الإنسان حياً . وعلى هذا فمن المحال عليك أن تكون فكرة محدودة مضبوطة عن الحياة كما تريد أن ... » .

فصاح يورى مغضباً : « ماذا تعني بقولك (من المحال) ؟ » .

فقال سائين : « محال ولاشك ! لو أن تكوين فكرة عن الحياة نتيجة نظرية محدودة تامة لوقف تقدم الفكر الإنساني . بل لا تقطع . وهذا كلام لا يقبل . إن كل لحظة تنطق بكلمة جديدة وواجبنا أن نصغي إليها وأن نفهمها دون أن نضع لأنفسنا قيوداً وحدوداً سابقة . وعلى أنه ما خير الجدل في هذا » رأيك ماتشاء . إنما أسألك يا من قرأت مئات من الكتب لماذا عجزت إلى الآن عن تكوين فكرة محددة عن الحياة » .

فسأله يورى وبدا الغضب في عينيه : « لماذا تفرض أني لم أفعل ذلك ؟ ربما كانت فكرتي عن الحياة كلها خطأ ولكن لي فكرة » .

فقال سائين « حسن جداً . إذا كانت لك فكرة فالماذا تبغى غيرها ؟ » .

وقالت سينا لنفسها : « ما أذكاه ! » وأعجبت به أيما إعجاب ، وجعلت تلحظه هو ويورى وأحست شيئاً من الخجل ولكنها كانت على هذا فرحة مسرورة فكأنما كان الاثنان يتجادلان في أيهما يفوز بها .

ومضى سانين في كلامه فقال : « فأنت لاحتاجة بك إلى ما تطلبه عبثاً . وأرى كل امرئ هنا يحاول أن يكره غيره على الاقتناع برأيه ويخشى أن يقنعه الآخرون بأرائهم . الحقيقة بصراحة أن هذا ممل جداً » .

فقال جوتشنكو : « لحظة واحدة ! اسمح لي ! » .

فأجابه سانين بضجر : « كفى كفى ! لا بد أن لك فكرة رائعة عن الحياة وأن تكون قد قرأت أكواما من الكتب ! هذا واضح لا خفاء به ! ومع ذلك فإنك تغضب لأن غيرك لا يوافقك على رأيك ! وشر من ذلك أنك تسيء معاملة سولوفتشاك وهو لم يسيء إليك في حياتك ! » .

ولهل جوتشنكو ولزم الصمت . وقال سانين : « يا يورى لا يغضبك أنى صارحتك الآن . إنه لا يخفى عني أن في صدرك عراكا ! » .

فصاح يورى : « عراك ؟ » واحمر وجهه ولم يدر أيغضب أم يحتمل هذا القول ووقع في نفسه صوت سانين الساكن وقعاً عميقاً كما حدث وهما آتيان إلى هذا الاجتماع .

فأجابه سانين : « إنك تعلم أن الأمر كذلك . ولكنه لا ينفع المرء أن يعنى بهذا الهذر الصبياني . الحياة أقصر من ذلك » .

فصاح به جوتشنكو مغضباً : « اسمع . انك تدعى لنفسك أكثر مما يجب ! » .

فقال سانين : « ليس أكثر مما تدعى أنت » .

أجاب « كيف ذلك ؟ »

فقال سانين « فكر في الأمر وحدك . إن ما تقوله وتفعله أخشن وأسوأ أدباً من كل ما أقول ! » .

أجاب : « لست بفاهم » .

فقال سانين : « ليس هذا بذنبى » .

أجاب : « ماذا » .

فلم يجبه سانين وتناول قبعته وقال : « سأخرج فقد ضمجت » .

فقال إيفانوف : « هذا حق . وقد فرغت الجمعة » .

فقال ديبوفا : « لن نتقدم خطوة إذا سرنا على هذا النحو ، هذا واضح » .

وقالت سينا : « رافقني في الطريق يا يورى » ثم التفتت إلى سائين وقالت : « إلى الملتقى » .

والتقت عيناها وعيناه فسرت في جسمها هزة سرور وقالت ديبوفا في الطريق : « وأسفاه ! لقد تداعى نادينا قبل أن يقوم » .

فقال صوت حزين : « ولكن لماذا ؟ » وكان صاحبه سولوفتشك يتطرح ويصطدم بكل واحد وكانوا قد نسوا وجوده فراعهم كآبته . فقال سائين وكأنه يفكر : « اسمع يا سولوفتشك سأزورك يوماً لنتحدث » . فانحنى سولوفتشك وقال : « بكل تأكيد . أرجوك أن تتفضل » .

ولما خرجوا من الحجرة المضاءة كان الظلام على أشده فكانوا يتعارفون بالأصوات دون الشخصوص وسار العاملان على مسافة من الباقين ولما ابتعدا قال أحدهما : « هذه حالهم أبدا . يجتمعون ويتحدثون عن عجائب ومعجزات ينوون إتيانها ثم يأبى كل منهم إلا أن يكون الأمر على هواه ومشيتته . إلا أنه لم يعجبني غير هذا الرجل الضخم (سائين) » . فقال صاحبه « ما أكثر ما نفهم حين يتجادل أمثالهم ! » ولوى عنقه كأنما يحنقه شيء فصففر رفيقه ساخرأ بدل أن يجيبه .

— ٢٦ —

وقف سولوفتشك عند الباب برهة ينظر إلى السماء الغائمة ويفرك أصابعه الذميلة . وكانت الريح ترمز حول الأبنية الخسبية وتحنى رءوس الأشجار المتقاربة كأنها جند من الأشباح . وكانت السحب في سباق دائم كأنما تدفعها قوة قاهرة إلى الأمام . أو كأنما تنتظرها جيوش يخطئها الحصر رفعت رايتها السوداء وخرجت في كل قوتها الرائعة إلى ميدان تتصارع فيه العناصر . وكانت الريح كأنما تحمل من حين إلى حين ضجة المعركة النائية .

وقف سولوفتشك ينظر إلى السماء وقد ملأت روعة المنظر نفسه .
فلج به الإحساس بضآلته وأنه لا شيء لإزاء هذه الهوى الهائلة . فتنهد
وقال : « يا آلهى ! يا آلهى ! » . وكان إذا أضواء الليل يعود شخصاً آخر
غير الذى يعرفه الناس . وكذلك زايله القلق والارتباك الآن . واختفت
أسنانه الدميمة وراء شفثيه الحساستين وارتسمت فى عينيه السوداوين نظرة
الجد والشجن .

ودخل البيت فى بطء وأطفأ مصباحا لا ضرورة إليه ورد المنضدة
والكراسى إلى مواضعها وكانت الغرفة لا تزال ملاءى بدخان الطباقي والأرض
مبعثرة عليها أعقاب السجائر والكبريت . فتناول مكنسة وشرع ينظف
الغرف وكان يجب أن يرى مأواه نظيفا مرتبا . تم جاء بدلو ووضع فى
مائه كسراً من الخبز وحمل هذا فى يمينه ومد يسه ليعفظ توازنه واجتاز
الفناء بخطى قصيرة وكان قد وضع مصباحا صغيرا قرب النافذة لتضيء
له طريقه ولكن الظلام مع ذلك كان طاغيا فلما وصل إلى ميت الكلب
تنفس الصعداء وتقدم كلبه « سلطان » ليقابله .

« آه . سلطان ! كوش كوتس ! » أخرج هذه الأصوات ليتشجع
ودفع الكلب أنفه البارد البليل فى كف سيده فوضع له الدلو وقال له : « هذا
أنت » فشتم الكلب الدلو ثم أنطلق يأكل بنهم وسيده واقف بجانبه يتأمل
الظلام الخيط ويقول لنفسه :

« ماذا أصنع ؟ كيف أستطيع أن أحمل الناس على تغيير آرائهم ؟
لقد كنت أنا نفسى أتوقع أن يعلمنى الناس كيف أعيش وكيف أفكر .
ولقد ضن على الله بصوت النبى فكيف أساعد الخلق ؟ » .
وزام الكلب راضياً . فقال سيده : « كل واشبع . لقد كنت أود أن
أطلقك لتعدو قليلا ولكن المفتاح ليس معى وأنا متعب مجهود . . . إيه
مأذكى منى كانوا هنا الليلة وأعلمهم وأمهرهم ! إنهم يعرفون شيئا كثيرا . .
(م ١٤ - ابن الطبعه)

نصارى طيبون على الأرجح ! وهذا أنا ... من يدري ؟ لعل هذا خطأى وحدى . لقد كنت أحب أن أقول لهم كلمة . ولكنى حرت كيف أقولها . وحملت الريح من وراء المدينة صغيرا طويلا هاغيا فرفع الكلب رأسه وأصغى وسقطت قطرات كبيرة من كمامته فى الدلو . فقال صاحبه : « كل واشبع إن هذا صوت المطر » .

فتنهذ الكلب وقال سيده : « ترى هل يعيش الناس أبدا على هذا النحو ؟ ربما أعياهم ذلك » وهز كتفيه يائساً . وبدأت له فى الظلام صورة حشد هائل من الخلق لا آخر له كالأبد يغيب ويختفى فى الظلام — سلسلة قرون لا مبدأ لها ولا منتهى — سلسلة متصلة الحلقات من آلام وأوجاع لا دواء لها ولا شفاء منها وفوقها حيث عرش الله سكون أبدي !

واصطدم الكلب بالدلو فقلبه وأخذ يبصيص بذنبه وسمع صوت سلسلته فسبح سولوفتشك ظهره وربته وأحس هزة السرور تسرى فى كيان الكلب ثم انقلب إلى البيت وكان يسمع منه صوت سلسلته وبدأ الفناء أقل ظلمة والطاحون أشد جهامة بمدخنتها الطويلة والتمتع فى السماء خط عريض من النور أضواء المدينة هنيئة فبدأت للعين أزهارها الصغيرة الضعيفة مطرقة تحت السماء النائرة وأعلامها السوداء المنيرة التى نشرها الليل .

وغلب الحزن سولوفتشك وراخى أعصابه الشعور بالوحدة وبخسارة لا عوض عنها فدخل غرفته وجلس إلى المنضدة وبكى .

كتب سارودين رسالة إلى ليذا وقعت فى يد أمها مارييا إيفانوفنا، وفيها يطلب إليها أن تأذن له فى الحضور ليراها ، ويشير إلى أن هناك أموراً يمكن أن تسوى على نحو مرضى ، فرأت مارييا إيفانوفنا أن هذه الصفحات تلقى ظلاً خجلاً على ابنتها الطاهرة ، فارتبكت وذكرت معاشقتها فى صدر أيامها وما كان فيها من خدع ، وزواجها وما تخلله من آلام ، وكانت حياتها سلسلة

طويلة من الأوجاع صاغت قوانين الأخلاق الحرجة ومدتها إلى حدود الشيخوخة .

وهاجت لما خطر لها أن ابنتها كسرت الحائط الذى يدور بهذه الحياة القلدة وانغمست فى الدوامة التى تختلط فيها اللذات والاحزان والموت ، وقالت لنفسها : « يا لها من فتاة خسيصة خبيثة ! » وهوى ذراعها إلى جانبها . ثم خطر لها فجأة أن الأمور ربما كانت لم تبلغ هذا المدى فعزاها ذلك وتلت الرسالة ثم تلها غير أنها لم تستخلص شيئاً من أسلوبها الخاف المتكلف ولما أعياها الأمر بكت بكاء مرا ثم سوت قبعتها وسألت الخادمة : « دونيكا ! هل فلاديمير سائين هنا ؟ » فصاحت دونيكا : « ماذا ؟ » أجابت :

« أيتها الحمقاء إني أسألك هل فلاديمير سائين هنا ؟ » .

قالت : « لقد ذهب إلى المكتبة ! وهو يكتب رسالة ! » .

وانبسطت أسارير الخادمة كأنما كانت كتابة الرسالة مبعث سرور غير عادى فحملت مارييا فى الفتاة والتمتع فى عينها الدابلتين نور الشر وقالت : « أيتها الورهاء ! لئن أجترأت أن تحملى رسائل مرة أخرى لألقنك درساً لن تنسينه عمرك ! » .

وكان سائين جالساً إلى مكتب ولم تألف أمه أن تراه يكتب فارتاحت إلى هذا المنظر على الرغم من حزنها وسألته : « ماذا تكتب ؟ » . فقال سائين ورفع رأسه إليها باسم : « رسالة » .

قالت : « لمن الرسالة ؟ » .

أجاب : « لصحفى أعرفه . فإني أفكر فى الالتحاق بجريدته » .

قالت : « وهل تكتب مقالات للصحف ؟ » .

فابتسم سائين وقال : « إني أصنع كل شيء » .

فقالت أمه : « ولكن لماذا تريد أن تذهب إلى هناك ؟ » .

فقال سائين بصراحة : « لقد مللت العيش معك يا أماه » .

فتأملت أمه لذلك وقالت : « أشكرك » فرامقها سانين ونازعته نفسه أن يقول لها لا ينبغي لك أن يبلغ من حمتك أن تتصورى أن رجلاً ليس له عمل يمكن أن يرتاح إلى البقاء أبداً في مكان واحد ولكنه لم يكن يحب أن يقول شيئاً من هذا فسكت .

وأخرجت أمه منديلها وفركته بين أصابعها وأولا رساله سارودين وحزنها وقلقها من جرائها لساعتها خشونة ابنها ولكنها لم تزد على أن قالت : « نعم ! واحد يتسلل من البيت كالذئب والأخرى » .

وأتمت الحملة لإماعة التسليم بالقضاء .
فرفع سانين رأسه إليها بسرعة وألقى القلم وسألها : « ماذا تعرفين عن هذا » .
فخجلت ماري إيفانوفنا من أنها قرأت رسالة ليذا واهم وجهها وأجابته بصوت المتردد يشوبه شيء من الغيظ :

« الحمد لله . لست بالعمياء ! وإلى لأستطيع أن أرى » .
فقال سانين بعد أن فكر هنيهة : « ترين ! إنك لا تستطيعين أن ترى شيئاً . ولكي أثبت لك ذلك دعيني أهنتك بخطبة ابنتك ! وكانت ستخبرك بهذا بنفسها » .

فصاحت ماري إيفانوفنا واعتدلت قامتها : « ماذا ؟ ليذا ستتزوج ؟
تتزوج من ؟ » أجاب : « نوفيكيوف بالبداهة » .

قالت : « نعم ولكن ما القول في سارودين ؟ » .
فقال سانين بغضب : « آوه ! إنه يستطيع أن يذهب إلى الشيطان وماشأنك بهذا ؟ لماذا تتدخلين في شئون غيرك ؟ » .

فقالت أمه وبها بعض الدهشة إلا أنها أحست هزة الفرع :
« نعم ولكني لم أفهم تماماً يا فولودجا . أن ليذا ستتزوج ؟ » .

فهر سانين كتفيه وقال : « ما هذا الذي لا تفهمينه ؟ لقد كانت تحب رجلاً وهي الآن تحب غيره ، وغداً تحب ثالثاً . حسن . بارك الله في معاشها ! » .

فصاحت ماريًا إيفانوفنا مغضبة: « ماهذا الذى تقوله ؟ » .

فقال سانين إلى المكتب وطوى ذراعيه وسألها بغضب :

« هل لم تحى فى حياتك إلا رجلا واحدا ؟ » .

فهمضت ماريًا إيفانوفنا وارتسمت على وجهها المغضن أمارات الشموخ
والتمالى وقالت بحدة :

« لا ينبغى للمرأة أن يخاطب أمه بهذا اللسان » .

فسألها : « لا ينبغى لمن ؟ » فقالت « ماذا تعنى بمن ؟ » .

فقال وصعد نظره فيها وصوبه : « من الذى لا ينبغى أن يتكلم ولحظ لأول
مرة فراغ نظره عينها وسخافة هيئة القبعة على رأسها ، فقالت بصوت مخنوق :

« لا ينبغى لأحد أن يوجه إلى مثل هذا الكلام » .

فقال سانين واستعاد سكينته وأمسك القلم : « مهما يكن من ذلك فقد فعلته
وانقضى الأمر . لقد فزت بنصيبك من الحياة ولا حق لك فى منع ليذا من
طلب نصيبتها » .

فلم تجبه بتىء وراحت تحلجه بنظرات الدهشة وأسرعت فنفت ذكريات
شبابها وكل ما كان فى ليالى حبه الفرحة وعلقت بذهنها هذا السؤال وحده :
« كيف يجرؤ أن يخاطبني بهذا اللسان ؟ » وقبل أن تهتدى إلى جواب ماالتفت
إليها سانين وتناول يدها فى رفق وقال : « لا يؤملك هذا أو يزعمك وإنما
يجب عليك أن تمنعى سارودين من دخول البيت لأنه يستطيع أن يلعب معنا
دوراً قدرا » .

فهدأت ماريًا إيفانوفنا وقالت : « بارك الله فيك يا بنى . وإلى لمسرورة
جداً فقد كنت دائماً أحب ساكا نوفيكيوف ، نعم لانستطيع أن نستقبل سارودين .
هذا لا يمكن من أجل ساكا » .

فقال سانين وفى عينيه نظرة فكهة .

كلا ! هو كما تقولين ! من أجل ساكا » .

وسألته أمه « وأين ليذا ؟ » أجاب سانين : « فى غرفها » .

فقالت : « وساكا ؟ » ونطقت مختصر اسمه هذا بعطف فقال سانين : « لا

أدرى : لقد ذهب إلى ... » .

وفي هذه اللحظة دخلت دونيكا الخادمة وقالت :

« فيكتور سارودين وسيد آخر معه » .

فقال سانين : « أطرديهما من البيت » .

فابتست دونيكا ابتسامة صبيانية وقالت :

« سيدى كيف أستطيع ذلك ؟ » .

فقال سانين : « تستطيعين بالطبع ! ما شأنهما هنا ؟ » .

فأخفت دونيكا وجهها وخرجت . ومدت ماريا إيفانوفنا قامتها حتى صارت في رأى العين أصعب وأصغر لولا أن في عينيها نظرة شر . وكانت قد غيرت وجهة نظرها إلى الموضوع بسرعة مذهشة وسهولة عجيبة فبعد أن كانت تحس اسارودين رقة في قلبها لما كانت ترجو أن يتزوج من ابنتها عادت فأحست له شتأنا لما أدركت أن غيره سيتزوج منها وأن سارودين لم يكن إلا طالب حب .

واستدارت لتخرج ولحظ سانين تحجر وجهها وصلابة نظرتها فقال لنفسه : « هاهنا دجاجة عتيقة لك يا سارودين ! » وطوى الرسالة التي كان يكتب وتبعها ليرى على أى حال ينتهى الأمر .

وبالغ سارودين وفلوتشين في تحيتها ولكن سارودين فقد سلاسة شمائله وقلق فلوتشين قليلا إذ كان قد جاء لغرض واحد هو أن يرى ايدا فاضطر أن يكتفم غايته .

وبدا الاضطراب على سارودين على رغم تكلفه وأحس أنه لم يكن يجمل به أن يأتى وأشفق من لقاء ايدا ولكنه لم يكن يحب أن يطلع فلوتشين على هذا السر إذ كان يريد أن يظهر أمامه في مظهر الفاتك اللهج فقال وتصنع الالتهام :

« عزيزتى ماريا إيفانوفنا . أسمعنى لى أن أقدم إليك صديقى بول فلوتشين » .

فقال ماريا بأدب جاف : « مسرورة » ولمح سارودين جفوة النظرة التي في عينيها فاضطرب وأدرك أنه لم يكن ينبغى له أن يحضر بعد أن كان قد غفل

عن هذا في حضرة صديقه . وقد تدخل ليدا في أى لحظة — ليدا أم طفله — فإذا يقول لها ! كيف يواجهها ؟ وربما كانت أمها على علم بما وقع بينهما ! فاضطرب في كرسيه وأشعل سيجارة وهز كتفيه وحرك رجله وتلفت يمينا وشمالا .

فقالت ماريّا لصاحبه بصوت بارد متكلف : « هل تطول إقامتك هنا؟ » فقال . « كلا ! » وجعل ينظر إلى هذه السيدة الريفية نظرة الارتياح والرضى عن النفس وزج سيجارته في زاوية فيه فكان الدخان يصعد إلى وجهها مباشرة فقالت : « لا شك أن الحياة هنا مملة بعد بطرسبرج » .

قال : « إنها على العكس للذيذة في هذه البلدة الصغيرة » . قالت : « يحسن أن تزور الجهات المجاورة فإنها متنزهات بهيجة وفيها أماكن للسياسة والتجديف » .

فقال فلوتشين وبدأ يسأم : « بالطبع يا سيدتي بالطبع » . وتعثر الحديث وصاروا جميعاً كأنما على وجوههم صور مستعارة باسمه تخفى تحتها عيوناً متعادية . ونظر فلوتشين عن عرض إلى سارودين نظرة لا سبيل إلى الخطأ في فهم مدلولها ولم تمت سائين دلالها وكان يرقب كل شيء من الركن الذي وقف فيه .

ولكن خوف سارودين أن يستصغر أمره صاحبه ولا يرى فيه مازعمه من اللباقة والجرأة والفتك رد إليه شيئاً من عازب ثقته بنفسه وجرأته فسأل ماريّا : « وأئن ليدا بتروفنا » .

فنظرت إليه ماريّا غاضبة مذهولة وقالت له عيناها : « ما أنت وهذا إذا كنت لن تتزوجها » ثم قالت بجفاء : « لا أدري ! لعلها في غرفتها » .

فرمى فلوتشين نظرة أخرى إلى زميله معناها : « ألا تستطيع أن تستنزل ليدا بسرعة ؟ إن هذه العجوز مملة » .

ففتح سارودين فيه ولوى شاربيه . وقال فلوتشين باسم وفرك كفيه ومال إلى ماريا إيفانوفنا .

« لقد سمعت ثناء طيباً على ابنتك فطمعت أن أتشرف بمعرفتها . »

فعجبت ماريا إيفانوفنا لهذا الوقع ماذا سمع عن ابنتها وقام في نفسها أن ابنتها زلت وهوت . فاضطربت ولانت نظرتها . فقال سانين لنفسه : « إذا لم يطردها الآن فسيصيبان متاعب لليدا ونوفيكوف » ثم قال فجأة لسارودين وهو ينظر إلى الأرض مفكراً :
« سمعت أنك مسافر . »

فعجب سارودين كيف لم يخطر له هو هذا العذر واستحسن الفكرة وقال لنفسه : « لقد وجدت تكأة ! إجازة شهرين » قبل أن يجيب بسرعة :
« نعم لقد كنت أفكر في السفر لأن الإنسان محتاج إلى الانتقال وطول مقام المرء في مكان واحد خليق أن يكسوه طبقة من الصدا . »

فضحك سانين ضحكاً عالياً وسره هذا الحديث الذي ليس فيه كلمة واحدة صادقة معبرة عن حقيقة ما في النفوس—وهذا الخداع الذي لم يخدع أحداً .
ووجد ارتياحاً وحرية فنهض وقال :
« إذاً فكلما كان ذلك أسرع كان خيراً » .

فتمزق الحجاب في لحظة واحدة وتغير الثلاثة الآخرون واصفرت ماريا إيفانوفنا ونطقت عين فلوتشين بالخوف الحيواني ونهض سارودين في ببطء وتردد وسأل بصوت مبهوح :
« ماذا تعني ؟ »

وتطرح فلوتشين وجعل يتلفت باحثاً عن فبعته .

ولم يجب سانين على سؤال سارودين بل ناول فلوتشين فبعته بحيث وكان هذا مفتوح الفم فخرج منه صوت غخوق وصاح سارودين مغضباً :
« ماذا تعني بهذا ؟ » وقال لنفسه : « فضيحة ! » .

فأجاب سائين: « أعني أن وجودك هنا لا ضرورة له على الإطلاق :
وأنه يسرنا أعظم السرور أن لا نراك » .

فتقدم سارودين خطوة وهو مضطرب وأسنانه تلمع مهددة كأسنان
الوحش وتتم وأنماسه مسرعة : « آه ! أهذا كذلك ؟ » .
فقال سائين باحتقار : « اخرج » ولكن لهجته بلغ در .
سارودين وتراجع .

وقال فلوتشين بأخفت صوت . « لا يدري إلا الشيطان معنى هذا »
ورفع كتفيه ومضى إلى الباب .

ولكن ليذا كانت واقفة في حرم الباب وفي ثياب غير المألوفة وكان
شعرها مضمفراً والصفيرة ملالة على ظهرها وثوبها واسع مرسل فزادت
بساطته في جمال شكلها .

وابتسمت فظهر الشبه بينها وبين أخيها وقالت بصوتها الرخيم الغض :
« هذا أنا . لماذا تسرعان ؟ فيكتور سارودين ضع قبعتك » . فصمت
سائين ونظر إلى أخته مذهولاً وقال لنفسه : « ماذا ترى تعني ؟ » .
وما كادت تظهر حتى وحدوا لها تأثيراً خفياً رقيقاً لا سبيل إلى
مقاومته فكأنها وهى واقفة هناك مروضة أمام قفص عاص بالوحوش
الضارية فهذا الرجال وأذعنوا .

وتتم سارودين : « هل تعلمين أننا .. » .

فلما سمعت صوته ارتسم على وجهها الألم فنظرت إليه وخامرها الأسى
والرقة والأمل ولكن هذه الإحساسات لم تلبث أن عفت عليها الرغبة الوحشية
في أن ترى سارودين مبلغ خسارته وأنها مازالت جميلة وضاعة على الرغم من
كل أساها وعارها اللذين كلفها إياهما .

فأجابته بصوت الأمر : « لا أريد أن أعرف شيئاً وأعصمت عينيها
فأحدث وجودها تأثيراً عريباً في نفس فلوتشين فبرز لسانه الصغير الحاد من
بين شفتيه الجافتين وصغرت عيناه واهتز كيانه . وقالت ليذا لسارودين .
« لقد نسيت أن تعرف بعضاً ببعض » .

فتمتم : « فلوتشين . . بافل لفوفتش . وقال لنفسه : « وهذه الجميلة كانت عشيقتي » .

والثد هذا إلخاطر وأراد أن يتظاهر أمام فلوتشين بغير الواقع وإن كان قد اذمه الشعور ^{بأنه} بخسارته التي لا تعوض .

فقالت ليد : « لها في فتور : « إن أناساً يريدون أن يقابلوك » .

فأجابت ماريا إيفانوفنا : « لا أستطيع الذهاب إليهم الآن » .

فألحت ليدا : « ولكنهم ينتظرون » .

فنهضت ماريا إيفانوفنا بسرعة وراقب سائين أخته وقالت هذه : « ألا تذهبون إلى الحديقة ؟ إن الجو هنا حار لا يطاق » ومضت الحديقة دون أن تتلفت وراءها .

وكأنما سمحرتهم فتبعوها وكأنما كانوا مقيدين إليها بخصل شعرها فلو شاعت لجرتهم إلى حيث راقها وكان أسبقهم فلوتشين الذي سباه حسنها ونسى كل ما عداه .

وجلس ليدا على كرسي هزاز تحت شجرة الزيزفون ومدت فديها الصغيرتين الجميلتين في جواربها الشفافين الأسودين وحداها القصيرين وكأنما كانت لها طبعتان إحداها كلها أدب وخجل ، والثانية كلها إحساس بنفسها وحسن دلالها . وكانت الأولى تغريها باستفطاع الرجال والحياة ونفسها .

ثم قالت وهي مطرقة : « والآن يا فلوتشين أى أثر كان لبلدنا الصغيرة الفقيرة النائبة في نفسك ؟ » .

فأجابها فلوتشين وهو يفرك كفيه : « تأثير الزهرة المونقة تصافح عين الموغل في قلب الغابة المظلمة » .

ثم بدأ حديث فارغ متكلف . كل ما يجري به اللسان منه كاذب راف وكل ما يطرونه هو الصادق . وجلس سائين في صمت يصغي إلى أحاديث النفوس الصامتة المخلصة التي كانت تنطق بها الوجوه والأيدي والأقدام

واضطراب نبرات الصوت . وكانت ليذا شقية وفلوتشين يشاق بهاها
وسارودين يمتقها ويمقت سائين وفلوتشين والدنيا جميعها وكان يحب أن يفارقهم
ولكنه لم يستطع أن يتحرك ونازعه نفسه أن يأتي أمراً فاضحاً غير أنه لم يسعه
إلا أن يدخن سيجارة بعد أخرى وهو أشد ما يكون رغبة أن يعلن إلى
الحضور أن ليذا عشيقته .

وعادت ليذا فسألت فلوتشين « وكيف تحب المقام هنا ؟ ألا تأسف
لتركك بطرسبرج وراءك » ونفسها تتقطع حسرات وهي تعجب لأمرها
لماذا لا تنهض وتدعهم .

فقال فلوتشين بالفرنسية ولوح بيده وحلق في ليذا : « على العكس ! » .
فقالت ليذا بدلال « اسمع ! اسمع ! دعنا من الخطب الجميلة » وكان
جسمها يقول لسارودين « إنك تظنني شقية أليس كذلك ؟ وأنني سحقت ؟
ولكنك يا صاحبي مخطيء ! أنظر إلى ! » .

فقال سارودين : « يا ليذا بروفنا ! كيف تسمين هذا خطبة جميلة » .
فسأله ليذا بجموة : « عفواً ياسيدي ماذا تقول ؟ » كأنما لم تكن سمعته
ثم عادت إلى كلام فلوتشين بلهجة أخرى :

« حدثنا عن الحياة في بطرسبرج . إننا هنا نعيش كالنبات » .

ورأى سارودين أن فلوتشين يبتسم لنفسه ابتسامة من لا يصدق أن
سارودين كانت له بها علاقة متينة فعوض شفتيه وتوجع .

فتعلقت عين فلوتشين بجمال ليذا وانطلق يهضب وكأنه القرد الصغير
يهنئ بما لا يفهم وقال : « حياه بطرسبرج الشهيرة ؟ إنني أؤكد لك بشرفي أن
حياتنا مملّة لا لون لها . ولقد كانت هذه الحياة إلى ما قبل اليوم كذلك في
بطرسبرج وفي غيرها » .

فقالت ليذا وأطبقت جفونها : « أ كذلك تقول ؟ » .

وأتم فلوتشين كلامه فقال : « إن الذى يجعل للحياة قيمة ... هو المرأة الجميلة . وما ظنك بالنساء فى المدن الكبرى ؟ آه لو ترينهن ! وصدقينى إلى مقتنع بأنه لن ينقذ الدنيا ويخلصها — إذا كان شىء من ذلك مقدوراً لها سوى الجمال » ولم يكن يريد أن يقول هذا ولكنه نطق به فجأة لظنه أنه أليق ما يكون وكانت لحظة وجهه ناطقة بالغباء والشره وهو يكرر فى حديثه إلى موضوع المرأة الذى لم يكن أشهى منه عنده . وكان سارودين يحمر تارة ويصفر أخرى من الغيرة فلم يطق الجلوس فى مكان واحد فنهض وجعل يتمشى وقال فلوتشين :

« إن نساءنا كلهن سواء كل واحدة منهن صورة طبق الأصل من الأخرى . فمن طلب امرأة يستحق جمالها العبادة فليذهب إلى الأقاليم حيث الأرض بكر تخرج آنق الأزهار » .

فحك سائين قفاه ووضع إحدى رجليه فوق الأخرى .

ف قالت ليذا : « وما خير ان تنفتح هذه الأزهار هنا إذا لم يكن ثم من هو أهل لقطفها ؟ » .

فاهتم سائين فجأة وقال لنفسه : « آها ! أهذا ما تقصد إليه » والتذ هذا التلاعب بالألفاظ .

فسألها فلوتشين : « أهذا ممكن ؟ » .

فأجابته ليذا بحرارة : « نعم هو كذلك ! وإني لأعنى ما أقول من الذى يقطف أزهارنا السيئة الحظ ؟ ما هؤلاء الرجال الذين نحسبهم أبطالا ؟ » .

فسألها سارودين : « ألا تظنين أنك قاسية علينا فى هذا الحكم ؟ » .

فقال فلوتشين : « كلا ! إن أيدا بتروفا مصيبة ! » ونظر إلى سارودين

فانقطع تيار فصاحته . فضحك ليذا ضحكا عاليا وأثارت نظرها إلى سارودين وقد امتزجت فى نفسها عواطف الحجل والأسى والانتقام وعاد فلوتشين إلى الكلام وجعلت ليذا تقاطعه بالضحك لتخفى دموعها .

فقال سارودين : « أظن أن الوقت قد أزف فلنقم » وأحس أن الموقف لا يَحتمل ولم يكن يدرى لماذا . ولكن كل شيء — ضحك ليدا ونظراتها الساخرة واضطراب يديها — كان له وقع اللاسكَم على الأذن وأصنائه بغضه المتزايد لها وغيرته من فلوتشين وشعوره بما فقد . فسأله ليدا : « بهذه السرعة ؟ » .

فأقر ثغر فلوتشين ولحس شفثيه بطرف لسانه وقال بلهجة المتهمك وقد زهاه انتصاره : « لاحيلة لنا . إن فيكتور سارودين على ما يظهر متغير » .

وودعوا ولما انحنى سارودين على يد ليدا همس : « إن هذا فراق بيني وبينك » ولم يشعر ليدا بمثل هذا المقت .

ونازعت ليدا نفسها هنيهة أن تودع تلك الساعات الخالية ساعات الحب التي نعيمها بها ولكنها خنقت هذه الرغبة وقالت بصوت خشن عال : « الوداع سفر سعيد ! لا تنسنا يا بافل لفوفتش ! » .

ولما انصرفا كانت ليدا وأخوها يسمعان فلوتشين وهو يقول :

« ما أفتنما : أنها تسكرني مثل الشمبانيا ! » .

وجالست ليدا على الكرسي الهزاز وتغيرت هيئتها ومالت إلى الأمام وأطرقت وجعلت ترحف ودموعها تنساقط .

فقال سارين وتناول بدها : « تعالى ! تعالى ما الخبر ؟ » .

فمالت ليدا : « آه ؟ دعني ! ما أفضع الحياة » وتدلَّى رأسها وغطت وجهها براحتيها وكانت ضفيريها الناعمة المصقولة قد زلت عن كتفها إلى صدرها .

فقال سارين : « ما خير أن تبكى لمثل هذه التوافه ؟ » .

فتمتمت ليدا : « أو ليس في الدنيا إداً من هم خير من هؤلاء الرجال ؟ » .

فابتسم سارين وقال : « كلا ! على التحقيق . إن الإنسان سافل بطبيعته .

فلا تتوقعي منه شيئاً من الخير وإذا وطئت نفسك على هذا لم يحزنك ما يصيبك من شره .

فرفعت ليديا إليه عينيها الجميلتين المغرورقتين وسألته :
« أولا تنتظر أنت كذلك شيئاً من الخير من أبناء جنسك؟ » .
فأجابها ساني : « كلا ! بالبداية . إني أعيش في هذه الدنيا وحدي » .

— ٢٨ —

في اليوم التالي ذهب دونيكا تعدو إلى ساني ورأسها عار وكذلك قدمها وكان في الحديقة وصاحت به وفي عينيها آيات الفزع :
« فلاديمير بتروفتش ! قد جاء الضباط وهم يطلبون أن يحادثوك ! »
ورددت هذه الكلمات كأنما كانت درسا حفظته عن ظهر قلب .

فلم يعجب ساني إذ كان يتوقع ذلك من سارودين وسألها بلهجة المغتبط المازح : « هل يشناقون جداً أن يقابلوني؟ » .

ولا بد أن تكون دونيكا توقعت شيئاً مزعجاً ذلك أنها لم تخف وجهها بل طففت تحديق في وجه ساني وترنو إليه رنو العطف والذهول .

فأسند ساني فأسنه إلى شجرة وشد حزامه ومضى إلى البيت في تؤدة على عادته وكان يقول لنفسه : « ما أسخفهم وأشد غباءهم ! » وهو يفكر في سارودين ورسولييه ولم يكن يقصد بهذا إلى الطعن فيهن بل إلى مجرد الإعراب عن رأيه الصريح المخلص في سلوكهم .

ولقي في طريقه ليديا خارجة من غرفتها فوقفت على العتبة ووجهها باهت ممتقع وعيناها قلقتان محزونتان وشفاتها تحتلجان دون أن ينبثا وكانت في هذه اللحظة تحس أنها أشقى النساء في العالم وأعظمهن جرمًا .

ورأى ماريلا إيفانوفنا جالسة على كرسي ذي ذراعين أشد ما تكون فرعا ويأسا وعلى رأسها قبعها مائلة إلى أحد خديها فألقت إلى ساني نظرة فرعة وخانها الكلام فابتسم لها وهم بأن يقف معها هنية ولكنه أثر أن يمضي لشأنه .

وكان تاناروف وفون دايتز جالسين في غرفة الانتظار جلسة صلبة ورأس كل منهما إلى زميله كأنما كانت تضايقهما ثيابهما المشدودة فلما دخل سانين وقفوا في ببطء وتردد كأنهما في شك مما يجب عليهما نحوه . فقال سانين بصوت عال : « عما صباحاً » ، ومد إليهما كفه فتردد فون دايتز وانحنى تاناروف وبالغ في الانحناء حتى لا استطاع سانين أن يرى قفاه وعاد سانين فقال :

« أي خدمة أستطيع أن أقدمها لكما ؟ » ولم تفتته بمبالغة تاناروف في التأديب وعجب له كيف وسعه أن يقوم بدوره السخيف بهذا الاطمئنان . فاعتدل فون دايتز وأراد أن يكسب وجهه الممطوط كوجه الحصان هيئة الجدد والوقار إلا أنه لم يفلح في هذا الذي عاجله لفرط اضطرابه . ومن الغريب أن تاناروف — وهو في العادة سخيف حيي — هو الذي خاطب سانين بلهجة حاسمة متزنة فقال :

« إن صديقنا فيكتور سارودين قد أولانا شرفاً بأن طلب إلينا أن نمثله في أمر معين يعنيكما » — ألقى هذه الجملة بإحكام الآلة وضبطها . فقال سانين : « أهو ! » بوقار مضحك وفتح فمه على آخره وهضى تاناروف في كلامه معبساً قليلاً :

« نعم ياسيدى . أنه يرى إن سلوكك نحوه لم يكن .. أحسن .. أ... » . فقاطعه سانين وقد بدأ صبره ينفذ : « نعم نعم . فهمت . لقد كدت أطرده من البيت لكزا برجلي فقولك لم يكن « أحسن .. » أقل العبارات صلاحاً للمباراة عما حدث » .

فأم يلتفت تاناروف إلى هذا الكلام وقال :

« حسن ياسيدى . إنه يصبر على أن تسحب ألفاظك » .

وأيده فون دايتز بنعم نعم وكان ينقل رجليه كالجواد فابتسم سانين وقال : « أسحب ألفاظي ؟ كيف أستطيع أن أفعل ذلك ؟ إن الكلمة كالأثر خرج من قفصه ! » .

فحار تاناروف وارتهك وحدث في وجه سائين بدل أن يرد عليه وقال
سائين لنفسه « واسوأنا لعينيه ! » ثم استأنف تاناروف الكلام وهو
مغضب : « إن هذه ليست بالمسألة التي يجوز فيها المزاح فهل أنت مستعد
لسحب كلامك أم غير مستعد ؟ » .

فصمت سائين برهة وجيزة وقال لنفسه « ما أغباه » وهو يتناول كرسيًا
ثم جلس وقال بلهجة الجدل : « ربما كنت مستعدا أن أسحب كلامي لأرضي
سارودين وأسكن نفسه لاسيا وأنا لأعلق أضبال أهمية بما قلت له . ولكن
سارودين أولا لغبائه أبي أن يفهم الباعث لي على كلامي ثم هو يأتى الآن
إلا أن يلغط بالأمر بدل أن يضبط لسانه ثم أتى ثانياً أمقت سارودين كل
المقت ولست أرى في هذه الظروف أى مبرر لسحب كلامي » .

فقال تاناروف بصوت أشبه بالصفير : « حسن جدا . وإذا ... » .

وحلق فون دايتز مذهولا واصفر وجهه الطويل .

وعاد تاناروف فقال بصوت عال أراد به الوعيد : « في هذه الحالة » .

فزاد كره سائين لهذا المخلوق وهو ينظر إلى جبهته الضيقة وثيابه
المشدودة وقاطعه قائلا : « نعم نعم . إني أعرف كل ذلك . ودعاني أقل
لكما شيئاً واحداً وهو أنى أنوى أن لا أبارز سارودين » .

فاستدار فون دايتز بحده ومط تاناروف جسمه وسأله بلهجة المحتقر :

« ولماذا من فضلك ؟ » .

فانفجر سائين ضحكاً وزال كرهه له بأسرع مما جاء وقال :

« محسن . أذكر لك السبب . إني أولا لا أريد أن أقتل سارودين وأنا —

ثانيا — أقل رغبة في أن يقتلني أحد » .

فقال تاناروف باحتقار : « ولكن ... » .

فقاطعه سائين ووقف : « لن أبارزه والسلام . لماذا ؟ إني لا أميل إلى

تعليل شيء أو تفسيره لكما ، وإن ما طلبان لأكثر مما لكما الحق فيه » .

وكان احتقار تاناروف لهذا الرجل الذى يأتى أن يبارز ممتزجاً باعتقاده

أن الضابط وحده هو الذى رزق الشجاعة والإحساس بالشرف اللذين لهذا العمل . ومن أجل ذلك لم يدهشه أن يرفض سائين بل لعل الرفض سره . فقال بلهجة زارية :

« هذا شأنك ولكنى لأرى بدا من تحذيرك ... »

فضحك سائين وقال : « نعم نعم ولكنى أنصح لسارودين أن لا ... » .
فقاطعه تاناروف وهو يتناول قبعته سائلا : « أن لا يفعل ماذا ؟ »
فقال سائين : « أنصح له أن لا يلمسنى وإلا جلدته حتى .. » .
فصاح فون دايتز هائجا : « اسمع ! إني لأستطيع أن أحتمل هذا .. إنك .. إنك إنما تضحك منا . ألا تعلم أنك برفضك أن تبارز » .
وكان وجهه أحمر وعيناه جاحظتين . والزبد على فمه فنظر سائين إلى فمه مستغربا وقال : « وهذا هو الرجل الذى يعد نفسه من تلاميذ تولستوى ! » .
فقلق فون دايتز وطوح رأسه وتمتم وهو مستحى من أن يخاطب بهذه اللهجة من كان صديقا له إلى آخر لحظة : « إني مضطر أن أرجوك أن لا تذكر هذا . فإنه لا شأن له بموضوعنا » .

فأجابه سائين : « أوليس لهذا شأن بما أذكرتك ؟ حقيقة ؟ إن له لدخلا كبيرا » .
فنعق فون دايتز : « ولكنى مضطر أن أرجوك .. » .
وقال تاناروف : « إن هذا كثير حقيقة .. » .

فقال سائين وتراجع مشمئزا من فون دايتز وكانت شفته تنثران ريقه :
« آوه . كفى كفى ! طنا ماشتا فما يعننى ظنكما وقولا لسارودين إنه حمار » .
فصاح فون دايتز : « ليس لك حق ياسيدى . أقول ليس لك حق » .
وقال تاناروف مقتنعا : « حسن جدا . دعنا نذهب » .
فصاح فون دايتز ولوح بذراعيه : « كلا ! كيف يجرؤ ؟ ... أى حق .. إن هذا .. » .

فنظر إليه سائين هنيئة وأوما محتقرا وخرج من الغرفة . فصاح به تاناروف : « سنبليغ رسالتك إلى زميلنا الضابط » .

فقال سانين : « افعل ماشئت » ولم يلتفت وراءه وكان يسمع تاناروف يعالج أن يهدى روع فون دايتز فقال لنفسه « ان هذا الفتى سخيف في العادة ولكنه بصير عاقل إذا كانت المسألة من اختصاصه » .

وصاح فون دايتز وهما خارجان « ان المسألة لا يمكن أن يسمح لها بالانتهاء عند هذا الحد » .

ونادت ليدا أخاها من غرفتها « فولودحا » .

فوقف سانين وسألها : « ماذا ؟ » .

أجابت : « تعال . فيني أريد أن أحادثك » .

فدخل سانين غرفة ليدا وكان العطر يفعم الأنف فيها فقال سانين : « ما أحلى أن يكون المرء هنا » وكانت ليدا تواجه النافذة والأضواء المعكوسة عن الحديقة تضطرب على خديها وكتفيها .

فسألها سانين برفق : « ماذا تريدني مني ؟ » .

فصمت ليدا وأسرت أنفاسها .

فسألها ثانية : « ما الخبر ؟ » .

فقالت بصوت أجش ولم تلتفت إليه : « ألا تنوى أن تبارزه ؟ » .

أجابها : « كلا » . فصمت ليدا وقال سانين : « وماذا إذا ؟ » .

فاضطربت ذقن ليدا والتفتت إليه بسرعة وقالت : « إنى لا أفهم هذا . . . لا أستطيع أن . . . » .

فقاطعها سانين متجهما وقال : « إذا فإن أسنى عليك عظيم » .

وأحس أن الغباء والشر يحيطان به من كل جانب وغازه أن يجد هذه الصفات في الأشرار والأخيار والقباح والحسان على السواء فاستدار وخرج .

وراقبته ليدا وهو يخرج ورأسها بين يديها ثم ألقت بنفسها على السرير

وامتدت ضفيرتها السوداء الطويلة على الغطاء الأبيض فبدت في هذه اللحظة على الرغم من يأسها أصعب وأينع .

وكانت النافذة ترسل النور والحرارة والعطر : ولكن ليذا لم تلتفت إلى شيء من هذا .

كان الوقت أصيلاً بارع الجمال ومساء من تلك المسى التي تفيضها على الأرض في أخريات الصيف قبة السماء اللازوردية وكانت الشمس قد مالت صوب المغرب ولكن الضوء كان وضاحاً والجو صافياً رائقاً والندى كثيراً والتراب الذي ثار في بطنه يعقد شفوفاً دون السماء . والأصوات تسبح هنا وههنا كأنما تحملها أجنحة سريعة .

وكان سانين يسير في الطريق المعفر ورأسه عار وعلى جسمه قبضه الأزرق حائل اللون قليلاً عند الكنفين ثم مال إلى درب كثير النجائل ميمماً بيت إيفانوف .

وكان إيفانوف جالساً عند النافذة عريض الكتفين يادى الجذ وشعره الطويل مرسل عن جبهته إلى يافوخه وأمامه الطباقي يصنع منه لفائف والحديقة ترسل إليه النسيم رطباً بليلاً وأوراق الأشجار أمامه يومض فيها الطل . ورائحة الطباقي القوية تغريه بالعطاس . فقال سانين ومال على حافة النافذة : « عم مساء اقم طلب إلى اليوم أن أبارز » .

فأجابه إيفانوف غير محتفل : « أى فكاهة هذه ؟ تبارز من ؟ ولماذا ؟ فقال سانين : « سارودين . فقد طردته من البيت فعد هذا إهانة » . فقال إيفانوف : « إذا فسيكون عليك أن تلاقيه . دعنى أكون شاهدك وطير له أنفه »

فقال سانين وهو يضحك ، « لماذا إن الأنف عضو جميل من وجه الإنسان . . كلا . لن أبارزه » .

فهز إيفانوف رأسه موافقاً وقال : هذا شيء حسن . والمبارزة بعد لا ضرورة إليها أبداً .

فقال سانين : ولكن أختي ليذا لا ترى هذا الرأي .
فأجابه إيفانوف : ذلك لأنها أوزة ورهاء . ما أكثر السخافات التي يؤمن بها الناس . ! » .

وفرغ من آخر لفافة وأشعلها ووضع الباقية في علبة وفتح بقايا الطباق عن النافذه ووثب منها وانضم إلى سانين وسأله :
« ماذا نصنع هذا المساء ؟ » فقال سانين مقترحاً :
« لنذهب إلى سلوفتشاك » . فقال إيفانوف : « لا لا ! » .

فقال سانين : « لماذا ! ؟ » . فقال إيفانوف : « لا أحبه : إنه كاللدودة » .
فهز سانين كتفيه وقال : « ليس شراً من غيره . هيا بنا » . فقال إيفانوف « حسن . هيا بنا » وكان لا يمتنع عن شيء يقترحه سانين فمضيا معاً . ولكن سلوفتشاك لم يكن في البيت وكان الباب موصداً والفناء موحشاً وليس به إلا « سلطان » يجرجر سلسلة طوقه فنبههما فقال إيفانوف :
« ياله من مكان موحش . دعنا نذهب إلى الميدان » .

فعادا ونبههما الكلب مرتين أو ثلاثاً ثم أقبع أمام مبيته .
وراح ينظر إلى الفناء المهجور الموحش وإلى الطاحون الصامتة وإلى آثار الأقدام على الحشائش المعفرة .

وكانت فرقة الموسيقى تعزف في الميدان على عادتها والنسيم يهب عليلاً والمشتزهون كثير تسير جموعهم إلى الحدائق الظليلة تارة وإلى المدخل الحجري الضخم أخرى .

وما كاد سانين وإيفانوف يدخلان وذراعاهما مشتبهكتان حتى لقيا ساوفتشاك وكان يسير وهو مطرق ويداه وراء ظهره فقال سانين : « لقد مررنا الساعة بدارك » .

فاحمر وجهه ساوفتشك وابتسم وقال مجيباً :
« أسألك العفو . وإني لعظيم الأسف ولكنه لم يخطر لي قط أنك ستزورني
اليوم وإلا للزمت البيت . لقد خرجت طالباً للرياضة قايلاً » والتمت
عيناه .

فقال له سائين بلهجة العطف وأمسك بذراعه : « تعال معنا » وكأنما
ابتهج ساوفتشك فأطبق على ذراعه ودفع قبحته إلى قفاه وسار معهما
وكانه ممسك بشيء ثمين لا بذراع سائين وكان يخيل إليك أن فيه يصل من
أذن إلى أذن .

وكان رجال الفرقة حمر الوجوه منتفخي الحدود يرسلون أصوات
آلاتهم النحاسية المصمة ويحتشم رئيسهم ملوحاً بعصاه بحماسة . وحول
الفرقة طوائف من الكتبة وعمال الخوانيت والصبيان والبئات وعلى أجيادهم
مناديل زاهية الألوان . وفي طرقات الحديقة وممراتها طائفة مريحة من الضباط
والطلبة والسيدات .

ومالبت أصحابنا الثلاثة أن قابلوا ديبوفا وشافروف ويورى فتبادلوا
معهم البسمات . وبعد أن طافوا بأرجاء الحديقة كلها قابلوا سينا كرسافينا
فانضمت إليهم وسألته ديبوفا :

« لماذا تسيرين وحدك » وقال بعضهم : « تعال معنا » :

واقترح شافروف : « ميلوا بنا إلى ناحية منعزلة فلإن الزحام هنا شديد » .
فألوا إلى مكان أهدأ وأكثر ظلاً وهم يضحكون ويتحدثون . ولما بلغوا
آخره وهموا أن يعرجوا على سواه التقوا بسارودين وتاناروف وفلوتشين
وأدرك سائين أن سارودين لم يكن يتوقع أن يلتقى به هنا وأنه اضطرب
اضطراباً شديداً فتمد تجهم وجهه ومط جسمه . وضحك تاناروف ساخرآ .

وقال إيفانوف لسائين : « إن هذا القرد الصغير لا يزال هنا » ونظر إلى
فلوتشين وكان هذا لم يرههم إذ كان في شاغل من سينا وكانت سائرة في طليعتهم
حتى لقد التففت وراءه لينظر إليها .

فقال سانين : « نعم لا يزال هنا » .
 وظن سارودين أن تاناروف إنما يقصده هو بضحكه فتاوى كأنما كان
 جلد وثارت نائرة غضبه وترك زميله واندفع إلى سانين .
 فقال سانين « ماذا ؟ » ووجد جملده وعينه إلى سوط صمير في يد سارودين
 المرتجفة وقال لنفسه : « ما أحملك ! » . وخامره العطف عليه والغضب
 منه . فقال سارودين بصوت مبجوح :
 « أريد أن أقول لك كلمة . هل تلقيت دعوتي ؟ » .
 فقال سانين وعينه ترصد كل حركة ليد الضابط : « نعم » .
 فسأله سارودين : « وهل استقر رأيك على أن ترفض .. » . أن تعمل
 ما ينبغي لكل رجل محترم أن يعمل في مثل هذه الظروف ؟ » .
 وكان صوته متهدجا مخنوقاً وإن كان عالياً حتى لأنكره هو نفسه ولم
 تواته الشجاعة على التحول عن الطريق الذي أمامه .
 فسكنت الحديقة فجأذ كأنما لم يعد بها هواء ووقف الباكون من الناحيتين
 سكوتاً مرتبكين منتظرين .
 وحاول إيفانوف أن يتدخل فقال : « آوه ! أى شيطان .. » .
 فقاطعه سانين موجهاً كلامه إلى سارودين وقال بصوت غريب في هدوئه
 واتزانته وهو يحرق في عينه : « أرفض بالطبع » .
 فأسرت أنفاس سارودين كأنه يرفع ثقلاً جسيماً :
 وسأله مرة أخرى بصوت رنان : « أسألك مرة أخرى — هل ترفض ؟ » .
 فاصفر سلوفتشك وقال لنفسه : واأسفاه إنه سيضربه »
 ثم تتم وهو يحاول أن يحمي سانين « ماذا ؟ ماذا جرى » هـ
 فلم يلتفت إليه سارودين ودفعه عنه بخشونة ولم ير أمامه إلا عين سانين
 الهادئتين الباردتين .
 وقال سانين بنفس هذه اللهجة : « لقد قلت لك هذا مرة » .
 ففاج كل شيء في نظر سارودين وسمع خلفه أقداماً سريعة الخطى

وصرخة امرأة وأحس من اليأس ما يحسه من يسقط في هاوية فلولح
في الهواء بسوطه .

وفي هذه اللحظة نفسها جمع سائين كل قوته وأكفه في وجهه بجمع يده
فصاح إيفانوف ولم يملك نفسه : « حسن ! » .

فتدلى رأس سارودين على كتفه وفاض على أنفه وفه شيء حار أحس
له وخزاً في دماغه وعينيه وتوجع وسقط على يديه وأفلت السوط من كفه
وزلت قبعته عن رأسه ولم ير شيئاً ولا سمع شيئاً . ولا شعر إلا بالفضيحة
الشنيعية وبالألم الكاوي في عينيه . وصرخت سينا . « يا آلهي ! » وأمسكت
رأسها بكلتا يديها وأغمضت عينها . واستفزع يوري منظر سارودين وهو
راقد على يديه ورجليه . فاندفع إلى سائين ووراءه شافروف . أما فلوتشين
فزلت نظارته عن أنفه لما تعثر وعدا بأسرع ما يستطيع على النبات البليل
حتى أسودت سراويله البيضاء الناصعة إلى الركبتين .

وقرض تاناروف أضراسه هائجا وتقدم مثل يوري ولكن إيفانوف أمسك
بكتفه وردده . فقال سائين باحتقار :

« هذا حسن . دعه يقبل » وكان واقفاً ورجلاه منفرجتان وأنفاسه
بطيئة والعرق يتصبب عن جبينه .

ونفض سارودين بطيئاً وندت عن شفتيه الوارمتين المرتجفتين ألفاظ
وعيد خافتة غير مفهومة رآها سائين غاية السخافة والبله :

وكان الجانب الأيسر كله من وجه سارودين قد انتفخ وورم ولم تعد
عينه ترى والدم يسيل من فمه وأنفه وجسمه كله يرد كأنما ترعشه الحمى .
ولم يبق شيء من ذلك الضابط الرشيق الوسيم .

فقد سلبته هذه الأكمة الفظيعة كل مظهر إنساني ولم تدع إلا كتلة مشوهة
مستبشرة تبعث على العطف والمرثية ولم يحاول أن يمضي أو أن يدفع عن نفسه
وجعلت أسنانه تصطك وهو يبصق الدم ونفض الرمل عن ركبتيه ثم دار
رأسه فمال إلى الأمام وستط على الأرض مرة أخرى .

فصاحت سينا : « ما أفضع هذا ! ما أشنع ! » وأسرعت فغادرت المكان . وقال سانين لإيفانوف : « هيا بنا » ونظر إلى السماء حتى لا تقع عينه على هذا المنظر البشع .

فقال إيفانوف : « تعالى معنا يا سلوفتشك » .
ولكن سلوفتشك لم يتحرك بل ظل يحدق في سارودين وفي الدم والرمل القذر على ثيابه البيضاء وهو يرجف وشفته تتهلجان .
فجره إيفانوف بعنف ولكن سلوفتشك دفعه بحدة عجيبة ثم التصق بجذع شجرة كأنما يريد أن يقاوم من يجره بالقوة .
وقال : « لماذا ؟ لماذا فعلت هذه الفعلة ؟ » .

وصاح يورى في وجه سانين « ما أنذل هذا العمل ! »
فأجابه سانين وعلى فيه ابتسامة ساخرة : « نعم نذالة ! هل كان يكون خيراً في رأيك لو تركته يضربني ؟ » ثم أشار بيده وحث خطاه ورمى لإيفانوف إلى يورى نظرة ازدراء وأشعل سيجارة وتبع سانين على مهل وقال له ظهره العريض وشعره المصقول « ما أقل ما أثر فيك هذا المشهد ! » وقال هو لنفسه « ما أقدر الإنسان على أن يصير وحشاً ! » .

ونظر سانين وراءه مرة ثم مضى مسرعاً .
وقال يورى وهو يمضى « مثل الوحوش تماماً » .
وتلفت وراءه فإذا الحديقة التي كانت جميلة لطيفة قد صارت بعد الذى وقع مكاناً موحشاً جهما معزولاً عن سائر العالم .
وتنفس شافروف الصعداء وتلفت من وراء نظارته في كل جهة كأنما يتوقع أن تتكرر هذه الفظيعة في أية لحظة .

(٣٠)

تغيرت حياة سارودين كل التغير في لحظة . كانت رحبة سائلة كلها مرح فعادت الآن مشوهة لا تحتمل وسقط التمتع الضاحك وبدا وجه الوحش القديم

وكان تاناروف قد حمله إلى مسكنه في مركبة فجعل في الطريق يبالغ في التألم والتظاهر بالضعف حتى لا يفتح عينيه وبذلك ظن أن يجتنب تعبير آلاف العيون له كلما وقعت عليه وكان يخيل إليه أن ظهر السائق والمارة والوحوه المتطلعة من النوافذ وذراع تاناروف حول خصره . كل ذلك ليس إلا عبارات صامتة عن الاحتقار . ولج به هذا الشعور المؤلم حتى كاد يغشى عليه فأحس أن رشده يكاد يعزب وتمنى الموت وأبى أن يعترف بالواقع وظل يعالج أن يتصور أن هناك خطأ أو سوء تفاهم وأن خطبه ليس من الهول بحيث يتصور . ولكن الحقيقة الواقعة بقيت كما كانت فصار يأسه أظلم .

وشعر سارودين بأن أيديا تساعده وأنه يتالم وأن يديه ملوثتان بالدم والاقذار وعجب لنفسه كيف لا يزال يشعر بهذا وكانت المركبة ربما مالت إلى طريق آخر عند ركن حاد فيفتح عينيه ويرى ما ألفت من الشوارع والمنازل والناس والكنيسة — كل شيء كما كان لم يلحقه تغيير ولكن كل شيء كان يبدو له غريبا مناصبا . وكان المارة يقفون ويحلقون فيغمض سارودين عينيه نخجلا ويأسا . وكان الطريق لا آخر له ثم تصور وجوه نخادمه وربة البيت والجيران فود لو يطول الطريق إلى غير نهاية وأن يظل ماضيا هكذا إلى غير غاية وعيناه مغمضتان

وكان تاناروف أعظم ما يكون استنضاحا لهذا الموكب . فجعل ينظر أمامه وهو مضطرب أحمر الوجه وحاول أن يوقع في روع النظارة أنه لا شأن له على الإطلاق بهذه المسألة . وكان في أول الأمر يدعى العطف على سارودين ثم لم يلبث أن لزم الصمت وربما استحث السائق من حين إلى حين وأسنانته مطبقة فأدرك سارودين من هذا ومن تراخي ذراعه حوله بل من دفعه به أحيانا — ما يحسه تاناروف وجاء إدراكه هذا أن رجلا كتاناروف دونه بمراحل صار يخجل منه مغريا له بالاعتقاد أن كل شيء قد انقضى . ولم يستطيع سارودين أن يجتاز فناء السدار بغير معين فكان علي

تاناووف والخادم المذهول أن يحمله ولم ير سارودين غيرهما ثم وضعاه على الفراش ووقفأ أمامه مترددين لايعلمان ماذا يصنعان فهاج ذلك سارودين ولما عادت إليه نفسه جاء الخادم بماء ساخن ومنشفة وغسل له وجهه ويديه وكان سارودين يتجنب عينه ولكن وجه الخادم لم يكن فيه شيء من دلائل الشر أو الزرابة ولم يكن المرء يقرأ فيه سوى آيات العطف والقلق . وهو يتمتم :

« كيف حدث ذلك ياسيدي ؟ واأسفاه ! واأسفاه ؟ ماذا فعلوا به ؟ » .
فصاح تاناووف مغضباً : « هذا ليس شأنك » وتلفت حوله مضطرباً ثم مضى إلى النافذة وأخرج سيجارة ولكنه تردد ولم يدر أيليق به وسارودين ملقى هناك أن يشعلها فردها إلى موضعها من العلبة ودفعها في جيبيه .

وقال الخادم ولم يصدمه ما أصابه من سوء الرد :

« هل أدعو الطبيب » . فمد تاناووف أصابعه متردداً وقال :

« لا أدري » بصوت آخر غير الاول وأدار وجهه وسمع سارودين هذه الكلمات واستهول أن يرى الطبيب وجهه المحطم فتمتم بضعف : « لا أريد أحداً » كأنما يعالج أن يقنع نفسه وغيره أنه سيموت . ولما طهر وجهه من الدم والأفئدة لم يعد بشعاً بل لعله صار أبعث على العطف . فنظر تاناووف مسرعاً ثم صرف عنه عينه ولمح سارودين هذه الحركة على خفائها وناله منها ألم ويأس لا سبيل إلى العبارة عنهما فأطبق جفونه وصاح بصوت متقطع تخنقه العبرات : « اتركاني آوه ! آوه ! »

فرماه تاناووف بنظرة أخرى وتماكه السخط عليه والاحتقار له وقال لنفسه بارتياح خبيث : « لأنه يهيم فعلاً بالبكاء » .

وكان سارودين مغمضاً عينيه هادئاً فنقر تاناووف بأصابعه على حافة النافذة ولوى شاربيه وتلفت حوله ثم أطل من النافذة واشتاق أن يخرج ولكنه قال لنفسه : « لا أستطيع ذلك الآن . ما أمله ! الأوفق أن أبتى حتى ينام » .

ومضى ربع ساعة أخرى وسارودين لا يهدأ وتاناروف على أحر من الجمر قلقلنا . وأخيراً هدا ولم يعد يتحرك فسر تاناروف وقال : « آها ! لقد نام . نعم وأنا واثق من ذلك » .

ومشى بحذر وخفة حتى لم يسمع صوت مهمازه : ولكن سارودين فتح عينيه فجأة . فوقف تاناروف . وأدرك سارودين ما انتواه صاحبه وعرف تاناروف أنه افترض . ثم حدث أمر غريب : أغمض سارودين عينيه وادعى النوم وحاول تاناروف أن يقنع نفسه بأن صاحبه نائم وإن كان على يقين جازم بأنه يراقبه ويرصد حركاته . وهكذا زحف من الغرفة وهو منحني يحس كأنه خائن محكوم عليه .

وأغلق الباب وراءه في رفق . وهكذا انبثت روابط الصداقة التي كانت بينهما إلى الأبد . وأحس كلاهما أن هاوية لاسبيل إلى تخطيها قد احتفرت بينهما . وأنهما صارا غريبين .

ولما صار تاناروف في الغرفة الخارجية خلاصة أنفاسه ولم يأسف على انقطاع الصلة بينه وبين من فضى كثيرا من سنى حياته معه . وقال للخادم على سبيل المدارة .

« اسمع . سأذهب الآن . وإذا جد شيء .. إنك تفهم .. » .

أجاب : « حسن جدا ياسيدى » .

— « أنت الآن تعرف . غير الضمادات كثيرا » .

وأسرع إلى السلم ومنه إلى بوابة الحديقة ثم أخرج نفساً عميقاً طويلاً لما رأى الشارع الساكن العريض وكان الظلام قد زحف فسر أنه يستطيع أحد أن يرى احتقان وجهه

وقال لنفسه : « من يدري اقد يزجون بي في هذه المسألة الفاضحة ؟

ولكن ما شأنى بها ؟ » .

وهبط قلبه في صدره لما بلغ الميدان وحاول ، أن يهدى روعه وأن ينسى أن تاناروف دفعه بقوة حتى كاد يسقط إلى الأرض .

« إلى الشيطان بها ! ما أشأمها حادثة ! إن سببها كلها سارودين لماذا راح يصاحب مثل هذا الوحش ؟ » .

وكان مستعدا أن يلوح في وجوه المارة امارات السخرية والتهكم فلو تعرض له أحد لاستل سيفه . ولكنه لم يلق الاقليين كأنهم الظلال المتحركة يمضون مسرعين . ولما بلغ البيت صار أهذا وكردهنه إلى صدمة تاناروف فقال : « لماذا لم أضربه ؟ لقد كان يجب على أن ألكمه على فكه . وكنت أستطيع أن استعمل سيفي . وكان في جيبي مسدس أيضا . ولقد كان يجب أن أقتله به كالكلب . ألا كيف نسيت المسدس ؟ من يدري عسى أن يكون هذا خيرا . ولنفرض أني قتلته ؟ إذا كانت المسألة تصبح في أيدي البوليس ولعل بعض الموجودين كان معه مسدس أيضا . حالة لطيفة أليس كذلك ؟ وعلى كل حال فلا يعلم أحد أنه كان معي سلاح . وستنسى المسألة تدريجيا »

وتلفت تاناروف بحذر وهو يخرج مسدسه ويضعه على المنضدة وقال : « يجب أن أذهب إلى الكولونل حالا وأن أفهمه أن لاشأن لي بهذا الموضوع ولا دخل لي فيه » وأغلق الدرج على المسدس ثم نازعته نفسه أن يذهب إلى نادى الضباط وأن يصف الحادثة وصف شاهد عيان وكان الضباط قد سمعوا بها في الحدائق العامة فارتدوا مسرعين إلى ناديمهم ليطلقوا العنان لسخطهم . وكانوا في الحقيقة قد سرهم ما أصاب سارودين لأن رشاقته وأناقته في ملبسه وهيئته كثيرا ما ضيعتاهم .

فاستقبلوا تاناروف بالترحيب وبالرغبة الصريحة في الاستطلاع واحس هو أنه بطل الساعة وهو يفصل الحكاية لهم وكان المرء يامح في عينه نظرة مقت لصديقه الذي كان دائما يفوقه . وذكر حادثة القرض ووقوف سارودين منه موقف المتنازل فانتقم لنفسه منه بأن أفاض في وصف ما أصابه من الهزيمة .



وفى خلال ذلك كان سارودين وحده على فراشه . وعلم خادمه بما أصابه من الناس فجعل يتنقل فى سكون ورفق وهو قلق حزين . وأعد أدوات الشاى وجاء بقليل من النبيذ وطرده الكلب الذى جعل يثب فرحا بعودة سيده ثم قال بعد برهة : « سيدى يحسن بك أن تتناول قليلا من النبيذ » .

فتفتح سارودين عينه وقال : « ماذا ؟ » وأغمضها وبجهد ما استطاع أن يحرك شفتيه وأن يطلب المرأة .

فتنهذ الخادم وجاءه بها ورفع له شمعة أمامها . وقال لنفسه : « ترى لماذا يريد أن ينظر إلى وجهه ؟ » .

فنظر سارودين فى المرأة ثم صرخ مكرها فقد رأى أمامه وجهها مشوها مسيحا أحد جانبيه أسود أزرق وعينه منتفخة وشاربه كالأشواك على خده الوارم .

« خذها عني ! خذها ! » وبكى « إلى بشىء من الماء » .

فقال الخادم وهو يقدم إليه الماء فى كوب لزج تفوح منه رائحة الشاى : « سيدى . لا تأس على ما نزل . كل شىء سيعود كما كان » : ولم يستطع سارودين أن يشرب وجعلت أسنانه تصطك بزجاج الكوب وأريق الماء على ثيابه .

فتوجع وقال بضعف : « اذهب » . وخطر له أنه مامن أحد فى الدنيا يعطف عليه غير هذا الخادم ولكن الرقة التى أحسها قلبه نحو خادمه عفى عليها الشعور بأنه محل للمرثية حتى من الخادم .

فتخرج الخادم وعيناه مغرورتان وجاس على السلم المؤدى إلى الحديقة . وتمسح به الكلب وحك أذنه بركبته ورفع إليه وجهه مستفسرا فسح الخادم شعره فى رفق وكانت النجوم مضيئة فى السماء فتوجست نفسه خيفة وأحس أن كارثة ستقع . وذكر قرينته وأهله فقال « إن الحياة كلها أسى وكرب » .

وانقلب سارودين في فراشه ولم ينتبه إلى أن الضمادة زلت عن وجهه لما دفئت وتمتم : « قد انقضى كل شيء ! حياتي كلها — ذهبت . لماذا ؟ لأنني أهنت — ضربت كالكلب — ضرب وجهي بالكلمة ! ألا لن أستطيع البقاء في فرقتي . أبداً . أبداً » .

ومثلت لعينه صورته كأوضح ما تكون وهو يجبو على يديه ورجليه ، ذليلاً مهيناً مضحك الهيئة . يخرج وعيدا سخيفا . وظل مرة بعد أخرى يحضر إلى ذهنه تفاصيل ما جرى له وكلمة تمثله طغى به الألم ولكن أوجع ما آله أذكاء ثوب سينا كرسافينا وكان قد لمح في اللحظة التي كان يقسم فيها أن ينتقم .

ثم حاول أن يدفع خواطره في مجرى آخر فقال :

« من الذي رفعتني ؟ أهو تاناروف ؟ أم ذلك اليهودي الذي كان واقفاً معي ؟ لا بد أن يكون تاناروف . على أن هذا لا يهم . إنما المهم أن حياتي انهارت وأن على أن أترك فرقتي . والمبارزة ؟ ما القول في هذا ؟ لقد انتصر على . فلا بد من تركي الفرقة » .

وذكر سارودين أن لجنة إحدى الفرق أكرهت ضابطين متزوجين على الاستقالة لأنهما رفضا المبارزة .

« وسيطلب إلى أن أستقيل كذلك بكل أدب .. بدون مصافحة .. لن يباهي أحد الآن بأن يرى معي في الميدان . أو يحسدني أحد أو يحاكيني . ولكن هذا لا شيء . إنما المهم هو العار . لماذا ؟ لأنني لكمت على وجهي ؟ لقد جربت ذلك من قبل لما كنت تلميذا في المدرسة الحربية فضربني ذلك الرجل الضخم — سفارتز — وأطار أحد أسناني . ولم ير أحد في هذا عاراً . ولكننا تصافحنا بعد ذلك وصبرنا خير الأصدقاء . ولم يحتقرني أحد يومئذ . فلماذا يكون الأمر الآن غير ذلك ؟ إن الحادثين سواء على التحقيق . ولقد سال دمي يومئذ وسقطت على الأرض . وعلى هذا .. »

ولم يجد سارودين جواباً مريحاً على هذه الأسئلة التي يبعثها اليأس :
 « لو أنه كان قبل دعوتي وضرب وجهي بالرصاص لكان هذا شراً وأوجع .
 ولكنه لم يكن يحتقرني أحد حينئذ بل على العكس كنت أفوز بالعطف
 والإعجاب . فهناك فرق بين الرصاصة والكلمة . أى فرق ؟ ولماذا يكون
 هناك فرق ؟ » .

وتتابعت خواطره سريعة غير منتظمة ولكن آلامه ومصيبته حركت على
 ما يظهر شيئاً جديداً كامناً في نفسه لم يكن يشعر به في أيام هنائه ومرحه .
 « إن فون دايتز مثلاً كان دائماً يقول إذا ضربك أحد على خدك الأيمن
 فأدر له خدك الأيسر » ولكن على أى حال من الهياج عاد من بيت سانين
 اليوم ؟ عاد يصيح مغضباً ويلوح بلذراعيه لأن سانين أبى أن يبارزنى ! إن
 الحقيقة أن غيرى ملوم على تقصيرى في جلدته وقد أخطأت في أبى لم أجده
 في الوقت المناسب . إن الأمر كله ظلم . على أن هذا هو الواقع والفضيحة
 باقية . وسيكون واجبى أن أترك الفرقة » .

وضغط سارودين بكلماته يديه على جبينه المتصدع وجعل يتقلب ويتلوى
 لأن ألم عينه كان مما يطير له العقل ثم تتم وهو هائج :

« أتناول مسدساً وأهجم عليه وأطلق على رأسه رصاصتين . . . وهناك
 وهو ملقى على الأرض أدوس بقدمى على وجهه وعينيه وأسنانه ... » .

وسقطت الضمادة إلى الأرض وسمع سارودين صوتها ففزع متراجعاً
 وفتح عينيه فأبصر حوض ماء ومنشفة ورأى النافذة المظلمة كأنها العين المرعبة
 تحديق فيه . فقال :

« لا لا ! لم تعد في الأمر حياة الآن . لقد رأى الناس جميعاً ما حدث
 وأبصرونى وأنا أزحف على يدى ورجلى آه ! يا للفضيحة والعار ! ضربت
 على وجهي ! كلا ! إن هذا أكثر مما يحتمل . ولن أكون حراً أو سعيداً
 مرة أخرى » .

ثم أعضاء في ذهنه خاطر جديد حاد .

« ومع ذلك فهل كنت حرّاً في يوم من أيام حياتي ؟ كلا ! هذا هو السبب فيما يكرهني ويحزنني الآن — لأن حياتي لم تكن حرة — لأنني لم أعش على النحو الذي يروقي . ولو أن ارادتي كانت حرة طليقة أكنت أطلب أن أبارك رجلاً أو كانت نفسي تنازعني أن أجلبه بالسوط ؟ لو كنت حرّاً لما لكمني أحد . من أول من تخيل ومتى تخيل أن الإهانة لا يغسلها إلا الدم المراق ؟ لست أنا على التحقيق . ولقد غسلتها أو هي غسلت في الحقيقة بدمي أليس كذلك ؟ ولست أدري ما معنى هذا كله ولكن الذي أدريه أنني مضطر أن أترك فرقتي » .

وكان يود لو اتجهت خواطره إلى ناحية أخرى ولكنها كانت كالطيور المهيشمة المقصوفة الأجنحة لا تزال ترجع وتكر إلى حقيقة واحدة مركزية هي أنه أهين وأنه مضطر أن يغادر الفرقة .

وذكر أنه رأى مرة ذبابة سقطت في شراب مراق فجعلت تزحف على الأرض وتجرجر أرجلها اللزجة واجتمعتها بأقصى صعوبة وكان من الواضح أن الذبابة المسكينة لا مفر لها من الموت وإن كانت لا تزال تجاهد وتبذل جهوداً عنيفة لاسترداد حرية أرجلها . ولقد أشاح يومئذ عنهما بوجهه مشمئزاً فالآن مثلت لعينيه كأنه محموم يحلم . ثم ذكر قتالا دار بين فلاحين أهوى إحداهما على وجه صاحبه بضربة مرعبة طرحته على الأرض وكان شيخاً أبيض الشعر .

فنهض ومسح أنفه الدامي بكمه وصاح : « يا لها من حماقة » .

ثم قال « نعم أذكر أنني رأيت هذا . وأنهما شربا معاً في حان « الكرون » . وهضي الليل إلا قليلاً فكان سارودين في سكونه الثقيل الوطأة الحى الشقى الوحيد فوق ظهر الأرض وكانت الشمعة لا تزال موقدة على المنضدة . ولكنه كان غارقاً في ظلام خواطره المضطربة فكان يرمقها بعين محمومة .

وكان في هذه الفوضى — فوضى الذكريات والخواطر — يرى شيئاً واضحاً هو الإحساس بوحدته إحساساً له وقع الخنجر في قلبه . وكان يحدث

نفسه أن ملايين من الناس في هذه اللحظة يقطفون أزهار الحياة ويضحكون ويمزحون ولعل بعضهم يتحدثون عنه وليس وحيداً سواه . وحاول عبثاً أن يذكر الوجوه التي ألفها فلم تبد له إلا صفراء باردة منكرة وفي عيونها نظرة استطلاع وشماتة . ثم ذكر ليذا فثلث لحياله كما رآها آخر مرة . عينها الواسعة الحزينة . والصدرية الرقيقة التي تشف عن ثديها الناعمين وشعرها صغيرة واحدة . ولم ير سارودين في وجهها لا مقتاً ولا احتقاراً . بل كانت عيناها تنظران إليه نظرات العطف والأسى . وذكر كيف ردها في أظلم ساعات حزنها فأحس لفقدائها وقع السكين واتجهت إليها روحه كأنها آخر ملجأ ومعاذ واشتاق عطفها وحنانها وخيل إليه هنيهة أن آلامه ستعفى على الماضي وتمحوه ولكنه لم يكن يخفى عنه أن ليذا لن تعود إليه وأن ما بينهما قد مضى وانقضى وأنه لم يبق أمامه سوى فراغ هائل .

رفع ذراعه وضغط بكفه على جبينه وظل كذلك لا يتحرك وعيناها مغمضتان وفمه مطبق وراح يعالج أن لا يرى شيئاً وأن لا يسمع شيئاً وأن لا يحس شيئاً ولكن يده انحدرت عن جبينه بعد قليل فجلس واشتد الصداق وعاد لسانه وكأن فيه ناراً وارتجف من فرعه إلى قدمه ثم نهض ومشى إلى المنضدة وهو يقول :

« لقد فقدت كل شيء : حياتي وليداً - كل شيء » .

وخطر له أن هذه الحياة التي قضاهم تكن لا صالحة ولا سعيدة ولا رشيدة بل حياة خرق وسفالة وشر . وأن سارودين - الوسيم الخليق بخير متع الدنيا وأحلاها لم يعد له وجود وأنه لم يبق منه إلا جسم ضعيف يحمل كل هذا العار والألم .

« إن البقاء مستحيل لأن معناه إمحاء الماضي ولا بد لي من حياة جديدة ومن أن أصبح رجلاً آخر وهذا مالا طاقة لي عليه » .

وسقط رأسه على المنضدة وظل كذلك في ضوء الشمعة الضعيف المضطرب - لا يتحرك .

ذهب سانين إلى سلوفتشك في نفس هذه الليلة وكان هذا اليهودي جالسا وحده على سلم بيته ينظر إلى المكان الموحش العارى الذى أمامه . وما كان أشجنى منظر الخصاص الفارغة الصدئة الأقفال ونوافذ الطاحون السوداء ! لقد كان المنظر كله ناطقا بنضوب الحياة والجزر فى مدها الأول .

ولم يفت سانين هذا التغير فى ملامح سلوفتشك فقد كان لا يتبسم وكانت نظراته قلقة مضطربة وعيناه تنساءلان وقال : « آه ! عم مساء وتناول يد سانين ثم استأنف التحديق فى السماء الساكنة . وجلس سانين إلى جانبه على السلم وأشعل سيجارة وجعل يراقب سلوفتشك فى صمت ويجد لذة فى درس هذه الحالة الغريبة ثم قال بعد برهة : « ماذا تصنع بنفسك هنا ؟ » .

فإذا - سلوفتشك عينيه الحزينتين الواسعتين إليه فى فتور وقال : « إني أعيش هنا . وكانت عادتي أن أكون فى المكتب أيام كانت الطاحون دائرة . ولكنها الآن مغلقة وقد ذهب كل امرئ سواى » . فسأله سانين : « ألا تحس وحشة الوحدة هنا ؟ » .

فصمت سلوفتشك ثم هز كتفيه وقال : « سواء عذى كل شئ » . وسكتا برهة فلم يكن يسمع إلا صوت سلسلة الكلب ثم قال سلوفتشك بحدة مفاجئة : « إن المكان ليس موحشا بل الموحش هو هذا وهذا » وأشار إلى رأسه وصدرة .

فسأله سانين فى هدوء ما خطبك ؟ » .

فقال سلوفتشك وزاد حماسه : « اسمع . لقد ضربت اليوم رجلا وحطمت له وجهه . وربما كنت قد قضيت على حياته . ولا يسوءك

٢٤٣

كلامي هذا . لقد فكرت كثيراً في هذا كله وأنا جالس هنا كما ترى أعجب وأعجب والآن هل إذا سألتك عن شيء تجيبني ؟ » . فقال سانين بعطف : « سألني ما بدا لك . أتخشى أن تسيء إلي ؟ إنني أؤكد لك أن هذا لا يسيئني . إن ما وقع وقع . ولو كنت أعتقد أني أسأت لكنت أول من يقرب ويعترف » .

فقال سلوفتشك وهو يرتعش : « أريد أن أسألك هل تدرك أنك ربما كنت قد قتلت هذا الرجل ؟ » .

فأجابه سانين : « لا يكاد يكون هناك شك كبير في هذا . فإن من الصعب على رجل مثل سارودين أن يتخلص من هذه الورطة دون أن يقتلني أو أن أقتله . أما حيث قتله لي فقد أفلتت منه اللحظة المناسبة وهو الآن في حانة لا تسمح له بإيلدائي ولن تواتيه الشجاعة فيما بعد . لقد انتهى دوره » .
— « وتقول لي هذا بكل هدوء ؟؟ » .

فسأله سانين : « ماذا تعني بالهدوء ؟ إنني لا أستطيع أن أنظر في هدوء إلى فرخ يقتل فضلاً عن إنسان . ولقد آلمني أن أضربه نعم إن شعور الإنسان بقوته لذيذ ولكنها على هذا تجربة فظيعة — فظيعة لأن مثل هذا العمل في ذاته وحشي . غير أن ضميري هادئ . لأنني لم أكن إلا أداة القدر وإنما حاق بسارودين ما حاق به لأن تيار حياته كلها كان لابد أن ينتهي إلى كارثة . والعجيب أن غيره من أمثاله لا يصيرون إلى مثل مصيره . إنهم قوم يتعلمون أن يقتلوا أبناء جنسهم ولا يعرفون لماذا . إنهم مجانين بله ! إذا خلعت حبالهم على غواربهم قطعوا رقاب الناس ورقابهم كذلك فهل ألام على أن حميت نفسي من مجنون من هذا النوع ؟ » .

فأجابه سلوفتشك بعناد : « نعم ولكنك قتلت » .

فقال سانين : « إذن فتوجه إلى الله الذي قدر لنا اللقاء » .

« كان يسعك أن تمنعه بأن تمسك كلتا يديه » .

فرفع سانين رأسه وقال : «إن المرء في هذه اللحظة لا ينكر . وكيف كان ذلك خليقا أن يمنع وقوع الشر ؟ إن قانون الشرف عنده يطلب الانتقام بأي ثمن . ولم يكن يسعى أن أظل قابضا على يديه إلى الأبد . وما كان ذلك ليكون إلا إهانة جديدة » .

فلوح سلوفتشك بيديه ولم يجب وأطبق الظلام عليه وزال الشفق وعمقت الظلال وصار المكان كأنما يتأهب لاستقبال كائنات مرعبة خفية ، ولعل خطاهم الصامتة أفلقت الكلب فقد خرج من مبيته فجأة ورقد أمامه .

وقال سلوفتشك : « ربما كنت مصيبا . ولكن ألم يكن من ذلك مفر ؟ ألم يكن خيرا أن تحتمل أنت اللطمة ؟ » .

فقال سانين : « خيرا ! إن الضرب شيء مؤلم فلماذا أحتمله ؟ في أي سبيل ؟ » .

فقاطعه سلوفتشك : « استمع إلى من فضلك . كان هذا يكون خيرا .. » .
فقال سانين : « لسارودين على التحقيق » .

فقال سلوفتشك : « لابل لك . لك أنت » .

فأجابه سانين : « إيه ياسلوفتشك . دعك من سخافة القول بالانتصار الأدبي . إنها فكرة غير صحيحة . ليس النصر الأدبي في أن تقدم خدك للضارب بل في أن تكون على حق أمام ضميرك . فأما كيف يتأتى ذلك فمسألة مرجعها إلى المصادفة والفاروف . إنه ليس أفضع من الاستعباد . وهو أفضع ما يكون حين تثور الروح على الإرغام والقوة ولكنها تدعن على رغم ذلك باسم قوة أعظم منها وأعلى » .

فأمسك سلوفتشك برأسه كأما يهم أن يطير عن جسمه وقال بلهجة شاكية : « ليس لي العقل الذي أفهم به هذا . ولست أدري كيف ينبغى لي أن أعيش » .

فقال سانين : « وما حاجتك أن تدري ؟ عشن كما تعيش الطيور إذا أرادت أن تحرك جناحها الأيمن فعلت وإذا شاءت أن تطير حول شجرة طارت وحومت » .

فأجابه سلوفتشك : « قد يستطيع الطائر ذلك ولكنى لست بطائر بل إنسان » . فضحك سانين ورنث ضحكته في الفناء الموحش وهز سلوفتشك رأسه وقال : « كلا ! هذا ليس إلا كلاماً . وأنت أعجز من أن تبين لى كيف أعيش والناس مثلك عجزاً وقصوراً » . فقال سانين : « هذا صحيح وما يستطيع ذلك أحد . إن فن الحياة يتطلب الموهبة اللازمة له . وأحر بمن حرمة الطبيعة هذه الموهبة أن يفنى أو أن تعود حياته كالسفينة المحطمة » . فقال سلوفتشك : « ما أعظم هدوءك وأنت تقول هذا كأنك تعرف كل شيء ! لا يسوءك قولى هذا — ولكن هل كنت دائماً هكذا — هادئاً دائماً » . فقال سانين : « كلا ! وإن كان مزاجى هادئاً فى العادة ولقد مر بى وقت تنازعنى فيه الشكوك من كل نوع . ولقد كنت أحلم فى بعض أياهى بأن الحياة المسيحية هى المثل الأعلى » .

وأمسك سانين ومال إليه سلوفتشك كأنما يتوقع أن يسمع شيئاً على أعظم جانب من الأهمية فقال سانين :

« وكان لى فى ذلك الوقت زميل — طالب رياضة — اسمه إيفان لاند وكان رجلاً عجيباً نصيبه من قوة الروح عظيم وكان مسيحياً بفطرته لآعن اقتناع فكانت حياته مرآة للمسيحية وصورة مجسدة لتعاليمها . إذا لطمه أحد لم يكر عليه بالطم ولم يجاره فى التعدى وكان يعد كل رجل أخاً له ولا تثير المرأة فى نفسه الإحساس الجنسى — هل تذكر سمينوف ؟ » .

فهز سلوفتشك رأسه أن نعم وبه مثل اغتباط الطفل ومضى سانين فى كلامه فقال : « كان سمينوف فى ذلك الوقت مريضاً جداً وكان يعيش فى القرم حيث يشتغل بالتدريس فرمت به الوحدة وتوقع الموت فسمع « لاند » يخبره فألى أن يذهب إليه وأن ينقذ روحه ولم يكن معه مال ولم يكن ثم من

يرضى أن يقرض مجنوناً مشهوراً شيئاً من المال . ولكنه ذهب إليه مع ذلك شيئاً على رجله وبعد أن قطع أكثر من ألف فرسخ قضى نحبه في الطريق وهكذا ضحى بحياته في سبيل الناس .

فصاح ساوفتشك وعيناه تاتمعان : « قل لي هل تقدر عظمة هذا الرجل ؟ » . فأجابه سائين وعلى وجهه هيئة المفكر : « لقد تحدث الناس عنه كثيراً في ذلك الوقت . وكان البعض لا يعدونه مسيحياً وينحون عليه لهذا السبب . وقال غيرهم بل هو مجنون لا يخاو من الزهو وأنكر آخرون أن له نصيباً من قوة الروح ولما رأوه يأبى أن يقاتل فقد أنكروا أنه نبى أو فاتح ! أما أنا فرأيت فيه غير ذلك . كان له في ذلك الوقت أعظم تأثير في نفسى . حتى لقد لكنى طالب على أذنى فتار نائرى وكدت أجن . ولكن لاند كان واقفاً أمامى فنظرت إليه و — لا أدرى كيف حدث هذا ولكنى نهضت دون أن أتكلم وخرجت من الغرفة وأحسست في أول الأمر شيئاً من الزهو والمباهاة بما فعلت ثم انقلبت أمقت هذا الطالب من أعماق أعماق نفسى لأنه لكنى بل لأن سلوكى معه لا بد أن يكون أرضاه كل الرضى ثم اتضح لى شيئاً فشيئاً كذب موقفى وزوره فسرعت أفكر وقضيت أسبوعين وأنا كالذى ضاع عقله وبعد ذلك زابلنى الإحساس بالزهو والمباهاة بهذا النصر الأدبى الكاذب وحدث أن هذا الطالب تهكم على فجملدته حتى غاب عن رشده فأفضى هذا إلى وقوع الجفوة بينى وبين لاند ولقد فكرت في حياته تفكيراً زهياً فألفيتها فقيرة شقية إلى أقصى حد . »

فقال سلوفتشك : « كيف تقول هذا ؟ كيف استطعت أن تقدر ثروة عواطفه الروحية ؟ » .

فأجابه سائين : « إن عواطفه هذه واحدة ملة ولقد كانت سعادته في حياته في تقبل كل مصيبة بدون تامل . وأما ثروته كلها فكان قوامها رفض لذات الحياة والمنافع المادية . لقد كان متمسكاً باختباره وكان شخصاً مضحكاً ذهبت حياته في سبيل فكرة لم يكن يدركها على صورة واضحة . »

٢٤٧

فصرب سلوفتشك كفاً بكف وقال : « إنك لا تستطيع أن تقدر ألى لسماع هذا الكلام » .

فقال سانين بلهجة المستغرب : « إنك يا صاحبي مضطرب الأعصاب جداً . لم أقل لك شيئاً غريباً فلعل الموضوع مؤلم لك » .

أجاب : « مؤلم جداً . إلى دائم التفكير حتى ليخيل إلى أحياناً أن رأسى سينفجر . فهل كان كل هذا خطأ لأكثر ؟ إلى أتلمس طريق كفى فى غرفة مظلمة ولا أجد من يقول لى ماذا أصنع . لماذا نعيش ؟ أجبنى » .
فقال سانين : « لماذا ؟ هذا مالا يعرفه أحد » .

أجاب : « ألا نحيا للمستقبل ليفوز الناس فى الأجيال الآتية بعصر ذهبى ؟ »
فقال سانين « لن يتأتى هذا العصر الذهبى أبداً . ولو أن الدنيا صبحت والناس صامحوا فى لحظة واحدة لكان من المحتمل أن يطاع فجر عصر ذهبى . ولكن هذا مستحيل أن السير فى طريق التحسن بطئ . والإنسان لا يستطيع أن يرى إلا الخطوة التى أمامه والخطوة التى وراءه مباشرة . ونحن لم نجرب حياة الرقيق الرومانى ولا حياة المستوحشين فى العصر الحجري ولذلك لا نستطيع أن نقدر نعمة مدنييتنا فإذا حدث أن عصرأ ذهبياً مر بالعالم فإن أهله لن يجتالوا أى فرق بين حياتهم وحياة أجدادهم . إن الإنسان يسير فى طريق لا آخره يعرف وليس من يريد أن يمهله الطريق ويسويها للسعادة إلا كمن يريد أن يضيف أرقاماً إلى اللانهاية » . فسأله سلوفتشك : « إذا فأنت تعتقد أن كل هذا لا معنى له . وأن كل شىء عبث ؟ »

أجاب سانين : « نعم هذا ما أرى » . فقال سلوفتشك :

« ولكن ما قولك فى صديقك لاند ؟ لقد قلت إنك ... » .

فقال سانين بلهجة الجدد : « لقد كنت أحب لاند لأنه كان مسيحياً بل لأنه كان مخلصاً ولم يحد قط عن طريقه ولا أرهبته العقبات الكأداء أو السخيفة فأنا كنت أقدره باعتباره شخصية فلما مات لم يعد لقيمتة وجود » .

فسأله سلوفتشك: «وهل تظن أن لمثل هؤلاء الناس تأثير في الحياة يجعلها أنبل؟ ألا يكون لأمثالهم أتباع أو تلاميذ».

فقال سائين: «ولماذا تريدون أن تجعلوا الحياة أنبل؟ قل لي ما الداعي إلى ذلك أولاً. واعلم ثانياً - أن المرء لا يحتاج إلى التلاميذ وإنما يكونون كذلك بفطرتهم مثل «لاند». لقد كان المسيح رجلاً رائعاً ولكن المسيحيين نوتية مساكين. وما أجمل فكرته غير أنهم أحالوها شيئاً جامداً لا حياة فيه».

وتعب سائين من الكلام فسكت ولزم زميله الصمت كذلك وكان السكون عميقاً حولهما والنجوم فوقهما كأنما تدبران حديثاً صامتاً لا آخر له. ثم همس سلوفتشك بشيء فرع له سائين وسأله: «ما هذا الذي تقولونه؟».

ففتح سلوفتشك: «قل لي رأيك. لنفرض أن رجلاً لم يعد يرى الطريق واضحاً وأنه لا يكف عن التفكير وتقطيع قلبه به وأن كل شيء يحيره ويفزعه -- فقل لي ألا يكون خيراً له أن يموت؟».

فأجاب سائين وقد استشف ما في ذهن صاحبه: «ربما كان الموت في هذه الحالة خيراً فإن التفكير وكد الذهن لا طائل تحتهما ولا ينبغي أن يعيش سوى من يجد لذة في الحياة. أما الشقي فالموت خير له وأرفق به».

فصاح سلوفتشك: «هذا رأي أيضاً» ودفع يده إلى سائين وكانت عيناه في الظلام أشبه شيء بثقبين مظلمين. فقال سائين وهو ينهض: «إنك رجل ميت. وخير مكان للميت هو القبر. الوداع!».

وكأنما لم يسمعه سلوفتشك فظل لا يتحرك وتربث سائين قليلاً ثم مضى في ببطء. ولما بلغ البوابة وقف وأصغى ولكنه لم يسمع شيئاً وقال لنفسه وكأنما يرد على شعور باطن: سواء أن يعيش هذا الرجل أو يموت. وسيموت غداً إذا لم يموت اليوم».

وأغلق الباب فصر ومضى هو إلى الميدان فأخذت عييه شخصاً يعلو

وهو يبكي فوقف سانين وبرز من الظلام رجل دنا منه فصاح به : « ما الخبر ؟ » .
فوقف الرجل هنيهة فرأى سانين جنديا كثيباً فسأله : « ماذا حدث ؟ »
فتمتم شيئاً ثم عدا وهو يعول وغاب في الظلام كالأشباح فقال سانين :
« هذا خادم سارودين » ثم طاف بدهنه مثل البرق « إن سارودين قد
انتحر » .

فحدق في الظلام برهة وابتعد جبينه ودار عراك وجيز إلا أنه هائل
في صدر هذا الرجل القوى .
وكانت البلدة نائمة والطرق عارية والنوافذ كالعيون الفاترة محمقة
في الظلام فهز سانين رأسه وابتسم وقال بصوت عال : « لا ذنب لي ! » .
ونصب قامته واستجمع قوته وسار — شبحاً رائعاً في الليل الساكن .

(٣٢)

استفاض في البلدة الخبر بأن اثنين انتحرا في ليلة واحدة وكان إيفانوف
هو الذي أبلغ يورى ذلك وكان يورى قد عاد من المدرسة وجلس بصور
أخته لياليا فقال إيفانوف ووضع قبعته على كرسى : « عم صباحا » .
فسأله يورى باسم « أهذا أنت ؟ ما عندك من الأخبار ؟ » .
وكان مزاجه معتدلاً ووجهه باشاً ذلك أنه صار مدرساً فقلت حاجته
إلى أبيه وتكفلت أخته المليحة الفتاة بشرح صدره .
فقال إيفانوف وفي عينه نظرة غامضة : « أخبار كثيرة . واحد شق نفسه
وثان نسف دماغه وثالث استحوذ عليه الشيطان ! »

فصاح يورى : « من تعنى ؟ » .
فأجابه إيفانوف : « إن الكارثة الثالثة مما اخترع خيالى لزيادة التأثير وأما
من حيث الأولى والثانية فالخبر صحيح فقد انتحر سارودين البارحة وسمعت
الساعة أن سلوفتشك شق نفسه » .
فصاحت لياليا ونهضت : « مستحيل » ودنا يورى من إيفانوف وقال :
« أهذا مزاح ؟ »

فقال إيفانوف : « كلا ! » وأظهر عدم الاكتراث وإن كان على هذا قد راحه ما حصل . وسأله يورى :

« لماذا انتحرت ؟ الآن سائين لكمه ؟ » .

وسألت لياليا : « هل اتصلت الخبر بسائين ؟ » .

فأجابها إيفانوف : « نعم لقد علم سائين البارحة » .

فقال يورى : « وماذا يقول ؟ » .

فهز إيفانوف كتفيه ولم يشأ أن يتحدث مع يورى عن سائين وقال

بشيء من الضجر : « لا شيء ! ما شأنه بهذا ؟ » .

فقالت لياليا : « إنه السبب » .

فرد عليها إيفانوف : « ولكن لماذا اعتدى عليه ذلك الأحمق ؟ إن هذا ليس

خطأ سائين . والمسألة كلها مما يؤسف له ولكن مرجعها إلى سخافة سارودين » .

فقال يورى : « إنى أظن أن السبب أعمق من ذلك . لقد عاش سارودين .

بين زمرة » .

فهز إيفانوف كتفيه وقال مقاطعاً : « نعم . ولحياته بين هذه الزمرة السخيفة

وتأثره بها — دليل قاطع على أنه كان سخيفاً » .

ففرك يورى كتفيه ولم يثبت وآله أن يبسط إيفانوف لسانه في رجل مات

وقالت لياليا : « قد أفهم لماذا قتل سارودين نفسه . فأما سلوفتشك ! لم

يخطر لي قط أن هذا محتمل ! هل تعرف السبب ؟ » . فأجابها إيفانوف :

« الله أعلم ! لقد كان دائماً شاذاً » . وجاء في هذه اللحظة ريزانتريف

في مركبته والتقى بسينا كرسافينا على السلم فصعدا معاً ودخلت سينا أمامه

وقالت : « لقد جاء أنا تول بافلوفتش من هناك » .

وتبعها ريزانتريف ضاحكاً كعادته وفي يده سيجارة كان يشعلها

وهو داخل وقال : « شيء حسن جداً . إذا استمر هذا لم يبق في المدينة

شبان على الإطلاق » .

وجلسست سينادون أن تتكلم وكان وجهها الجميل مكتئباً فقال إيفانوف:
« قص علينا ما تعرفه » .

فقال ريبازانتزيف : « كنت خارجاً البارحة من النادي فاندفع إلى جندي
وقال : « قد انتحر سعادته » فوثبت إلى مركبة وذهبت إلى هناك بأسرع
ما أستطيع فألفيت الفرقة كلها تقريباً في المنزل وكان سارودين على الفراش
وعرى ثوبه محمولة » .

فسألته لياليا وتعلقت بذراعه : « وفي أى موضع أطلق الرصاص على
نمسه ؟ » . فقال ريبازانتزيف : « في رأسه احترقت الرصاصة دماغه
ونفذت إلى السقف » .

فسأله يورى : « هل كان المسدس من طراز بروننج ؟ » .
فقال ريبازانتزيف : « نعم . وما أفضح المظر ! لقد كان الحائط ملوثاً
بالدم وعليه بعض عظام رأسه وكان وجهه ممسوخاً . لقد فعلها سائين !
تالله ما أقوى هذا الشاب ! » .

فهز إيفانوف رأسه وافقاً وقال : « أوكد لك أنه قوى جداً » .
فقال يورى : « وحش خشن ! » .
فالتفتت إليه سينا وقالت : « رأي أن هذا ليس بخطأه . ولم يكن من
المستطاع أن ينتظر حتى ... » .

فقاطعها ريبازانتزيف : « نعم نعم . ولكنه لكمه لكمة فظيعة . لقد تحداه
سارودين ودعاه إلى المباراة » .

فصاح إيفانوف ضجراً وهز كتفيه : « هذا أنت تهذى » .
وقال يورى : « الحقيقة أن المباراة لا معنى لها » .
فوافقت سينا « لا شك في ذلك »
ولاحظ يورى أن سينا يسرها أن تنفض لسانين فقال : « على كل حال
هذا ... » ونحانته الألفاظ .

فاقترح ريبازانتزيف : « عمل وحشي » .

ومع أن يورى لم يكن يعد ريزانترزيف إلا وحشاً آخر فقد سره أن يقدح في سائين أمام سينا . ولكن هذه لاحظت غيظ يورى فكفت عن الكلام وكانت في الواقع معجبة بقوة سائين وشجاعته ولم تكن مستعدة أن توافق ريزانترزيف على اعتبار المباراة عملاً عادلاً . وقال إيفانوف متهمكماً :

« إن من التمدن ولا شك أن ينسف المرء أنف صاحبه أو أن يبتقر بطنه » . فقال ريزانترزيف : « وهل لكم الوجه خير ؟ » .

فقال إيفانوف : « لا شك أنه خير . أى أذى تستطيع القبضة أن تلحقه بالرجل ؟ إن الجرح يشفى بسرعة . وما من لكمة أذت أحداً أذى بليغاً » . فقال ريزانترزيف : « ليس هذا في الموضوع ! » .

فقال إيفانوف : « إذأ ماذا فيه من فضلك ! » وزم إيفانوف شفتيه ازدراء . فقال ريزانترزيف : « لقد كاد يفتقأ له عينه . وأحسبك لا ترى هذا ضرراً بليغاً ! »

فأجابه إيفانوف : « لا شك أن فقد العين خسارة ولكنه ليس كدخول رصاصة في جسمك . إن فقد العين ليس قاتلاً » .

فقال ريزانترزيف شـ « ولكن سارودين مات ! » .

فقال إيفانوف : « آه ! ذلك إنما كان لأنه أراد أن يموت ! » .

فقال يورى وسرته صراحتة : « يجب أن أعترف أنى لم أنه إلى رأى في هذا الموضوع . ولا أعلم ماذا كنت أصنع لو أنى كنت في موقف سائين . ولا شك أن المباراة سخيفة ولكن التلاكم ليس خيراً » .

فقلت سينا : ولكن ماذا يصنع المرء إذا اضطر أن يقاتل ؟ » .

فقال ريزانترزيف : « إن أسفنا يجب أن يكون على سلوكنا » .

فقلت : « أين شئت نفسه ؟ هل تدري ؟ » .

فقال ريزانتزيف : « فى الحصن المجاور لجحر الكلب . أطلقه ثم شتى نفسه » . فخيّل ليورى وسينا أنهما يسمعان صوتا عاليا يقول : « ارقد ياسلطان ! » .

ومضى ريزانتزيف فى قصته فقال : « وقد كتب ورقة قبل موته نسختها . إنها وثيقة إنسانية » . وأخرج من جيبه مذكرته وقرأ : « لماذا أعيش إذا كنت لا أدرى كيف ينبغي أن أعيش ؟ إن أمثالى لا يستطيعون أن يجعلوا أخوانهم سعداء ! » .

فساد سكون رائع وترقرقت عينا سينا واحمر وجه لياليا وجاشت نفسها وابتم يورى ابتسامة حزينة والثقت إلى النافذة وقال ريزانتزيف : « هذا كل ما فيها ! » .

فقالت سينا وشففتها ترجفان : « ماذا تريد أكثر من ذلك ؟ » .

ونهمض إيفانوف واجتاز الغرفة إلى المنضدة طلباً للكبريت وقال : « إن هذا ليس إلا سخافة » .

فاحتجت سينا وقالت : « يا للعار ! » .

والثقت يورى إليه مشمئزاً وقال ريزانتزيف : « لقد كنت دائماً أعتقد أن سلوفتشك صبي يهودى سخيّف فانظروا الآن ماذا فعل ؟ إنه ليس أجل من الحب الذى يدفع المرء إلى التضحية بنفسه فى سبيل الإنسانية » .

فأجابه إيفانوف « ولكنه لم يضح بنفسه فى سبيل الإنسانية » .

قال : « نعم . ولكنه يستوى أن ... » .

فقاطعه إيفانوف وفى عينيه لمعة الغضب : « إن الأمرين لا يستويان . إنه عمل أبله لا أكثر ولا أقل » فكان لبغضه الغريب لسلوفتشك أسوأ وقع فى نفوسهم . ونهضت سينا وهمست فى أذن يورى « سأذهب أنه لا يطاق » .

فوافق يورى وقال بصوت خافت : « وحش » .

وخرج فى أثر سينّا - لياليا وريازانتزيف وجلس إيفانوف برهة يدخن ثم خرج أيضاً . وقال لنفسه وهو سائر فى الطريق يطوح ذراعيه على عادته : « إن هؤلاء السخفاء يظنون أنّى عاجز عن فهم مايفهمون ويلد لي ظنهم هذا ! ألا أنّى لأدرى بخواطرهم وإحساساتهم منهم أنفسهم : وأعلم كذلك أنه ليس أجل من الحب الذى يأمر المرء أن يبذل حياته للناس . فلما أن يشنق رجل نفسه لالسبب سوى أنه لا خير فيه لأحد - فكلام فارغ ! » .

(٣٣)

كان يورى مطلا من نافذته يشهد جنازة سارودين وهم سائرون به إلى المقبرة على ألحان الموسيقى الحربية . فرأى الخيل مجللة بالسواد وقبعة الفقيد على غطاء النعش وكانت الأزهار كثيرة وبين المشيعين عدد كبير من السيدات . فأحزنه هذا المنظر .

وفى مساء ذلك اليوم سار مسافة طويلة مع سينّا كرسافينا : غير أن جمال عينيها وفتنة محضرها لم ينفضا عنه الكتابة وقال وعيناه إلى الأرض « مأهول أن يتصور المرء أن سارودين لم يعد موجوداً ! ضابط وسيم مرح مثله يصبح لا شيء ! لقد كان المرء يخيّل إليه أنه سيعيش أبداً وأنه لا يعرف متاعب الحياة وآلامها وشكوكها وأن هذه لن تمسه . فانظري ! فى صبيحة يوم رائق ذهب كأنه التراب المكنوس بعد أن عانى تجربة فظيعة لا يدرى بها سواه . والآن قد مضى ولن يعود أبداً . أبداً . ولم يبق منه غير القبة على النعش ! » .

وسكت وكانت سينّا تصغى إليه ويدأها تعبتان بمطامها ولم تكن تفكر فى سارودين بل كان قربها من يورى مثار لذة محادة لها غير أنها مع ذلك شاطرته كآبته وقالت : « نعم أن الأمر محزن وهذه الموسيقى أيضاً ! » .

فقال يورى بلهجة التأكيد: «لست ألوم سانين . فما كان يسعه أن يفعل غير ما فعل . وأقطع ما في الأمر أن طريقى هذين الرجلين تعارضا وصار لابد لأحدهما من أن يخلى الطريق للثاني . ومما هو فظيع أيضاً أن المنتصر لا يدرك أن نصره مروع : «يزيل رجلا من فوق ظهر الارض في سكون ويكون مع ذلك على حق» .

فقال : « نعم إنه على حق » ولم تكن قد سمعت كل ما قاله يورى وجعل صدرها يعلو ويهبط فصاح يورى مقاطعاً وهو ينظر إلى جمال جسمها ووجهها: «ولكني أقول إن هذا فظيع ! » . فسألته سينا بصوت رقيق واحمر وجهها فجأة وفقدت عينها لمعتها : « لكن لماذا ؟ » .

فأجابها يورى : « غير سانين كان حقيقاً أن يندم أو أن يعانى شيئاً من ألم الروح ولكنه لم يظهر أى دليل على ذلك وكل ما قاله هو أنى أسف جداً ولكن هذا ليس خطأى . خطأ حقاً ! كأنما كانت المسألة مسألة خطأ أو ملامة ! » .

فسألته سينا : « إذن ماذا هى ؟ » وارتجف صوتها واطرقت مخافة أن تؤلم رفيقها فقال « هذا مالا أعرفه . ولكن الإنسان لاحق له فى أن يكون مثل الوحش فى اخلاقه » .

وسارا مدة فى صمت وآلم سينا ما بينهما من الجفوة الوقتية وأسفت لانقطاع هذه الصلة الروحية التى لم يكن أعذب منها ولا أحلى وراح يورى يظن أنه قصر فى أيضاً خواطره فجرح هذا الظن إحساسه بكرامته .

ثم افترقا وكانت سينا مكتئبة متألماً ولاحظ يورى اكتئابها فسرهما كأنما انتقم لنفسه من إهانة شخصية . وزاد سوء خلقه لما صار فى البيت . وقصت لياليا على المائدة ما قاله لها ريزا انتزيف عن سلوفتشك . وخلا يورى بنفسه فى غرفته وشرع يصحح كراسات تلاميذه ويحدث نفسه : «ما أعظم نصيب الانسان من

الوحشية ! وهل مثل هذه الوحوش البليدة تستحق أن يموت في سبيلها المرء ؟
ثم خجل من عدم تسامحه وقال لأنهم غير ملومين ! ولا يعرفون ما يفعلون .
وسواء عرفوا أم لم يعرفوا فهم وحوش ولا شيء غير ذلك ، »

ثم كرت خواطره إلى سلوفتشك فقال « ما أشد وحدتنا في هذه الدنيا !
هذا سلوفتشك كان بين ظهرانينا ، عظيم القلب مستعداً أن يبذل كل تضحية
في سبيل غيره . ومع ذلك لم يحسه أحد ولا قدره أحد . بل الواقع أننا كنا
نحتقره . وذلك لأنه لم يكن يحسن العبارة عن نفسه ولم يكن لرغبته في ارضاء
الناس من أثر سوى إسخاطهم وإن كان في الحفيظة قد حاول أن يوثق صلاته
بنا وأن يساعدنا . ألا لقد كان قديساً نظنه فدمماً غيباً ، »

واشتد ندمه حتى لترك عمله وجعل يقطع الغرفة ثم يجلس إلى المنضدة
وفتح الانجيل وقرأ فيه « كما تنفذ السحابة وتغيب كذلك من يهبط إلى الأرض
لا يصعد أبداً . ولا يعود إلى بيته لا ولا يعرفه مكانه بعد ذلك » .

ثم قال : « ما أصدق هذا وأحكمه ! حتم فطيع ! هذا أنا أعيش وبلج في
الظلم إلى الحياة واللذات . ثم أقرأ هذا القضاء المبرم ولا يسعني حتى أن أحتج
عليه ! »

ثم ثار بأسه فأمسك بجبينه وناشد القوة الخفية « ماذا جنى الانسان عليك
حتى تسخرين منه هذا السخر ؟ إذا كنت موجودة فلماذا تخفين نفسك عن
عينه ؟ لماذا تجعليني إذا آمنت بك لا أوثر بإيماني ؟ وإذا أجبتي كيف أعرف
أأنت الحبيبة أم نفسي ؟ وإذا كنت على حق في رغبتي في الحياة وطلبي لها فلماذا
تسليبنني هذا الحق الذي منحني إياه ؟ إذا كانت بك حاجة إلى آلامنا فدعينا
نحملها من أجل حبنا لك . ولكنا لا نعرف أيهما أعظم قيمة الشجرة أم
الإنسان » .

« ان الشجرة دائمة الامل . اذا قطعت استطاعت أن تقوم مرة أخرى وان تسترد الخضرة وتفوز بحياة جديدة أما الانسان فيموت ويزول . يرقد فلا ينهض كرة أخرى ولو أنى كنت على يقين من أنى سأحيا مرة ثانية بعد ملايين السنين لرضيت أن أنتظر في صبر كل هذه القرون في الضلام »
ثم قرأ :

أى ربح يجنيه الانسان من كل تعبته تحت الشمس ؟ جيل « » يمضى وجيل غيره يأتى ولكن الارض تبقى الى الابد . « » والشمس أيضاً تطلع وتنحدر وتسرع الى مكانها الذى طلعت « » منه والريح تهب صوب الجنوب ثم تكرر الى الشمال وتدور أبداً « » مارأيناه أمس نراه اليوم وسنراه غدا . لا جديدي تحت الشمس « » ليس ثم ذكرى لما مضى . ولن تكون ثم أى ذكرى لما سيأتى « » فى نفوس من سيتلوننا « » أنا الواعظ كنت ملكا على بنى اسرائيل فى أورشليم « »

ولما وصل الى هذه الجملة رفع بها صوته مغضباً يائساً ثم تلفت حوله مخافة أن يكون قد سمعه أحد ثم تناول ورقة وشرع يكتب : « ابدأ هذه الوصية التى تنتهى حياتى بانتهائها . . . »

ثم قال : « رباه ! ما اسخف هذا ! » ودفع الورقة بعنف فسقطت على الارض ثم عاد فقال : « ولكن ذلك المسكين الشقى سلوفتشك لم ير من السخافة أنه يعجز عن فهم معنى الحياة ! »

ولم يفطن يورى الى انه يتمثل برجل يصفه بأنه مسكين شقى . « وعلى كل حال فهذا مصيرى عاجلاً أو آجلاً لا مفر من ذلك ! ولكن لماذا ؟ لأن .. » ووقف . وخيل اليه ان الجواب الدقيق المضبوط حاضر ولكن الالفاظ تنقصه . وكان ذهنه قد تعب واضطربت خواطره وقال : « لماذا لم أمت وأنا طفل لما مرضت بالتهاب الرئتين ؟ اذا لا تحت ! » . وارتعد لهذا الخاطر « ولو حدث هذا لما رأيت ولا عرفت ما أعرف الآن . وهذا فظيع أيضاً » ورد رأسه الى الوراء ونهض « ان هذا كفيف بأن يحن المرء »
(م ١٧ - ابن الطبيعة)

ومضى إلى النافذة وسأول أن يفتحها ولكن مصراعها كانا مثقلين من الخارج فاستخدم قلما وفتحهما ودخل الهواء البارد فنظر إلى السماء ورأى ضوء الفجر في الأفق . وكان الفجر وضيئا ونجوم الدب الأكبر السبعة بادية وفي الشرق المتوهج يومض كوكب الصباح . وهب نسيم عليل فحرك أوراق الشجر ومزق الضباب الذى كان يحجب صفحة الغدير حيث الأزاهر يانعة . وكانت السماء موشاة بالسحب والنجوم هنا وهنا تتلامح . وكل شيء جميل رائع كأنما كانت الأرض تتأهب لاستقبال الفجر .

ثم انقلب إلى فراشه ولكن الضوء حال بينه وبين النوم فظل مستقيماً ورأسه موجه وعينه مفتوحتان كغمضتين .

— ٣٤ —

خرج إيفانوف وسانين في صباح ذلك اليوم مبكرين وكان الطل يومض في أشعة الشمس والحجاج يدلّفون إلى الدير وكانت نواقيسه تدق وتجلجل والريح تحمل أصواتها على السهوب إلى الغابات الحاملة فقال إيفانوف « لقد بكرنا » فتلفت سانين حوله مغتبطا مسروراً وقال : « إذا فلنجلس قليلا » فجلسا على الرمل وأسعلا سيجارتين وكان الفلاحون السانرون وراء مركباتهم يتلفتون لينظروا إليهما والنساء والبنات يشرن ويتضاكنن ولم يلتفت إيفانوف إلى شيء من هذا ولكن سانين كان يبتسم ويمز رأسه لمن .

ثم بدا على سام بيت صغير أبيض سقفه أخضر لامع صاحب خمار « الكرون » وهو رجل طويل قصير كمي التميميص وفتح الباب وهو لا يكف عن التثاؤب ودخلت في أثره امرأة على رأسها منديل أحمر فقال إيفانوف : « دعنا ندخل » ففعلا واشتريا قليلا من الفودكا وبعض القل والبخر والحبز . فقال إيفانوف لما رأى سانين يخرج حربانه « كيسه »

« آها ! ان مالك كثير على ما يظهر يا صديقى »

فقال سانين ضاحكا : « لقد أخذت دفعة مقدما . وذلك أتى على

نتيضة رغبة أمي قبات أن أكون سكرتيراً لشركة تأمين وبهذه الطريقة استطعت أن أظفر بشيئين : قليل من المال . واحتمار أمي «

ولما صار في الطريق مرة أخرى قال إيفانوف : « أوه ! إني أشعر إني الآن أحسن وأسعد ! »

فقال سانين : « وكذلك أنا . وما قولك في أن نخلع نعالنا ؟ »

فقال إيفانوف : « حسن جداً »

ونحلا نعالهما وجواربهما وسارا حافيين على الرمل البليل الدافئ واستلذا ذلك بعد أن نزعا أحذيتيها الثقيلة . وقال سانين وتنفس تنفساً عميقاً « ببيع أليس كذلك ؟ »

وكانت الشمس قد زادت حرارتها وهما ماضيان عن البلدة صوب الأفق الأزرق وكان الأتبار على أسلاك التلغراف ومر بهما قطار ركاب ، مركباته خضراء وصفراء وزرقاء ووجوه الركاب المتعبين مائلة من نوافذها وفي آخر مركبة منه فتاتان جميلتان جعلتا تتأملان هذين الحافيين وفي عيونهما أمارات الدهشة فضحك منهما سانين وارتجل رقصة عنيفة .

ورأيا على كتب منهما مرجاً ترناح القدم إلى السبر على نجائله فقال إيفانوف : « ما أبدع هذا »

فقال صاحبه « إن الحياة اليوم تستحق أن تحيا » فنظر إيفانوف إلى سانين وخطر له أن هذه الكلمات تذكره بسارودين وبالمأساة الأخيرة ولكن خواطر سانين كانت على ما يظهر أسند ما تكون انصرافاً عن هذا فعجب إيفانوف إلا أن ذلك لم يسؤه .

واجتازا المريج إلى السكة الكبرى الحاشدة بالفلاحين ومركباتهم وفتياتهم ثم بلغا الأنسجار ومن ورائها النهر وإلى ناحية أخرى الدير قائماً على تل وفوهه صليب يلتصع كالجم المتوهج . وكانت حل الشاطئ زوارق موشاة فاستأجرا منها واحدة وكان إيفانوف يحسن الجديف فانطلق الزورق

يشق الماء ويفرق نياره وكانت المجاديف ربما لمست أعشاباً أو أغصاناً غائصة إلى قريب من رءوسها فتظل تضطرب وترتعش على سطح الماء بعد كل لمسة . وكان سانين يجدف بحدة حتى صار الماء يرغى ويزبد ويتدفع حول الدفة . وبعد لآى مابلغا مكاناً ظليلاً بليلاً وكان الماء من الصفاء بحيث يستطيع المرء أن يرى قاعه وما فيه من الحصى والأسماك فقال إيفانوف « هذا مكان يحسن أن ننزل فيه » فدفعوا الزورق إلى الشاطئ ووثبا عنه وقال سانين « لن نجد خيراً من هذا المكان ! » وغاص إلى ركبتيه في الحشائش فقال إيفانوف « كل مكان حسن تحت الشمس » وجاء بالشراب والخبز والخضر ووضع كل ذلك على الحشائش تحت شجرة تم استلقى ركانا قد نسيا الأكواب فتساقى سانين شجرة وقطع غصناً وقور جزءاً منه اتخذه كأساً فقال إيفانوف وكان يراقب سانين باهتمام « ولنستحم بعد ذلك » فقال سانين « فكرة حسنة » وقذف الكأس في الهواء والتقطها ثم جلسا ووقعا على الشراب والطعام ولما أصابا كفايتهما قال إيفانوف « لأستطيع أن أنتظر الآن . وسأذهب إلى الماء لأستحم » وخلع ثيابه ولما كان لا يحسن السباحة لقد اختار موضعاً قريب الغور وكان سانين يراقبه ثم نضا عنه ثيابه في ببطء وهدوء واندفع إلى أعماق مكان في النهر فصاح به إيفانوف « حاذر أن تغرق » فضحك سانين وقال « لا تخف » بعد أن طفا على وجه الماء وكان الجو يتجاوب بأصواتهما الطروبة ثم خرجا من الماء ورقدا على الحشائش وهما عاريان وجعلتا يتقلبان فوقها ثم صاح إيفانوف « هورا » وشرع يرقص رقصة عنيقاً خشنا فضحك سانين ووثب إلى قدميه وانطلق يرقص مثله وكان جسماهما يلتصقان في ضوء الشمس وكل عضلة ظاهرة ثم كف إيفانوف وقال لصاحبه « تعالى ولا شربت كل مابقى من الفودكا » فلبسا ثيابهما وأتيا على مابقى من الطعام والشراب وتمنى إيفانوف شربة ماء مثلجة . وقال « دعنا نعود » فراحا يعدوان بأسرع مايسطيعان إلى الشاطئ وانحدرا إلى الزورق ودفعاه :

ثم قال سانين وكان راقداً في قاع الزورق « ألا تحس لسع الشمس ؟
فأجابه إيفانوف « هذا نذير المطر فانهض وجدف بالله » .

فقال سانين « انك قادر على هذا وحده » فضرب إيفانوف الماء
بالخدافين ضربة أطارت الرشاش إلى سانين فقال « أشكرك » وورا
بموضع تكسوه الخضرة فسمعا ضحكاً وأصوات فتيات مرحات فتمال
إيفانوف « فتيات يستحمن » فافترح سانين « دعنا نذهب لننظر إليهن .. »
فقال إيفانوف « ربما أبعرننا » .

أجاب سانين « كلا لن يستطعن . وفي وسعنا أن ننزل هنا وأن
ندخل بين الحشائش » فحجل إيفانوف وقال « دعهن » .
فأجابه « تعال » فقال ! « لست أحب أن ... »
فأجابه « لست تحب ماذا ؟ » .

فقال « انهن فتيات .. صغيرات .. ولا أظن هذا يجعل بنا » أجاب
سانين « أنك مجنون . هل تريد أن تقول انك لا تشتهى أن تراهن ؟ »
فقال إيفانوف « ربما كنت أشتى ولكن » .
أجاب سانين « إذن فلنذهب إليهن ودع عنك هذا الحياء الكاذب
من ذا الذي لا يفعل مانفعل إذا أتيت له الفرصة ؟ » .
فقال إيفانوف « ولكنك إذا كنت تذهب إلى هذا فلماذا لا تراقبن
علنا ؟ لماذا تختفى ؟ »

أجاب سانين مسروراً « لأن الاختفاء ألد وأمتع » .
قال « ربما كان كذلك ولكني أنصح لك ... »
أجاب « احتراماً للعفاف على ما أظن ؟ ؟ » قال « نعم » .
أجاب « ولكن العفاف هو عين ما ينقصنا » .
فقال إيفانوف « إذا أذنبت عينك فاقطعها » .
فصاح سانين « أوه ! أرجوك إن تكف عن هذا الكلام الفارغ
وأن لا تكون مثل يورى . أن الله لم يعطنا عيوننا لنقلعها » فابتسم

إيفانوف وهز كتفيه وقال سائين وأدار الدفة بحيث يمضى الزورق إلى الشاطئ « اسمع يا فتى ! إذا رأيت فتيات يستحممن ولم يحرك منظرهن في نفسك أية شهوة كنت في حل من أن تدعى العفاف . ومع ألى آخر من يحاكبك في ذلك فإن مثل عذابك هذه تفوز عندئذ بإعجابى واحترامى ، فأما وقد فطرنا على هذه الشهوات الطبيعية فإن محاولة خنثها تكون رياء ونفاقا » .

فقال إيفانوف « إن هذا حسن ولكن إذا لم يكن تم كايح للربغات وجاح الشهوات أفضى الأمر إلى الشر » .

فأجابه سائين متهمكا « أى شر يانرى ؟ إن للشهوانية آثاراً سيئة أسلم لك بها ولكن هذا ذنب الشهوانية » .

فقال إيفانوف « ربما كان الأمر كذلك ولكن ... »

فقاطعه سائين قائلا « حسن جداً إذا فهل تأتى معى ؟ »

أجاب « نعم ولكنى ... » قال سائين وهما يتسللان وسط الحشائش والأعشاب « مغفل ! هذا أنت ! انتبه ترفق . لا نتحدث هذا الصوت » فقال إيفانوف بحماسة « انظر هنا ! يا أمل ! » وكان ظاهراً من الثياب والقبعات المكومة على الحشائش أن السابحات أتين من البلدة وكانت بعضهن تضرب بيادهما مرحة فى الماء وكانت قطراته تزل كالفضة عن أعضاءهن اللينة الناعمة . وكانت إحداهن واقفة على الشاطئ طامقة وضاحكة والشمس تضاعف جمال جسمها الذى كان يهتز وهى تضحك ! .

فقال سائين وفتنه هذا المنظر « تأمل هذا ! »

ففرع إيفانوف متراجعا وسأله سائين « خطبك ؟ »

فأجابه « أنها سيدا كرسافينا ! »

فقال سائين : « نعم هى بعينها . ولكنى لم أعرفها . ما أقتن جمالها ! »

فقال إيفانوف « نعم هى كذلك ! »

وعات الأصوات وكثر الضحك فى هذه اللحظة فعلما أن الفتيات قد سمعنهما وفرعت سينا فألقت بنفسها فى الماء ولم يعد باديها منها سوى

وجيها الوردى وعينيها اللامعتين . وفر سائين وصاحبه إلى الزورق وقال
سائين لما باغاه « ما أحسن أن يكون الإنسان حيا ! » ومط جسمه وغنى فتجاوب
الفضاء بصوته الرنان الصافي وكانت ضحكات الفتيات لاتزال نسمع فطلع
إيفانوف إلى السماء وقال « ستأخذنا السماء » وأظلمت الأشجار واكتمهر الأفق
وارتمت الظلال الحالكة على المروج فقال إيفانوف « يجب أن نعجل بالهرب .. »
فقال سائين وهو مغتبط « أين ؟ إنه لا مفر لما الآن ! » .

وركدت الريح وزاد السكون والجهامة فقال إيفانوف « سيغمرنا المطر
فأعطيني سيجارة أتسلى بها » .

وأشعل عوداً من الكبريت كان ضوءه كاييا في هذه الظامة فنارت هبة من
الريح مباغته فأطفأته وسقطت قطرة كبيرة في الزورق وأخرى على جبين
سائين ثم هطل المطر وخشخش الأشجار وكان لاقطر وهو ينهل على النهر
صوت الصفير وفتحت ميازيب السماء ولم يعد يسمع إلا صوت تدفق المطر
فقال سائين « بديع هذا أليس كذلك ؟ » وحرك كتفيه وكان القميص قد لصق
بهما فقال إيفانوف « ليس بالسئء جداً » وتجمع في قاع الزورق .

وما لبث المطر أن انقطع وإن كانت السحب لم تنقشع بل ظلت مكدسة
وراء الغابة حيث كانت ترسل سهامها من البرق إلى حين فقال إيفانوف
« يجب أن نرجع » فوافق سائين وخرجا بالزورق في وسط التيار وكانت
السحب السوداء الكثيفة معاقة فوقهما والبرق لا يكف عن الإثخان في كبد
السماء . ولم يكن ثم مطر واكن الإحساس بالرعد كان شديدا في الجوف وجعلت
الطيور تخطف في الجوف فوق سطح الماء وهي مبتلة الزيش فصاح إيفانوف
« هو هو ! » .

ثم نزلا وسارا على الرمال وكان الظلام قد اشتد وجعلت السحب تدنو
وقسف هياكلها إلى الأرض وهبت الريح فجأة فنارت زوايع من التراب
وأوراق الأشجار ثم جاجل الرعد نكاً كما انقطر كبد السماء وتعاقب البرق

والرعد فصاح سائين « أو هو ! هو هو » كأنما يريد أن يعلو صوته ضجة الطبيعة ولكنه لم يكن يسمع حتى صوته ..

وبلغا الحقول وكان الظلام قد أسدف والبرق يضئ لهما طريقهما ولم ينقطع الرعد . فصاح سائين « أود ! ها ! هو ! » . فسأله إيفانوف « ما هذا ؟ » .

وفي هذه اللحظة أضاء البرق فلمح إيفانوف وجه سائين وكان متوقدا هاشا ثم أضاء مرة أخرى فإذا سائين مفتوح الذراعين يناجي العاصفة ... !

— ٣٥ —

كانت الشمس مضيئة والجو ساكنا صافيا إلا أن فيه ريح الخريف وكان يورى يتمشى في الحديقة . وهو غارق في خواطره ينظر إلى السماء وإلى الأوراق الخضراء والصفراء وصفحة الماء المصقولة وكأنه يودعها ويريد أن يعلق صورها بذاكرته حتى لا يعفى عليها النسيان . وكان يحس شيئا من الكمد كأن كل ساعة تمضي بشيء ثمين لا سبيل إلى استرداده — شبابه الذى لم يغتبط به ومكانه باعتباره رجلا نافعا عظيما في العمل الذى وقف عليه كل هماته . ولم يكن يدري كيف انخلد . وكان مقتنعا بأن له قوى كامنة يسعها أن تقلب العالم وعلماء واسعاء لا يدانيه عقل سواه غير أنه لم يكن يعرف تعليلا لاقتناعه هذا وكان ينجعل أن بصارح به حتى أصدق أصفياه .

وقال وهو يتأمل ظلال الأشجار فى الماء « آه ! حسن . لعل ما افعل الآن هو أحكم ما يمكن . والموت يعنى على كل شيء مهما عاش المرء أو حاول أن يعيش . آوه ! هذه لياليا آتية ! ما أسعدك يا لياليا إنك تعيشين كالطائر من يوم إلى يوم لا تطابين شيئا ولا ينغص عليك حياتك شيء ! ألا ليتنى أستطيع أن أحيا حياتها ... ! » .

على أن هذا لم يكن إلا خاطراً زائلا لأنه لم يكن فى الحقيقة يتمنى

أن يعتاض من آلامه الروحية هذا الوجود الضيق الذى يتمثل فى شخصية لياليا .
ونادته ليا « يورى ! يورى ! » بصوت عال وإن لم يكن بينهما إلا ثلاث
خطوات وضحكت بخبث ورمت إليه برسالة وردية اللون فتوقع يورى أمراً
وسألها بجدة « ممن ؟ » .

فقال لياليا « من سيموتشكا كرسافينة » وهزت له إصبعها .

فصار وجه يورى كالجمرة المتقدة وخيل إليه أن من الحق إن لم يكن
من السخافة المطبقة أن يتلقى رسالة وردية اللون معطرة عن طريق أخته .
وكرهه ذلك جداً وانطلقت لياليا وهى سائرة بجانبه تتحدث عن حبه لسينا على
عادة الأخوات اللواتى يعنين معاشق إخوتهن وجعلت تصف له حبها لسينا
ومبلغ سرورها إذا تزوج منها وما كادت تقوه بكلمة الزواج المنحوسة حتى
احتقن وجه يورى وطار الشر من عينيه وتمثلت له الصورة المبتذلة المألوفة
البيت والزوجة والبنون وكان لا يفزع من شيء فزعه من أن يكون له
بنون .

فقال بصوت حاد أذهل أخته : « كفى هراء من فضلك ! »

فأجابته مغضبة : « مالك تكبر الأمر إلى هذا الحد ؟ وماذا يهم إذا كنت
عاشقاً ؟ إنى لا أفهم لماذا تتظاهر بأنك بطل غريب ؟

وكان فى الجملة الأخيرة أثر من المكايدة النسرية فنفذ السهم إلى القلب
وما كادت تفرع من الكلام حتى انصرفت عنه ودخلت البيت .

فجعل يورى يراقبها والغضب يتطاير من عينيه وهو يفض غلاف
الرسالة وكان هذا ما فيها : —

« عزيزى يورى

إذا سمح لك الوقت وآتتك الرغبة فإنى أنتظر أن أراك اليوم فى كنيسة
الدير وستكون معى عمى وستظل فى الكنيسة الوقت كله . وأخشى أن يفدحنى
المال وبودى أن أحدثك عن شئون كثيرة . فوافنى هناك . ولعل أخطأت فى
الكتابة إليك ولكنى على كل حال فى انتظارك » .

فطار في لحظة واحدة كل ما كان يشغل خراطره ويكظ ذهنه وجعل يتلو الرسالة مرة بعد أخرى فرحاً مسروراً فقد كشفت هذه الفتاة الطاهرة الفتاة بجملة واحدة عن سر حبها له فكأنها جاءت إليه يحدودها الحب وبذلت له نفسها وأحس أن غايته دنت فأخذته الرعدة لما تصور أنه مالكتها وحاول أن يبتسم متهمكماً ولكن جهده ذهب عبثاً فقد شاعت الغبطة في نفسه حتى أحس أنه كالمطائر يستطيع أن يحلق فوق رؤوس الأشجار ويسبح في الهواء المشمس تحت السماء الزرقاء .

ولما همت الشمس بالمغيب اكترى مركبة إلى الدير وكان دونه النهر فركب زورقا عبر به إلى الشاطئ الآخر ولم يشعر إلا وهو في عرض النهر إن سعادته مبعثها تلك الرسالة الوردية فقال يحدث نفسه : « الأمر بسيط ، لقد عاشت عمرها في دنياها هذه . ولها لرواية غرامية ريفية . وماذا إذا كانت كذلك ؟ » .

وكان الماء يضرب جانبي الزورق في رفق وهو يدنو من التل الأخضر وما كاد يصل إليه حتى أنقذ الملاح نصف روبل ثم شرع يصعد التل وكانت الشمس قد دلفت إلى مغربها وانبسبت الظلال عند سفح المنحدر وتصاعد الضباب الكثيف فعخفيت وراءه ألوان الأشجار وكان فناء الدير ساكناً جليلاً . والأشجار كأنها تصلي والرهبان يروحون ويغدون كالأشباح والمصاييح تضيء فوق باب الكنيسة ورائحة البخور ساطعة .

وناداه صوت من ورائه « مرحبا بك يا يورى ا » .

فالتفت فإذا شافروف وسانين وايفانوف وبيراليتش يجازون الفناء ويتحدثون بصوت عال والرهبان ينظرون إليهم وجلين — حتى الأشجار عادت وكأنما فتحت شيئاً من سكون العبادة . فقال شافروف ودنا منه وكان يجلس يورى « لقد حضرنا جميعاً » . فقال يورى : « نعم . أراكم » .

فسأله شافروف : « ألا نرافقنا ؟ » ودنا منه .

فأجابه يورى : « كلا ! أشكرك ! إلى مرتبط بموعد » .
 فصاح إيفانوف : « أوه ! هذا حسن ! سترافقنا . إلى أعرف ذلك »
 وأمسك بذراعه . فحاول يورى أن يتخلص وصاح : « كلا ! لعن الله هذا !
 لا أستطيع . ربما لحقت بكم فيما بعد » .
 ولم ترقه خشونة إيفانوف . فقال هذا « حسن . سننتظرك فلا تنس أن
 توافينا » .

فأفترقوا وعادت السكينة فخميت على الغناء فخلع يورى قبعته ودخل
 الكنيسة وبه حياء وزراية ووقعت عينه على سينا على مقربة من أحد العمدان
 فأسرعت دقات قلبه وما كان أحلاها وأفتنها وأجل شعرها الأسود المجموع
 إلى جيدها الأتلع وكأنما شعره ينظرته فتلففت حولها والتفت في عينيها
 الغبطة والحياء .

فقال يورى بصوت خفيف « كيف أنت ؟ » ولم يدر أيصافحها في
 الكنيسة أم يمتنع عن ذلك وتلفت كثيرون من الحضور ففاق يورى بل لقد
 خجل ولحت سينا خجله فابتسمت له ابتسامة الأم وفي عينا نور الحب ويورى
 واقف هناك سعيدا طائعا : ولم ترم إليه سينا بنظرة أخرى بل جعلت ترسم
 الصليب على صدرها بحماسة وورع ولكن يورى كان على يقين من أنها
 تفكر فيه فكان يقينه هذا بمثابة عروة سرية وثقت ما بين قلبيهما فاضطربت
 دماؤه في عروقه وبدأ له كل شيء عجيبا خفى الأمر - قلب الكنيسة والترتيل
 والأصواء وزفرات المتعبدين ووقع أقدام الداخلين والخارجين - كل ذلك
 لاحظته يورى وكان يسمع في هذا السكون العميق خفقة قلبه وهو واقف
 لا يتحرك وعياه قيد حبس سينا وقدما وكأنما كان يجب أن يقول لكل إنسان
 أنه لا يؤمن بالصلاة ولا الترتيل ولا الأصواء ولكنه مع ذلك لا يقاومها
 فأفضى به هذا إلى المتارنات بين غبطته الحالية واكتسابه في صبيحة هذا
 اليوم . . .

وسأل نفسه « إذا فالمرء يستطيع أن يكون سعيداً ؟ لا شك أن كل

أرائى الخاصة بالموت وعبت الحياة منطقية ولكن الإنسان يستطيع على رغمها جميعاً أن يسعد ويهنأ . وإذا كنت سعيداً فإن ذلك من فضل هذه الفتاة الجميلة التى لم أرها إلا منذ زمن قريب

ثم خطر له فجأة أنهما ربما كانا قد التقيا وهما طفلان ثم افترقا ولم يكن أحد منهما يحلم بأن سيعشق الآخر ولا بأنها ستبذل له نفسها وهى عارية مشرقة . فاحمر خدها وخاف أن ينظر إليها . وكانت سينا — التى عراها خياله — واقفة أمامه فى قميصها الرمادى وقبعتها المستديرة تدعو الله أن يجعل حبه لها عميقاً كحبها له ويظهر أن حشمتها العذرية وقعت من نفس يورى فقد زایلته نحواطره الشهوانية وأغرورقت عيناه بالدموع فرفعهما وناجى ربه :

« رب إن كنت موجوداً فاجعل هذه العذراء تحبى واجعل حبنى لها عظيماً أبداً »

ثم قال لنفسه وقد أخجلته عاطفته « ان هذا كلام فارغ » وهمست فى أذنه سينا أن « تعال » وكان صوتها كأنه الزفرة ومضيا إلى الفناء وخرجا من الباب الصغير المفضى إلى سفح الجبل ولم يكن ثم أحد فكأن السور العالى قد حجبهما عن عالم الرجال وكانت غابة البلوط تحت أرجلهما والنهر هناك يلتصع كأنه مرآة من الفضة فتقدما إلى حافة المنحدر وكلاهما يشعر أن عليه أن يفعل شيئاً ولكن الشجاعة تنقصه . ثم رفعت سينا رأسها فالتفت شفتاها وشفثتا يورى فاضطربت واصفررت وهو يحتضنها وأحست لأول مرة أن جسمها الدافئ اللين بين ذراعيه . ودق ناقوس فى هذا السكون فخيّل ليورى أنه إيذان بالاحتفال بهذه اللحظة التى وجد فيها كل منهما صاحبه ثم ضحككت سينا وتخلصت منه وقالت « ستعجب عمتى منى ماذا أصنع ! انتظر هنا فسأعود إليك » ولقد ظل يورى لا يدربى أقاات ذلك بصوت عال تجاوبت بأصدائه الغابة أم سبحت إليه الألفاظ كالهيمسة

على أجنحة النسيم فجلس على الحشائش وسوى شعره وسمع سينا تقول :
« إني آتية يا عمى ! »

— ٣٦ —

تجهم الأفق ثم خفى النهر وراء الضباب وحملت الريح من المراعى صهيل الخيل هنا وهناك وتوامضت الأضواء الضعيفة . وكان يورى جالساً ينتظر أن تعود سينا فجعل يعد هذه الأضواء :

« واحد . اثنان ثلاثة . آوه . أن هناك رابعاً عند طرف الأفق كأنه النجم الضئيل . والفلاحون جالسون حواه يصنعون طعامهم ويتحدثون . أما النار التى هناك فقرية عالية اللهب والخيل إلى جانبها تنفخ ولكنها ليست مع هذا البعد إلا شعلة ضئيلة قد تخدم أو تغيب فى أية لحظة »

وصعب عليه أن يفكر فى شىء ما لأن إحساسه بالسعادة والهناء استغرق كل مشاعره وكان ربما تتم من حين إلى حين تتممة الفرع « ستعود حالا . »

وهكذا ظل ينتظر على قمة التل ويصغى إلى الخيل وصيحات البط فيما وراء النهر وإلى الف شىء آخر عرضى مما يحمله إليه النسيم عن الغابة . ثم سمع وقع أقدام تسير وراءه وحفيف ثوب تعبث به الريح فعلم وإن كان لم يتلفت أنها هى قد جاءت فارتجف لما تصور ما عسى أن يحدث . ووقفت سينا ساكنة بجانبه وأنفاسها معلقة فأمسك بها يورى وحملها بين ذراعيه وسرته جرأته وانحدر بها إلى سفح التل وكاد قدمه تزل فأسرت لآيه « سنقع » واحمر وجهها وهى على هذا مغتبطة . وكان الظلام طاغيا فوضع يورى سينا وجلس إلى جانبها ولما كانت الأرض منحدرية فإنهما كانا كالمستلقيين جنباً إلى جنب فألصق يورى فمه بفمها فى قبلة عن آخر عاطفة وأجمعها ولم تتأوب أو تتمنع ولكنها كانت تضطرب اضطراباً عنيفاً .

ثم تتممت وهى تاهت وكان صوتها خافتا كأنه همسة من الغابات : « أتحنى ؟ » .
فسأل يورى نفسه وهو منهول « ماذا أنا صانع » .

فجاء هذا الخاطر كالتلج وحار كل شىء فى لحظة وصار كنهار الشتاء تنقصه القوة والحياة وكانت عينا سينا تستجوبانه وتحاولان أن تستشفا من وجهه ما انطوت عليه ضاوعه فلما رأت تحياه وتغير سحنه تراجعت عنه وتخلصت من عناقه وصار صدر يورى ميدانا للعواطف المتدافعة . فأحس أن التراجع سخيف وشرع من جديد يلاطفها فى فتور وضعف وهى تقاومه بمثل فتوره وبروده وعاد الموقف وليس أسخف منه فى نظر يورى فأخلى سبيلها وكانت تلهث كالأطريدة .

وساد سكون أليم ثم قال فجأه : « عنوا ... لا بد أنى جننت ! » .
فأسرعت أنفاسها وخطر له أنه لم يكن ينبغى أن يقول هذا الكلام الذى لا بد أن يكون قد آلمها وجرح نفسها فأخذ على غير إرادته يعتذر بما يعلم أنه كاذب مزيف ولم تكن له إلا رغبة واحدة هى أن يعود أدراجه لأن الموقف صار لا يحتمل .

ويظهر أنها لحت ذلك فقد قالت : « ينبغى ... أن أذهب » .

فنهضا ولم ينظر أحد منهما إلى صاحبه وحاول يورى للحررة الأخيرة أن يوقظ نائمة إحساساته فعانقها عنقا فائرا فتمحركت فى نفسها عاطفة الأمومة وأكأنما أحسست أنها أقوى منه فدنت منه ولصقت بصدرة ونظرت إلى عينييه وابتسمت ابتسامة رقيقة عذبة وقالت : « هم مساء . تعال إلى غدا » ثم طبعت على فمه قبلة حارة أذهلت يورى ودار لها رأسه ووقف منها موقف العابد من ربه .
ولما انصرفت عنه ظل برهة طويلة يصغى إلى وقع قدميهما ثم التقط قبعته ونفض عنها أوراق الشجر الداوية قبل أن يضعها على رأسه ومضى إلى اللدير من طريق طويل تفاديا من لقاء سينا .

وقال لنفسه : « آه ! ألا بد لى من تدبيس هذه الفتاة الظاهرة البقية ؟ »

أينتهى الأمر بأن أفعل ما يفعله أى رجل غيرى من الأوساط ؟ بارك الله فيها ! إن هذا يكون خسة ودناءة . ويسرنى أنى لم أهو إلى هذا الحضيض . وما أقطع ذلك ! فى لحظة واحدة.. بدون كلام ... ينقلب الانسان حيوانا ! » .

وهكذا كن يفكر مشمئزاً مما كان قبل لحظة مبعث سرور وقوة له . وتنازعه الإحساس بالحجل والسخط - حتى رجلاه كان يجرحهما وحتى قبعته كانت على رأسه وكأنها على رأس مرور أبله .

نم سأل نفسه يائسا : « وبعد فهل أنا فى الحقيقة كفء للحياة ؟ » .

— ٣٧ —

كان الممر المفضى إلى الدير يفوح برائحة البخور والخبز ولح يورى راهبا قويا نشيطا وفى يده وعاء فصاح به يورى : « أيها الأب ! واضطرب لمخاطبته بهذه العبارة وظن الراهب سيمحار مثله ويرتبك .

فسأله الراهب بأدب وكانت بينهما سحب من البخور : « ماذا تبغى ؟ » . فقال يورى : « أليس هنا طائفة من الزوار آتون من المدينة ؟ » . فأجابه الراهب على الفور كأما كان يتوقع هذا السؤال : « نعم فى رقم ٧ » .

ففتح يورى الباب فألقى غرفة يتلوى فى جوها دخان الطباقي ورأى ضوءا قريبا من شرفتيها وسمع أصوات الكؤوس والشاربين وضحكاتهم وكان شافروف يتكلم ويقول : « إن الحياة داء عياء » . فصاح به إيفانوف : « وأنت مغفل لا شفاء لك ! ألا تستطيع أن تكف عن صوغك الأبدى لهذه العبارات السخيفة ؟ » .

ودخل يورى فاستقبلوه بأعظم الترحيب وأصخبه ووثب شافروف إلى قدميه وكاد يجر غطاء المائدة عنها وهو يصافح يورى ويقول له : « ما أعظم سرورى بحضورك ! الحق أن هذا فضل كبير منك ! أشكرك كثيرا » .

فجلس يورى بين سانين وبيتر الليتش وجعل ينظر حوله وكان فى الشرفة مصباحان مضئان وكأنما وراءهما من الظلمة جدار ولكنه مع ذلك استطاع أن يرى النجوم تومض فى قبة السماء وأن يلمح الجبل عند الأفق ورعوس الأشجار العالية وسطح الماء اللامع وكانت الفراشات تأتى من الغاب وتدور بالمصباح ثم تسقط على المائدة وتموت موتا بطيئا فقال يورى لنفسه وكأنه يرثى لمصرع هذه الفراشات « ونحن أيضا كهذه الفراشات نرتدى على النار ونحوم حول كل فكرة براقة لتتقضى نخبنا آخر الأمر وننوههم أن الفكرة هى مظهر لإرادة الحياة على حين ليست إلا النار التى تذيب عقولنا » .

فقال سانين ومد إليه يده بالزجاجة : « والآن فلتشرب » .

فقال يورى : « بكل سرور » وخطر له أن هذا يكاد يكون خير ما يسهه أن يصنع بل هو فى الواقع كل ما بقى عليه أن يفعله .

فشربوا جميعا وكان مذاق الفودكا فى فم يورى بشعاً حاراً مرا كالسم فعالج به بالخضر ولكن هذه أيضا لم تكن أحسن طعما فلم يسعها حلقه . وقال لنفسه : « كلا ! سواء على الموت وسيبريا إنما المهم أن أزيل هذا المكان كله ! ولكن أين أذهب ؟ إن الحياة سواء فى كل مكان ولا مهرب لى من نفسى ومتى شرع المرء يفكر فى الحياة فأخلق بها أن لا تعود أى صورة منها مرضية سواء أعاش فى جحر كهذا أم فى بطرسبرج » .

وقال شافروف : « إنى أرى أن الإنسان لاشئ من حيث هو فرد » . فنظر يورى إلى وجهه الغبى وعينيه المتعبتين الصغيرتين الباديتين من وراء النظارة وقال لنفسه إن مثل هذا لاشئ فى الحقيقة . وضحى شافروف فقال : « إن الفرد صفر وما يرزق القوة الحقيقية إلا الذين يخرجون من صفوف الجماهير ولا يفقدون الاتصال بها ولا يقاومونها كما يفعل أبطال الطبقات الوسطى » .

فسأله إيمانوف بلهجة المتحضر : « وفي أى شيء تكون قوتهم من فضلك؟
أظهر قوتهم في محاربة الحكومة الفعلية؟ ربما؟ ! ولكن كيف تساعد
الجماهير في جهادهم في سبيل السعادة الشخصية؟ » . فقال شافروف :
« آه ! هذا أنت ! إنك رجل ضخم من طراز السوبرمان . ولذلك تنشده
نوعاً من السعادة يلائمك ولكننا نحن الأوساط نرى أن جهادنا في سبيل
الغير هو السعادة . انتصار الفكرة هو قوام السعادة ! » .
فسأله إيمانوف : « وهب الفكرة كانت خطأ » .

فقال شافروف : « هذا لا يهم ! إن الإيمان هو كل شيء » . وهز رأسه
معانداً . فقال إيمانوف بازدراء : « باه ! إن كل امرئ يعتقد أن عمله أهم
عمل وأن الدنيا لا يسعها الاستغناء عنه — حتى حائك ثياب السيدات يظن
ذلك ويتوهمه ! وأنت تعلم هذا حتى العالم وإن كنت قد نسيت على ما يظهر
وإذ كنت صديقاً لك فليس يسعني إلا أن أذكرك ! » .

— فنظر يورى إلى إيمانوف نظرة البغض والمقت وسأله بلهجة
الزراية : « وما هو قوام السعادة في رأيك؟ » .

فقال إيمانوف : « إن قوامها على التحقيق ليس الزفرات والأناث
التي لا آخر لها ولا التساؤل الذي لا ينتهي كأن يظل المرء حياته يقول :
« لقد عطست الآن . فهل كان هذا صواباً ؟ أليس ذلك خليقاً أن
يضر بعضهم ؟ هل أدبت واجبي وقت بمهنتي إذ عطست ؟ » . فغاظ
يورى أن يلح أن إيمانوف يظن نفسه أذكى منه وأنه يتضاحك به
فأجابه :

« إن هذا ليس برنامجاً » وحمل لهجته ما استطاع من الازدراء .

فقال إيمانوف : « أبك حقاً حاجة إلى برنامج ؟ إلى إذا شئت واستطعت
أن أفعل شيئاً فعلته . هذا هو برنامجي » . فقال شافروف بحدة
« ما أحمله من برنامج ! » وهو يورى كنفه ولم يجب .

وظلوا لحظة أخرى يشربون في صمت ثم التفت يورى إلى سائين وشرع يتشرح له آراهه في الله تعالى وكان يقصد إلى إسماع إيفانوف مايقول وإن لم ينظر إليه . وكان شافروف يصغى باحترام وحماسة . أما إيفانوف فأولاه ظهره وجعل يقول بعد كل بيان يلقيه يورى : « لقد سمعنا هذا من قبل ! » .

فتدخل سائين في آخر الأمر وقال لإيفانوف :

« أرجوك أن تكف عن هذا ! ألا ترى أن تكريرك عبارتك هذه ممل جداً ؟ إن لكل إنسان الحق في إبداء رأيه والحرية في اعتناقه » : ثم أشعل سيجارة وخرج إلى الفناء فخنف سكون الليل من حرارة جسمه وكان القمر قد طلع من وراء الغابة وأراق ضوءه السلس اللين على عالم الظلام ثم سمع وقع أقدام عاربه على الحشائش ورأى غلاماً يخرج من الظلام فسأله : « ماذا تريد ؟ »

فقال الغلام : « إني أبحث عن المدموازيل كرسافينا المدرسة » .

فسأله سائين : « لماذا؟ » وذكر سائين منظرها وهى عاربه على حافة النهر ونور الشمس يغمر جسمها . فقال الغلام : « إن معى رسالة إليها » . فقال سائين : « اها ! لابد أنها هناك عند المدرس لأنها ليست هنا فاذهب إلى هناك » .

فضى الغلام وغاب في الظلام وتبعه سائين في بطء وهو ينشق النسيم الرقيق الحواشي ويكرع منه كرعاً وسار حتى دنا من المسكن وصار الضوء المرسل من النافذة على وجهه الهادى المفكر فلمح سينا عند النافذة واقفة في ثياب النوم وعلى كتفها المستدير الرقيق نور المصباح وكانت غارقة في خواطرها ويظهر أنها كانت سارة إلا أن فيها ماتستحى منه فقد كانت أجفانها تختليج وعلى شففتها ابتسامة مرتسمة فرأى فيها سائين ابتسامة العذراء الناضجة الماتبهة لقبة ساحرة طويلة . فوقف جامداً مكانه وجعل يحدق فيها . وكانت سيدا تفكر فيما در بها في يومها وفي تجاربها التى سرتها وأثارت على هذا حياءها وخجائها فتالت لنفسها : « يا إلهى ! أو قد هويت إلى هذا

الدرك ؟ » ثم ذكرت للمرة المائة مافازت به من الغبطة وهى بين ذراعى يورى وهمسه « واحبيبتاه ! » ولحظ سائين اختلاج جنونها مرة أخرى وابتسامتها ولم تشأ أن تفكر فيما تلا ذلك مما دفعت إليه العاطفة الجاحجة . ودق الباب فسألت سينا : « من الطارق ؟ » - ورأى سائين جيدها الناصع الرقيق كأوضح مايكون - فقال الغلام : « هذا خطاب إليك » .

ففتحت سينا الباب ودخل الغلام وقدماه تحملان طوائف شتى من الأوحال ونزع قبعته عن رأسه وقال : « قد أرسلتنى سيدتى » .
فمضت سينا الرسالة وقرأت : « عزيزتى سينرتشكا ! إذا استطعت فاحضرى الليلة فقد جاء المفتش وسيزور مدرستنا غدا صباحاً ولا يحسن أن تكونى غير موجودة » . فسألتها عمتها « ماذا ؟ » فقالت سينا : « قد أرسلت ديبوفا فى طلبى لأن المفتش حضر » . وحك الغلام قدميه وقال : « لقد أمرتنى أن أرجوك أن تبادرى إلى الذهاب » فسألتها عمتها : « أذهبة أنت ؟ » .

أجابت : « كيف أذهب وحدى فى الظلام ؟ » .
فقال الغلام : « إن القمر فى كبد السماء والليل منير » .
فقالت سينا مترددة : « لا بد لى من الذهاب » .
فقالت عمتها : « نعم نعم . اذهبي لتلا يحدث ما لا تحبين ؟ »
فهزت سينا رأسها وقالت : « حسن سأذهب إذا » .
ولبست ثيابها ووضعت قبعتها على رأسها وودعت عمتها والتفتت إلى الغلام وقال : « أو عائد معى أنت ؟ » فأطرق الغلام وارتبك وحك قدميه وقال : « لقد حضرت لأبقى مع أمى الليلة وهى تغسل ثياب الرهبان هنا » .

فقالت سينا : « ولكن كيف أذهب وحدى ؟ » .
فأجابها الغلام : « حسن جداً . فلنذهب معاً » .
وخرجا إلى الظلام فقالت : « ما أبده من منظر ! » .

ثم ماعتمت أن ندت عنها صرخة إذ اصطدمت بإنسان في الظلام .
فقال سائين ضاحكا : « إنه أنا » .

ثم مدت سينا إليه يدها المرتجفة وقالت على سبيل الاعتذار : « إن الظلام طاخ
لا تنفذ فيه العين » . فسألها سائين : « أين تذهبين ؟ » .
أجابت : « إلى المدينة فقد أرسلوا في طلبى » .

قال : « وحذك ؟ » . أجابت : « كلا ! معى الغلام وهو الليلة فارسى » .
فقال الغلام ضاحكا : « فارس ! هاها ! » .

وسألته سينا : « وماذا كنت أنت تصنع هنا ؟ » فقال سائين : « كنا
نشرب قليلا » : فسألته سينا . « قذت « كنا » فمن هم ؟ » .
أجاب : « نعم . شافروف ويورى وإيفانوف . . . » .

فقال سينا : « أوه ! وهل يورى معك ؟ » واحمر وجهها وسرت في
جسمها لذكر اسمه هزة جعلتها تحس كأنها واقفة على حرف هاوية . فسألها
سائين : « لماذا تسألين ؟ » .

فمأنت وزاد خجلها « لأى . . . قا ! . . . قابله . والآن إلى الملتقى ! » .
فصافح سائين اليد الممدودة إليه وقال : « إذا شئت فإنى مستعد أن أحملك في
زورق إلى الشاطئ الآخر . لماذا تقطعين كل هذه الدورة على قدميك ؟ » .
فقال سينا : « كلا ! لا تتعب نفسك من مضلك ! » وقال الغلام :
« دعيه بالله يفعل فإن الشاطئ كله أوحال تغوص فيه الرجل إلى الركبة » .
فقال : « حسن إداً . ولتذهب إلى أمك الآن » .

فسألها الغلام « ألا قىافين أن تجتازى الحقول وحذك ؟ » .
فأجاب سائين : « سأرافقها إلى البلدة » .
فسألته سينا : « ولكن ماذا عسى أن يقول اخوانك ؟ » .
فأجابها : « هذا لا يهم ! سيظلون إلى الفجر على كل حال . وحسبى ماعانيته
من الملل إلى الآن » .

فقلت : « إن هذه منة أحفظها لك - اذهب يا جريشكا » .

فقال سائين : « امسكى بذراعى وإلا تعثرت » .

فلفت سينا ذراعها بذراعها وخالجهما إحساس غريب لما لمست عضلاته الحديدية وكنا مضيا فى الظلام وانخرقا الغابة إلى النهر وكان الليل فى المغابة أسحم طاخيا كأنما لفت كل الأشجار فى ضباب دائىء لاتنفذ العين منه .
فقلت : « ما أشد الظلام ! » .

فهمس سائين فى أذنها وكان صوته يرجف قليلا : « هذا لا يهم ! إلى أحب السرى فى الغابات لأن المرء حينئذ ينضوعه ثوب الرياء ويعود أجراً وأمتع » .
وكانت سينا تجد صعوبة فى السير وشاع فى جسمها الاضطراب للمامستها فى هذه الظلمة جسم سائين القوى المتين الذى كان يجذبها أبداً واهمر وجهها وعاد كالجمرة المضطربة وأعداها سائين بحرارة جسمه فصار ضحكها متكلفاً لا ينقطع . وكان الظلام أخف عند سفح التل والقمر يريق ضوءه على صفحة الغدير والنسيم البليل يصافح خليفها وأخذت الغابة تنأى عنهما وتغيب فى الظلام كأنما أساحتها إلى النهر .

فقلت : « أين زورقك ؟ » . أجاب . « هذا هو » .

ثم أخذنا مقعدهما فيه واكسبها القمر والتماع الماء وضاءة وروعة ودفع سائين الزورق فانطلق يفرق الماء ويعوم على ضوء القمر مخلفا وراءه خطا طويلا .

فقلت سينا وأحست فجأة قوة لاتغالب : « دعنى أجذف فىنى أحب ذلك » .
أجاب : « إذا فاجلسى هنا » ووقف هو فى وسط الزورق . فاحتكت به وهى تنتقل إلى مكانها الجديد ولمست بأطراف أصابعها يده الممدودة إليها لمساعدتها وبدأت أمامه فى حسنها الرائع . وهكذا سبحا على متن الغدير . والقمر يرسل أشعته على وجهها الباهت وحاجبها السوداوين وعينها البراققتين فخيّل لسائين أنهما مقبلان على أرض مسحورة منعزلة عن الناس بعيدة عن منازلهم خارجة عن دائرة القانون والعقل الإنسانى :

وقالت سينا « ما أجل هذه الياة ! » .
فقال بصوت خفيض : « نعم أليست كذلك ! » .
فانفجرت ضاحكة وقالت : « لا أدري كيف هذا ولكنى أحس رغبة
شديدة فى أن التى بقبعتى فى الماء وارسل شعرى » .
فقال سانين : « إذا فعلى » .

ولكنها قلقته وصمتت . وكرت خواطرها إلى ما مر بها فى يومها من
التجارب وخيل لها أن من المستحيل أن لا يكون سانين عارفا بما جرى فزاد
هذا الظن فى حدة سرورها ونازعها نفسها أن تقول له أنها ليست دائماً ساكنة
حياة محتشمة وأنها أحياناً تلقى عن وجهها قناع الرياء وتعود شخصاً آخر مختلفاً
جداً .

وسأته بصوت مضطرب : « هل عرفت يورى منذ زمن طويل ؟ » . أجاب
« كلا ! لماذا تسألين ؟ » .

قالت : « مجرد سؤال . ألا تظنه ذكياً ؟ » .
وكانت فى صوتها نبرة حياة صبياني كأنما كانت تريد أن تنتزع شيئاً من
هو أسن منها ومن له أن يلاطفها أو يعاقبها .
فابتسم سانين لها وهو يقول : « نعم ! » . وعلمت سينا من صوته أنه يبتسم
فزاد حياؤها وقالت : « إنه حقيقة ذكى ... ولكنه شقى على ما يظهر ! » . فأجابها
سانين : « ربما كان الأمر كما تصفين . فأما شقاؤه فلا شك فيه . وهل أنت
أسفة له ؟ » .

فقالت سينا بدلال متكلف : « نعم بلا شك » .
فقال سانين : « هذا طبيعى ولكن للشقاء معنى عندك غير معناه الحقيقى .
إنك تظنين أن الرجل الساخط الذى لا ينفك يحال ويشرح حاله النفسية وأعماله
— مثل هذا الرجل تظنينه لاشقياً مسكيناً بل تحسبينه قوة وشخصية نادرة فائدة .
لأنك تتوهمين أن هذا التحليل المستمر من شأنه أن يخول المرء أن يظن نفسه
أرقى من سواه وأحق بالعطف والحب والإجلال » .

فسألته سينا : « حسن ولكن ماذا هو إذا لم يكن كذلك ؟ » .

ولم تكن قد كلمت سالين طويلا من قبل . وكانت تسمع أنه فذ فريد . في بابه فوجدت لذة في ملاقاته مثل هذه الشخصية الجديدة الممتعة وضحك سالين وقال : « مضى زمن كان الإنسان فيه يعيش عيشة الوحش ولا يحمل نفسه تبعه أعماله أو إحساساته ، ثم تلا ذلك عهد الحياة المحسة المدركة فبالغ الإنسان في مفتتحها في تقدير عواطفه وحاجاته ورغباته . وهنا عند هذا الطور - يقف يورى فهو آخر « الموهيكان » - آخر من يمثل عصرا من النشوء الإنسانى مضى وانقضى ولا سبيل إلى عودته . وكأنه قد أشرب خلاصة ذلك العصر فتسممت روحه . فهو لا يحيا حياته في الحقيقة . يسائل نفسه عن كل عمل وكل فكرة « هل أحسنت ؟ هل أسأت ؟ » . وهذا غاية السخف . وهو في السياسة لا يدري هل يليق بكرامته أن يقف في صف مع الآخرين أم لا يليق وإذا نفى يده من الاشتغال بالسياسة عاد يعجب لنفسه أليس اعتزاله إياها مهانة له وأمثاله كثير ، وإذا كان يورى شاذاً فذلك راجع إلى أنه أذكى » .

فقالت سينا بخنجر : « لم أفهم مرادك تماما . إنك تتكلم عن يورى كأنه هو المعلوم عن كونه كذلك . وإذا كانت الحياة عاجزة عن إرضاء رجل فهذا الرجل لابد أن يكون فوق الحياة » .

فأجابها سالين : « إن الإنسان لا يمكن أن يكون فوق الحياة لأنه ليس إلا جزءا منها . وقد يسخط ولكن مرجع السخط إلى نفسه . فهو إما لا يستطيع أو لا يحروء على أن يأخذ من كنوز الحياة ما يسد حاجته . ومن الناس من يقضون حياتهم في السجون . وهناك غيرهم آخرون يخافون أن يفروا منها كالطائر الأسير يفرق من الطيران إذ يطاق له . . والجسم والروح معا يكونان كلا متجاوبا لا يزعه إلى دنو الموت الرهيب ولكننا نحن الذين نقضى على هذا التلاثم بسوء فكرتنا عن الحياة . فقد زعمنا أن رعباتنا الطبيعية حيوانية وصرنا نحس العار والحجل منها ونخفيها في صور

وضيعة . والضعاف منا لا يفتنون لهذا بل يقطعون حياتهم في الأغلال المضروبة عليهم . أما الضحايا فاقولئك الذين تقعد بهم آراؤهم المقلوبة . ولا شك أن القوى المحبوسة تتطلب منفذا وأن الجسم يشد السرور واللذة وأنه يتعذب من جواء عجزه وقصوره . فهو لاء وأمثالهم حياتهم صراع دائم وشك مستمر يتعلقون بكل ما يقدرون أن يعينهم ويفضي بهم إلى نظرية أخلاقية أحدث وأجد ولا يزالون كذلك حتى يعودون وهم يخافون أن يعيشوا وأن يحسوا . فقالت سينا مبهجة : « نعم نعم » . وغزت رأسها كتائب من الخواطر الجديدة وتلفتت حولها وعينها تضيء وتغلغل إلى أعماق نفسها جمال الليل وحسن الغدير الساكن والغابات الحاملة وعادوها الشوق إلى تجربة القوة التي تؤتيها السرور .

ومضى سائين في كلامه فقال : « إنى أبدأ أحلم بعصر ذهبي لا يحول فيه شيء بين الإنسان وسعادته فيباشر كل ما يستطيع من المتع في جرة وحرية . فسأته سينا : « ولكن كيف يصنع ذلك ؟ أبالرجوع إلى الهمجية ؟ » . قال : « كلا . إن العصر الذي كان فيه الإنسان وحشا كان عصرًا منحوسًا . وعصرنا الحاضر الذي يتحكم فيه العقل في الجسم ويخفيه عصر تنقصه الهمة والرشد . ولكن الإنسان لم يعيش عبثًا فقد خلقت له حياته حالات جديدة لا تدع مجالًا للحشونة الهمجية ولا للرهبانية » .

فسأله : « وماذا عن الحب ؟ ألا يفرض علينا قيودًا ؟ » . فقال : « كلا ! إن الحب إذا كان يفرض قيودًا مؤلمة فذلك من جراء الغيرة . والغيرة نتيجة العبودية . والرق في أى صورة ضار وينبغي للناس أن يستمتعوا ما يتيح لهم الحب بلا خوف ولا قيد فإذا فعلوا عاد الحب أمتع وأحفل في كل صورة وأكثر تأثيرًا بالمصادفات والفرص » . فقالت لنفسها : « لم يخالجنى أى خوف في هذه اللحظة » ثم نظرت فجأة إلى سائين نظرة من يراه لأول مرة وكان جالسًا أمامها أسود العينين عريض الكتفين يشوق الناظر إليه ويروق فقالت لنفسها « ما أحمله ! » .

وبدا لعينها عالم بأسره من القوى والعواطف فهل تدخله ؟ فابتسمت لهذا الخطر وهي ترتجف ولا بد أن يكون سائين قد أدرك ما يجول في خاطرها فقد أسرعت أنفاسه وعاد وكأنه يلهث . ومر الزورق بنقطة يضيق فيها مجرى النهر فتلق المجدافان بالأعشاب وأفلتا من كفيها فقالت : « لا أستطيع أن أجدف هنا إن المجرى ضيق » وكان صوتها رقيقاً منغماً كخزير الماء . فوقف سائين وسار إليها فسأله وهي فزعة : « ماذا ؟ » . فقال : « لا شيء » إلى أريد . . . » .

فوقفت مثله وحاولت أن تصل إلى الدفة واضطرب الزورق اضطراباً عنيفاً ففقدت توازنها ومالت إلى سائين وأمسكت به ووقعت بين ذراعيه . وفي هذه اللحظة — وبدون أن يجرى في خاطرها أن هذا ممكن — أطالت التصاقها به فاندلعت النار في دماء سائين وخرجت من بين شفثيه آهة دهشة وسرور واحتضنها وردها إلى الوراء حتى سقطت قبعها وزاد اضطراب الزورق فصاحت به : « ماذا تصنع ؟ دعني بالله ! ماذا تصنع ؟ » وكان صوتها ضعيفاً خافتاً . وحاولت أن تتخلص من ذراعيه الحديديتين ولكن سائين ضم صدرها إليه ضماً أزال ما كان بينهما من الحواجز .

ولم يكن حولهما إلا الظلام . وإلا رائحة النهر والأعشاب البليلة . وجو يسخن تارة ويبرد أخرى وسكون عميق ثم فقدت فجأة وهي لا تدرى كل إرادة لها أو فكر فتراخت أعضاؤها وأسلمت نفسها لإرادة غيرها .

— ٣٨ —

أفاقت سينا أخيراً فأبصرت صورة القمر الوضاء ترسمه على صفحة الماء ووجه سائين مكباً عليها بعينه اللامعتين وأحست أن ذراعيه حول خاصرتها وأن أحد المجدافين يحك ركبها .

ثم طفقت تبكي بكاءً رقيقاً ملحاً دون أن تحاول التخلص من عناق سائين وكان بكاءها على ذلك الذي لا يرد ودموعها دموع الحوف والمرثية

لنفسها والحب له . فرفعها سانين . ووضعها على ركبته وهي مستسلمة له كالطفل وكانت تسمعه يرفه عنها بلهجة الوامق الشاكر وكأنها تحلم . فقالت لنفسها : « سأغرق نفسي » وكأنما كان هذا الخاطر جواباً على سؤال شخص ثالث يقول لها : « ماذا صنعت ؟ وماذا تنوين أن تصنعى الآن ؟ »

ثم سألت سانين بصوت عال : « ماذا أصنع الآن ؟ » فأجابها سانين : « سئرى » فحاولت أن تنهض عن ركبته ولكنه أمسك بها فبقيت في مكانها وهي تعجب كيف لا تشعر له بمقت أو اشمئزاز وحدثت نفسها إن لم يعد يعينها ما عسى أن يحدث ونخالجها شعور خفى بالعجب . لهذا الرجل القوي الأجنبي الحبيب ماذا ينوى أن يصنع بها .

وبعد برهة تناول سانين الخدافين واستلقت هي إلى جانبه وعيناهما مغمضتان وجسمها يضطرب كلما لامست يده صدرها وهو يحدف ولما بلغ الزورق الشاطئ فتحت عينها فأبصرت الحقول والماء والضباب والقمر باهتاً كالشبح يهيم بالفرار من الفجر وكان الفجر قد تنفس وهب النسيم بارداً فسألها سانين : « هل أذهب معك ؟ » فقالت : « كلا . إنى أفضل أن أمضي وحدى » فحملها سانين وسره أن يحملها فقد كان يحس أنه يحبها وأنه مدين لها بالشكر ووضعها على الشاطئ بعد أن ضمها وقال : « يالك من حسناء ! » فابتسمت ابتسامة الزهو . وتناول سانين يديها وجانها إليه وقال : « قبلى » فقالت لنفسها وهي تطبع على فمه قبلة طويلة : « لا يهيم الآن ! إن كل شيء لا يهيم ! » وهمست في أذنه : « إلى الملتقى » وهي لا تكاد تدري ما تقول فناشدها سانين أن : « لاتغضبى علىّ يا فتاتى ! » وجعل يراقبها وهي تصعد الشاطئ مترنحة متطرحة وهو يرثى لها وأحزنه ما هو مذخور لها من الآلام التي لا ضرورة إليها والتي لا قبل لها باحتمالها وكانت تسير في ببطء إلى مطلع الفجر ولم تلبث أن لفها الضباب في شملته البيضاء .

ولما خفيت عن عينه وثب سانين إلى الزورق ووجد المساء بمجدافيه

فأرغاه واندفع به الزورق حتى توسط النهر وكان ضباب الفجر قد غشى ما حوله فترك المحذافين ووقف في وسط الزورق وأطلق صيحة فرح عالية فتنجأوبت بصيحته الغابات والضباب كأنما كانت حية مثله .

— ٣٩ —

نامت سينا كأن ضربة أصابتها ولكنها بكرت في القيام وكانت مهدودة القوى بادرة الجسم كالجثة . ولم يتم ياسها لحظة ولم تستطع أن تنسى ما حدث فجعلت وهي حزينة صامتة تفحص ما في الغرفة كأنما تريد أن ترى هل لحن شيئاً تغيير ولكن كل شيء كان على العهد به وكانت ديبوفا على السرير الثاني مستغرقة في نومها وليس غير الثوب الملقى على كرسي بدون احتفال يقص عليها قصتها . وزاد وجهها اصفراراً وأحضرت لذهنها كل ما مر بها ثم نهضت ولبست ثيابها وجلست إلى النافذة تنظر إلى الحديقة وكان رأسها يموج بالخواطر المضطربة المبهمة كالدهان إذ تعبت به الريح . ثم استيقظت ديبوفا فجأة وقالت : « ماذا ؟ أوقد قت ؟ ما أعجب هذا ؟ » .

وكانت لما حضرت سينا صباحاً قد سألتها والنوم يغالبها :

« كيف استطعت أن تحضري في هذه الليلة ؟ » ثم نامت ولم تنتظر الجواب ولكنها لما تبينت الآن أن في الأمر شيئاً أسرعت حافية وسألتها « ما الخبر ؟ أمريضة أنت ؟ » فقالت سينا وعلى شفيتها الورديتين ابتسامة : « لا لا ! ولكني لم أذق النوم » .

وهكذا نطقت بأول اكذوبة أحالت عذريتها الصريحة المزهوة ذكرى وجعلت تنظر إلى ديبوفا وهي تلبس ثيابها فبدت لها نفية وضاعة ورأت نفسها بغیضة كالأفعى وبلغ من ذلك أن خيل لها أن الجانب الذي كانت ديبوفا واقفة فيه مشمس ضاح على حين بدا لها ركنها مغموراً بالظلام . ولكن ذلك كله كان مكتوماً ولم يكن ظاهرها الطاهر يتم على شيء ثم لبست حلتها وقبعها

وتناولت مظلمتها وذهبت إلى المدرسة جذلة على عاداتها وبقيت ثم إلى الظهر ثم عادت وقابلت في الطريق ليذا فوقفتا تتحدثان عن أمور تافهة كثيرة وكانت ليذا تمقت سيناً لظنها أنها سعيدة حرة فارغة القلب من الهموم على حين كانت سيناً تنفس على ليذا حياتها السلسلة الممتعة وكانت كل منهما تعتقد أنها ذاهبة ضحية الظلم وتقول لنفسها: « لئى ولا شك خير منها فلماذا تسعد وأشقى ؟ » .

وتناولت سيناً بعد الغداء كتاباً « وجلست قرب النافذة تقرأ وكانت ساعة الانفعال قد انقضت فصارت الآن لا تحفل بشيء وجعلت تردد من حين إلى حين : « آه ! لقد قضى الأمر . وخير لى أن أموت » . ورأت سائين قبل أن يراها وكان سائرا صوبها يحترق الحديقة وينحى عنه الأغصان المهدلة كأنما تريد أن تحببها بلمسها فاضطجعت فى كرسيها وجعلت ترقبه بعينين شاردين . وقال ومد إليها يده : « عمى صباحاً » . وقبل أن تستطيع أن تنهض أو تفيق من دهشتها حياها مرة أخرى بصوت رقيق فتمتمت : « عمى صباحاً » فقال إلى النافذة واتكأ عليها وقال : « تعالى إلى الحديقة برهة نتحدث » . فنهضت تدفعها قوة سلبتها لإرادتها وقال سائين : « سأنتظرك هناك » فلم تزد على أن هزت رأسها .

وكانت سيناً تشفق من النظر إليه وهو يتراجع إلى الحديقة فظلت بضع ثوان جامدة فى مكانها ويداها متصافقتان ثم خرجت وكان سائين واقفاً ينتظرها فى بعض جهات الحديقة فأقلقها ابتسامته فتناول كفها وجلس على جذع شجرة وجذبها برفق إلى حجره وقال : « لست واثقا من أنه كان يابق بى أن أحضر لأنى أخشى أن تظنى أنى أسأت إليك ولكنى لم أستطع البقاء بعيداً عنك وأريد أن أشرح لك بعض الأمور حتى لاتذهبنى إلى مقبى وكرهى . وبعد ... فهاذا كنت أستطيع أن أفعل غير ما فعلت ؟ كيف كان يسعى أن أقاوم ؟ لقد مرت بى لحظة شعرت فيها أن كل حاجز بيننا تداعى وأنى إذا أفلتتني هذه اللحظة فلن تعود وأنت رائعة الجمال وضيئة

الشباب . . . » وكانت سينا صامتة وأذنها الرقيقة الشفافة يغطيها شعرها إلا أقلها فاحمرت واختلجت أهداب أجفانها فقال سائين : « إنك شقية الآن . أما البارحة فما كان أجمل كل شيء ! وإنما منشأ الأحزان لأن الإنسان فرض ثمننا لسعادته ولو أن أسلوب حياتنا كان مختلفا لبقيت ليلتنا هذه في ذاكرتنا أنفس ماجربناه وأجمل ما استمتعنا به » . فقالت : « نعم لو أن . . . » ثم انسمت فجأة فأنهشها اسمائها التي لم تكن مقدرة ولكن ذلك لم يطل إلا برهة . ثم تراءت لها حياتها المستقبلية تكتنفها الأحزان والعار فأثارت في نفسها هذه الصورة الحقد والمقت وقالت بحدة : « اذهب عني ! دعني ! » . وصرت أسنانها وتصلب وجهها ونطق بالبغض وهي تنهض .

فرق لها قلب سائين ونازعته نفسه هنية أن يعرض عليها اسمه وحمايته ولكن شيئا صده وصرفه وأحس أن مثل هذا الإصلاح لما أفسد أخط وأسفل من أن يعالج . ثم قال : « إنى أعلم أنك تحبين يورى فلعل هذا مايكرهك ؟ » . فتمتمت سينا وشدت كفها على كف : « لست بعاشقة أحد » . فقال سائين مستعظما : « لاتحملي لى ضغنا . إنك كما كنت جمالا وحسنا وقدرة على إيتاء يورى ما أوليتنى إياه من السعادة وإنى لأتمنى لك من أعماق قلبي كل غبطة ميسورة ونعمة ممكنة وسأتمثلك دائما كما رأيتك البارحة . فالوداع وابعثي في طلبى إذا احتجت إلى . واعلمي أن حياتى مبذولة لك إذا أردت » . فنظرت إليه سينا وهى صامتة وأحست عظفا عجيبا وقالت لنفسها : « من يدري ؟ ربما استقامت الأمور » . وتجرد المستقبل من البشاعة فى نظرها ووقف الاثنان وجها لوجه وهما يعلمان أن فى صدريهما سرا لاسبيل لأحد إليهما وأن ذكرته ستبقى على الأيام سارة . وقالت سينا : « إلى الملتقى » بصوت رقيق عذب فأضاء السرور وجه سائين ومدت إليه كفها فقبلها وقبلته قبلة الأخوين ورافقته إلى بوابة الحديقة ثم وقفت وجعلت تراقبه أسفة وهو يمشى عنها ثم كرت راجعة إلى الحديقة واستلقت على النجائل

وأغمضت عينها وفكرت فيما وقع وتساءلت أينبغي لها أن تطلع يورى عليه أم تكتمه . وقالت : « كلا ! لن أفكر في هذا مرة أخرى ويحسن أن تنسى بعض الأمور » .

— ٤٠ —

استيقظ يورى صباح اليوم التالى متوعكا مصدع الرأس مر القم . ولم يذكر في أول الأمر إلا صيحات وأصوات كؤوس وضوء مصابيح خابية قرب الفجر ثم ذكر كيف أن شافروف وبيتر الليتش مضيا وأنه بقى مع إيفانوف وكان هذا قد اصفر من كثرة الشراب ولكنه ظل متأسكا وأنهما وقفا يتحدثان فوق الشرفة .

ولم تدع لهما الحمر عينا تفتن إلى جمال الفجر والمروج والنهر وظلا يتناقشان وأثبت إيفانوف ليورى أن أمثاله لا قيمة لهم إذ كانوا يخافون أن يقطفوا ثمار الحياة وأن خيرا لهم أن يموتوا وذكر قول بيتر الليتش : « لنى على التحقيق لا أدعو هؤلاء الأشخاص رجالا » وضحك وتوهم أنه هدم يورى وقضى عايه ولكن يورى لم يسؤه ذلك ولم يعبا من كلامه إلا بقوله إن حياته شقية وذهب يعلل ذلك بأن أمثاله أدق حسا وألطف شعورا ووافق على أن خيرا لهم أن يخرجوا من الدنيا ثم طغى حزنه حتى كاد يبكى وهم بأن يخبر إيفانوف بحبه لسينا وما وقع له معها وأن يلقي بشرفها تحت قدمى هذا الوحش .

وذكر أيضا أن إيفانوف عاد بعد برهة ومعه سائين وأن سائين كان منشرح الصدر كثير الكلام وأنه كان ينظر إلى يورى نظرة ود مشوبة بالزراية ثم انتقلت خواطره إلى سينا فقال لنفسه . « لقد كان من الحسنة أن أتمز فرصة ضعفها . ولكن ماذا أصنع الآن؟ أأبالها ثم أرمى بها . كلا ! هذا لاسبيل إليه فلنى أرق قلبا من ذلك إذا ماذا أفعل ؟ أتزوج منها ؟ » .

. الزواج ! إن هذا مبتذل إلى حد شنيع . وكيف يستطيع من كان مثله .
معقد المزاج أن يحتمل فكرة المعيشة الزوجية العامة ، إن هذا مستحيل : « على
أنى أحبها . فهل أنبذها وأمضى ؟ ولماذا أقضى على سعادتي ؟ إن هذا فظيع
ومضحك ! » .

ثم وصل إلى البيت وحاول أن يصرف خواطره عن هذا الموضوع
فجلس إلى المكتب وشرع يقرأ بعض عبارات فخمة كان قد كتبها أخيراً .
« ليس في هذه الدنيا خير ولا شر . ويقول البعض إن الطبيعي خير وإن
الإنسان حقيق أن يرضى شهواته » « لأنها طبيعية ولكن هذا خطأ لأن كل شيء
طبيعي . وما من شيء يولد في الظلام أو الفراغ . وأصل كل شيء
واحد » .

« ويقول آخرون كل شيء يخرج من يد الله حسن . ولكن هذا أيضاً
خطأ لأن الله إذا كان موحوداً مصدر كل شيء حتى الكفر . وهناك آخرون
يقولون : إن الخير هو فعل الخير والإحسان إلى الناس . وكيف يكون ذلك ؟ إن
ما ينفع واحداً يضر غيره ، يطلب الرقيق حريته . ويستبقه سيده عبداً
رقيقاً والغنى يبغي بقاء ثروته ، والفقر ينشدها ، وينشد المظلوم الإنصاف
والحرية ، والظافر أن لا يهزم ، والمشعشع أن يحب ، والحى أن لا يموت ، والإنسان
أن يقضى على الوحوش ، والوحوش أن تفرس الإنسان — هكذا كانت الحالة
في البداية وهكذا ستظل إلى آخر الدهر ، وليس من حق إنسان كائناً ما كان
أن يستأثر بما هو خير له وحده » .

« ويقول الناس إن الحب خير من البغض ، وهذا أيضاً خطأ لأنه إذا كان
ثم جزاء فخير على التحقيق للمرء . أن لا يذهب إلى الأثرة والأنانية ،
ولكن إذا لم يكن ثم جزاء فخير له أن يفوز بنصيبه من السعادة تحت
الشمس » .

ومضى يورى في تلاوة هذا الذي كان كتبه وهو يظن أن خواطره

هذه مدهشة العمق وقال لنفسه . « إن هذا صحيح » واستشعر الزهو . ثم مضى إلى النافذة وأطل على الحديقة حيث كانت الأرض مغطاة بالأوراق الصفراء فأحس أن لون الموت يطالعه من كل ناحية وصار حيناً أدار بصره يرى أوراقاً ذابلة وحشرات ارتهنت حياتها بالحرارة والدفع ولم يستطع يورى أن يفهم هذا السكون وملاً الصيف المنصرم قلبه بالسخط فقال : « لقد زحف الخريف وسيتلو الشتاء والجليد ثم الربيع فالصيف فالخريف كرة أخرى وتدور الأعوام دورتها الأبدية المملة . وماذا أصنع طول هذا الزمن ؟ ما أنا صانعه الآن ؟ كلا فساكون أبدا حسا وأكل ذهنا ثم يوافيني الهرم وفي عقبه الموت » .

وغزت ذهنه الخواطر التي كانت تربكه أبدا فراح يتوهم أن الحياة قد مرت به وأنه ليس في الدنيا وجود خاص — حتى حياة الأبطال تكون مفعمة بدواعي الملل والشجن في مفتتحها وخالية من بواعث السرور في ختامها . ثم صاح : « عمل ! نصر من أى نزع ! انتقدتم أحمد بلاخوف ولا ألم ! هذه هى الحياة الحقيقية الوحيدة » . وخطر لذهنه ألف عمل كل منها أفحل من الآخر فأغمض عينيه فثقل نحياله منظر الصباح في بطرسبرج وبدأت أسوار مرتفعة بينها مشنقة . وتصور فوهة مسدس ملتصقة بجبينه وخيل له أنه يسمع صوت انطلاقه على وجهه فقال : « هذا هو الذى يدخره القدرلى ! هذا مصرى ! » . فنخفت أعمال البطولة وحل محلها إحساسه بالعجز وخيل له أن ما يحلم به من الأعمال الخبيثة ليس إلا أوهاما صيبانية . فقال : « لماذا أضحى بنفسى أو أحتمل الإهانة والموت لتتقى طبقات العمال فى القرن الثانى والثلاثين آلام الجوع والفقر الجنسي ؟ إلى الشيطان بكل من فى الدنيا من الأعمال وغير العمال ! بودى لو ضربنى بعضهم برصاصة ! نعم أود أن يقتلنى بعضهم بضربة من خفى حتى لا أحس شيئا . ما هذا الكلام الفارغ ؟ ولماذا أطلب أن يفعل غيرى هذا ؟ ألا يمكن أن أفعل أنا ذلك ؟ هل بلغ من جبنى أن لا أستطيع

أن اختصر هذه الحياة التي أعلم أنها حياة شقاء محض ؟ إن المرء يموت لاحالة
 فخير ... » ودنا من المكتب الذي فيه مسلسلته وأخرجته منه وقال : « لنفرض
 أنني جربت ! لا لأقتل نفسي فعلا بل على سبيل التلهي والمزاح ... » ووضع
 المسدس في جيبه ونخرج إلى الشرفة المؤدية إلى الحديقة وكانت الأوراق
 الصفراء منتشرة على الدرج فرفسها برجله وأطارها في كل ناحية وصفر
 لحنا شجيا حزينا. فسألته لياليا : « ما هذا اللحن ؟ أهو رثاء لشهابك الراحل ؟ »
 وذهبت إليه فقال : « لا تهاني » وأحس منذ هذه اللحظة أن شيئا يدنو منه
 وأن لا طاقة له على دفعه فراح يتنقل في أرجاء الحديقة وهو مضطرب ومضى
 إلى النهر حيث كانت الأوراق الناعمة عائمة على صفحته . وظل
 يرقب الدوائر تتدحرج على سطح الماء والأوراق ترقص ثم كثر إلى
 البيت ووقف في طريقة يتأمل أحواض الزهر وكانت فيها بقية منه ثم انقلب
 إلى الحديقة ، فأنارت فيها شجرة بلوط خضراء الأوراق وعلى مقعد في ظلها
 قطة فرمقة يورني وانغروفت عيناه وجعل يكرر : « أن هذا هو المنتهى »
 وكانت هذه الأنفاس الفع من نفسه موقع السهم فعاد يقول : « كلا ! ما هذا
 المراء ؟ إن حياتي إنما لا تزال أمامي وإلى ما زلت في الرابعة والعشرين من
 عمري . » فليس هذا بالذي يقتضيه . وما هو ؟ » وذكر سينا فجأة وخطر
 له أنه من المتحيل عليه أن يقابلها بعد ذلك المنظر الفاضح في الغابة والخير
 له أن يموت ... ففكر في الفضة والمهرها وماءت فراقها يورني باهتمام ثم جعل
 يمشي حزين ودهش : « إن حياتي مملّة جافة .. ولا أدري ... كلا !
 إن الماء هو الذي يذوقها ! »

فراحت سحابة واحدة وأمسحت أمامه المستقبل باردا فارغا مؤثرا فقال
 « سحر ! أليس هذا ؟ » وفي هذه اللحظة مر السائق وفي يده دلو ماء
 تعطى صفحته الزهر من الناعمة الصفراء وبدت الخادمة في حرم الباب ونادت
 يورني فحدث برهم لا يفهم ما تقول ثم قال لما أدرك أنها تدعوه إلى الطعام
 (م ١٩ - ابن الطبيعة)

«نعم نعم.» وحدث نفسه: الطعام؟ أتناول طعاما! ما أقطع هذا! كل شيء سيكون على العهد به: أعيش وأقطع قلبي بالتساؤل عما ينبغي لي أن أصنعه لسينا ولحياتي وأعمالي؟ إذا فلا بد من التمتع وإلا لم تبق في الوقت فسحة إذا ذهبت إلى الطعام». وغلبته الرغبة في الإسراع فراح كل عضو من أعضائه يردد وأحس أنه لن يحدث شيء ولكنه كان على هذا يشعر أن الموت يرنق فوقه وكانت الخادمة لا تزال واقفة في الشرفة ويدها تحت منشفتها تأنشق نسيم الخريف الرقيق فتسلل يورى كاللص وراء شجرة البلوط حتى لا يراه أحد من الشرفة وأطلق مسدسه بسرعة مذهشة على صدره وخيل له أن النار أخطأته ففرح وعادته الشوق إلى الحياة والفرح من الموت فصرخت الخادمة وارتدت إلى البيت وما هي إلا برهة ثم رأى يورى حوله جمهورا من الناس وصب أحدهم ماء باردا على رأسه ولصقت ورقة ذاوية بجبينه وضايفته وسمع أصواتا عالية من حوله وبكاء ونداء: «يورى! يورى! لماذا؟ لماذا؟ فعرف أنها أخته لياليا وفتح عينيه وأخذ يغالب الموت بعنف وصاح: «إلى بطبيب عجلوا» ولكنه أحس مع هذا أن الأمر قد قضى وأنه لا سبيل إلى نجاته وثقلت الورقة الصفراء على جبينه وضغطت على ذنه فط عنقه مستوضحا ولكن الأوراق ظلت تكبر في رأى عينه حتى دون النظر ولم يدر يورى ماذا حدث بعد ذلك.

أسف كل امرئ على يورى سواء في ذلك من أحبوه ومن أبعضوه ومن احتقروه ومن لم يفكروا فيه. ولم يفهم أحد منهم باعته على الانتحار وإن كانوا يظنون أنهم يعلمون وأن في أعماق نفوسهم بعض ما خامر نفسه. ولم يشيعه من أهله أحد لأن أباه كان قد أصيب بالفالج

ولم يسع أخوته لئاليسا أن تتركه فناب ريبازانتزيف عن الأسرة وتولى الإشراف على الجنازة والدفن وكان لهذا وقع محزن في نفوس المشيعين وعمر النعش بورود الحريف الجميلة ووسد يورى بين بيضائها وحمرائها هادئا ساكنا ليس على وجهه أقل أثر للعراك أو الألم .

ولما مرت الجنازة ببيت سينا لحقت بها هى وديبوغا وكانت سينا مكسورة القلب مضطربة كأنما يسوقها سائق إلى إعلان فضيحتها وكانت على يقين من أن يورى لم يسمع بما أصاب عفافها ولكنها على هذا رأت علاقة بين هذا وموته وكانت قد قضت الليل فى البكاء وفى تقبيل وجه حبيبها المرتسم فى خيالها وطلع الصبح فاكتظ قلبها بحبه ومقت سائين واستغظت كل ما قاله لها سائين وكانت قد آمنت به فلما دنا منها وهى سائرة فى الجنازة نظرت إليه نظرة فزع واستبشاع وانصرفت عنه وأدرك سائين لما سلم عليها كل ما تحسه وتفكر فيه وعلم أنهما بعد اليوم غريبان فعض شفته وانضم إلى إيفانوف وقال له : « اسمع ! إن بيتر الليتش سيجوت ترتيلا ! » . فقال إيفانوف « ما أغرب هذا الضعف ! يقتل نفسه فى لحظة ! » . فأجابه سائين : « إن اعتقادى أنه قبل أن يطلق مسدسه بثلاث دقائق لم يكن يدري أين تنحر أم يحيا . لقد مات كما عاش » . فقال إيفانوف : « إنه على كل حال قد وجد لنفسه مكانا » . وتلقت الأرض يورى . وفى هذه اللحظة . حين كاد النعش يخفى عن النظر وتفصل الأرض إلى الأبد بين من عليها ومن تحتها صرخت سينا فتجاوبت المقبرة بصرختها وعويلها ولم يعد معها أن تكتم سرها فضواها عن القبر وهيل التراب وسوى ورفعت عليه بعض الصوى .. وقلق شافروف وقال : « أليس من يرثيه ؟ أيها السادة إن هذا لا يليق ! لا بد من تأبينه » .

فقال إيفانوف مهترحا بخبث « اطلب من سائين ذلك » .

فقال شافروف : « سائين ؟ وأين هو ؟ آه فلاديمير سائين هل تتفضل
بالقاء كلمتين ؟ إننا لانستطيع أن نمضى دون أن نرثيه » .

فقال سائين بجفوة : « إذا فارثه أنت » وكان يصغى إلى سينا وهى
تبكى بعيداً عنهم فقال شافروف : « لو استطعت لفعلت إنه كان حقيقة . .
رجلا نادراً . . أليس كذلك ؟ قل من فضلك كلمة ! » . فنظر سائين إليه
شزراً وقال بلهجة المغضب .

« ماذا عسى أن أقول ؟ لقد نقصت الدنيا مجنوناً . هذا كل ما فى الأمر » .
فوقعت هذه الكلمات أوضح ما تكون على مسامع الحاضرين وبانح من ذهولهم
أن لم يجدوا جواباً ولكن دييوبا صاحت بصوت عال : « يا للفضيحة ! »
فسألها سائين وهز كتفيه : « لماذا ؟ » فهمت دييوبا بأن تصبح فى وجهه
وأن تهدد بقبضة يدها ولكن رفيقاتها منعهن وتفرق الجمع بغير نظام وكانت
عبارات الاحتجاج تخرج من كل فم وتشتت المشيعون كالأوراق الداوية
عصفت بها الريح وجرى شافروف ثم ارتد ووقف ريارانتزيف مع بعضهم
يومئذ إيماءات عنيفة . وكان سائين غارقاً فى خواطره يحدق فى وجه رجل
على عينييه نظارة ثم التفت إلى إيفانوف وكان مرتبكاً ولم يكن يقدر حين
أحال شافروف عليه أن يكون هذا رده فأسف وكان إلى جانبه شاب يتكلم
بحرارة فسمره إيفانوف بنظرة وقال له : « يظهر أنك تظن أنك حليلة وزينة »
فخجل الشاب وقال : « ليس فى هذا ما يضحك » . فصاح به إيفانوف : « لعنك
الله اذهب عني ! » وكانت نظرته من العنف بحيث لم يسمع الشاب إلا
المضى . وكان سائين يراقب ذلك فابتسم وقال : « ما أحققهم جميعاً ! » .

فقال ايتمانوف « هيا بنا ! إلى الشيطان بهم »

ومرا فى طريقهما بريازانتزيف ورأى سائين زمرة من الشبان لا يعرفهم
واقفين ورأس كل منهم إلى رأس صاحبه وفى وسطهم شافروف يتكلم
ويومئء فلما دنا منهم سائين سكنت والتفتوا جميعاً لينظروا إلى سائين وفى

وجوههم امارات السخط والغضب والاستغراب فقال إيفانوف « إنهم يأتمرون بك » واستغرب نظرة سائين الحزينة وتقدم شافروف ودنا من سائين فالتفت هذا إليه بحدة كأنما يتهبأ لأن ينفذ به الأرض . ويظهر أن شافروف أدرك ذلك فقد أصفر ووقف على بعد وحف به الطلبة والفتيات كالأغنام وسأله سائين : « ماذا تريد غير ذلك ؟ » . فقال شافروف وهو مرتبك : « إننا لا نريد شيئاً ولكن كل زملائى يريدون أن أعرب عن سخطهم . . . » فقال سائين وأسنانه مطبقة : « ما أعظم اهتمامى بسخطكم ! لقد سألتنى أن أقول كلمة عن الميت فلما صارحتكم برأى جئت تعرب عن سخطك . وهذا حسن منك . ولولا أنكم زمرة من الصبيان الحمقى المرورين لأثبت لكم أنى مصيب وأن حياة يورى كانت حياة سخيفة لأنه قضاهما فى التساؤل عن كل ما لا يجدى ثم مات ميتة الحمقى - ألا أنكم جميعاً لا كنف ذهنياً وأضيق عقلاً من أن تستحقوا الكلام . فإلى الشيطان بكم جميعاً . أذهبوا عنى ! » . ولم يقلها حتى انطلق يشق لنفسه طريقاً بينهم فقال شافروف : « لاندفعنى من فضلك » وصاح بعضهم « لم أر أوقع ... » ولم يتم عبارته . وسأله إيفانوف : « ما الذى يخيف اناس منك ! إنك تفرعهم أسد الفزع ! »

فقال سائين : « لو ضايقت هؤلاء الشبان بأرائهم الخرقاء فى الحرية لعاملتهم بأحسن من معاملتى لهم فليذهبوا جميعاً إلى الجحيم » .

فقال إيفانوف « دعنا من هذا يا صديقى . هل تدري ماذا يجب أن نصنع ؟ نشترى شيئاً من الجعة ونشرها على ذكرى يورى » .
فقال سائين بدون اكتراث « إذا شئت »

ومضى إيفانوف فى تفصيل اقتراحه فقال : « إن يكون هناك أحد حين نعود . فلنشرب الجعة بجانب القبر والفقيد احتراماً ولأنفسنا المتعة » .
فقال : « حسن جداً » . ولم يكن على القبر أحد حين عاد فجالسا وما كادا

يفعلان حتى خرج من التراب ثعبان أسود فظيع فصاح إيفانوف وهو يرعش « ثعبان ». ثم شربا وألقيا بالزجاجات الفارغة على الحشائش المغروسة على القبر الجديد .

(٤٢)

قال سانين لإيفانوف وهما يجتازان الشارع في المساء : « اسمع ! قال : « ماذا » ، قال : « تعال معي إلى المحطة فإني مزروع رحىلا » فوقف إيفانوف وسأله عن السبب فقال سانين : « لأنى مللت هذا المكان » فقال إيفانوف « أترى أخافك شئ ؟ » أجاب : « أخافنى أنى راحل لأنى أريد ذلك » قال : « نعم . ولكن ما السبب ؟ » .

أجاب : « يا صديقى لا تسأل هذه الأسئلة السخيفة . إني راحل وكفى وما دام المرء لم يستبطن الناس فقد يبقى له أمل فيهم . ولكن تأمل بعض من نعيشهم هنا : خذ مثلاً سينا أو سمينوف أو ليذا نفسها التي كان يمكنها أن لا تكون عامية النفس أوه ! إنهم يضعجروننى الآن وقد مللتهم وأضنننى معاشرتهم وطال صبرى عليهم واحتمالى لهم ولم تعد لى طاقة على ذلك » .

فحدق إيفانوف في وجهه قليلا وقال : « تعال ! إنك لا شك ستودع أهلك ؟ » . فقال سانين « كلا ! لست من يفعل ذلك فإنهم هم الذين أملونى » . أجاب : « ولكن أين أمتعتك ؟ » .

قال : « ليس عندى شئ كثير . وإذا انتظرتنى في الحديقة ذهبت إلى غرفتى وألقيت إليك بالحقيبة من التافذة حتى لا يكثروا من السؤال عن الأسباب والدواعى وعلى أى سبب هناك ما أقوله لهم ؟ » .

فقال إيفانوف « حسن . وإنى لأسف جدا لسفرك يا صديقى ولكن... ماذا أستطيع أن أصنع لك ؟ » أجاب : « تعال معي » .

فقال «أين؟». أجاب: «إن المكان لا يهم. وفي وسعنا أن نفكر في هذا فيما بعد ففقال: «ليس معنى مال». فضحكك سائين وقال: «ولا أنا». أجاب: «كلاً! إذا فأذهب وحملك. وستبدأ المدرسة بعد أسبوعين فأعود إلى المحرى القديم». ونظر كل منهما إلى صاحبه ثم صرف إيفانوف وجهه وهو مرتبك كأنما كان رأى صورة مشوهة لوجهه في مرآة. واجتاز فناء البيت ودخل سائين من الباب وانتظر صاحبه في الحديقة المظلمة تحت نافذة سائين.

أما سائين فإنه لما مر بغرفة الاستقبال سمع أصواتاً آتية من الشرفة فأصغى فإذا ليذا تقول: «ولكن ماذا تريد منى؟».

فقال نوفيوكوف: «لا أريد شيئاً. ولكن يخيل لى أنه من الغريب أن تظنى أنك ضحيت بنفسك يا ليذا من أجل على حين أنى أنا...» فقالت ليذا بصوت متهدج: «نعم نعم. أعلم ذلك وأعلم أنك أنت الذى يضحى بنفسه لا أنا. فماذا تريد أكثر من ذلك؟».

فتضايق نوفيوكوف وقال: «ما أقل فهمك لما أعنى! إني أحبك فليس فى الأمر تضحية. ولكن إذا كنت تظنين أن فى زواجنا تضحية بك أو فى فكيف نستطيع أن نتعايش؟ أرجوك أن تفهمى. إننا لا نستطيع الحياة معاً إلا على شرط واحد هو أن لا يجرى فى وهم أحد منا أن فى الأمر تضحية ما. وأما أن نكون متحابين وحينئذ يكون زواجنا معقولاً وطبيعياً، وإما أن لانكون متحابين وحينئذ...» فشرعت ليذا تبكى فجأة، فصاح نوفيوكوف: «ماذا دهاك؟ إني لأفهمك. لم أقل شيئاً يسيئك لاتبكى. الحق أن المرء لا يستطيع أن ينطق كلمة واحدة».

فقالت ليذا وهى تبكى: «لأدرى... ولكن...».

فقطب سائين أسرته ودخل غرفته وقال لنفسه: «وهذا كل ما وصلا إليه؟ لعله كان خيراً أن تغرق نفسها!».

وكان إيفانوف. منتظراً تحت النافذة يسمع حركة سائين وهو يجمع امنعته فقال: «أسرع». فقال سائين ودلى إليه الحقيبة «خذ». ولما تناولها وثب سائين وراءها وقال «هيا بنا».

وأسرعا فاجتازا الحديقة وكانت الشمس قد انحدرت ولما بلغا محطة السكة الحديدية ألفيا المصابيح مضاءة ووجد فاطرة تنفخ والناس يعدون ذات اليمين وذات الشمال وبصرا بزمرة من الفلاحين يشغلون جانباً من الإفريز بأشخاصهم وحزمهم الكبيرة

وشرب سائين وإيفانوف كأسى وداع وقال إيفانوف: «رحلة سعيدة إن شاء الله». فابتسم سائين وقال: «إن كل رحلتي سواء لست انتظر من الحياة شيئاً أو أسأله شيئاً. أما من حيث الحظ والسعادة فلن يبق من ذلك كثير حتى شارفتنا النهاية — الهرم والموت: يكاد يكون هذان كل ما ذخر لنا». ثم خرجا إلى الإفريز وانتحيا منه ناحية خالية ساكنة وقال إيفانوف «الوداع مع السلامة!». أجاب: «الوداع!» وتلتما وهما لا يدريان الدافع لهما. وصفرت القاطرة وبدأت تتحرك فقال إيفانوف: «يا صديقي لقد أصبحت كلفاً بك. وإنك للرجل الوحيد الذى صادفته فى سياتى». فقال سائين وهو يتسم: «وأنت الرجل الوحيد الذى اهتم بى» ووثب إلى إحدى المركبات وهى مارة به وصاح: «هكذا أرجل. فالوداع» وأسرعت المركبات أمام إيفانوف كأنها قررت أن ترحل مثل سائين وبدأ من آخرها الضوء الأحمر فى ظلام الليل ولما نأى خيل لرائيه أنه جامد فى مكانه. وظل إيفانوف يرقبه برهة وب نفسه حسرة ثم كر إلى الشوارع المضاءة وقال لنفسه: «أأغرق همى؟» ثم دخل حانة ودخلت معه صورة حياته الشوهاء المملة وكالشبح.

— ٤٣ —

كانت المصابيح فائرة الضوء فى جو القطار الخالق وجلس سائين بجانب ثلاثة من الفلاحين وكانوا يتحدثون ساعة دخل عليهم وأحدهم يقول: «إن الأحوال سيئة». فقال ثانيهم وكان جار سائين: «لا يمكن أن تكون أسوأ. إنهم لا يفكرون إلا فى أنفسهم أما نحن فلا يكثر ثون لنا أو يعبأون بنا. قل ما بدالك متى وصل الأمر إلى الدفاع عن النفس فالساعة للأقوى».

فسأله سائين: «إذا فما فائدة هذه الضجة؟» وكان قد حذر موضوع الكلام. فالتفت إليه أكبرهم سنأ ولوح بيده وقال: «ماذا نصنع غير ذلك؟».

فنهض سائين وغير مكانه وكان خبيراً بهؤلاء الفلاحين الذين يعيشون كالذواب ولا يستطيعون أن يدفعوا الظلم أو يقضوا على الظالم ويعلقون أملهم بمعجزة يموت في انتظارها الملايين منهم .

وكان الليل قد بسط رواقه ونام كل إمرء ما عدا تاجراً قبالة سائين كان معه امرأة صغيرة لم تقل شيئاً ولكن عينها كانت فزعة وكان الرجل ينظر إليها شزراً ويقول أيتها البقرة ! سأريك ! .

ونام سائين فترة من الليل حتى أيقظته صرخة من المرأة فنهض زوجها يده عنها ولكن سائين أدرك أنه كان يضربها فصاح به : « بالك من وحش ! ! » فترجع الرجل وهو فزع وخرج سائين إلى مؤخرة القطار ورأى في طريقته إليها كثيرين من الفلاحين رءوس بعضهم على أجسام البعض وكان الفجر قد أوشك أن يطلع فوقف سائين ينشق نسيم الصباح العليل وقال : « ما أحقر الإنسان » . ونازعته نفسه أن يعتزل الناس ولو برهة قصيرة وأن يترك القطار وجوه الملوث ودخانه وصجته . ولج به الشوق إلى الخلاص من كل ذلك .

وكان الأفق في الشرق قد احمر وغابت ظلال الليل في زرقة الأفق . فلم يضع سائين الوقت في التفكير بل ترك حقيبته ووثب من القطار إلى الأرض . ودر به القطار يمثل صوت مرعد وهو ملقى على الرمال البليدة اللينة فلما نهض كان المصباح الأحمر قد بعد عنه فأخرج سائين صيحة فرح وقال : « هذا حسن » .

وكان كل ماحوله طليقاً شاسعاً والحقول والمزارع منبسطة على الجانبين إلى الأفق فتنفس سائين نفساً عميقاً ورمى هذا المنظر بعينين وضاعتين ثم سار ووجهه إلى الفجر اللامع وخيل لسائين وهو يرى السهول تستيقظ وتكسئ حلتها البيضاء تحت قبة السماء وأشعة الشمس تنطلق كالسهم النارية التي يطلقونها في ليالي الأفراح

— خيل إليه إنه سائر إلى لقاء سعيد في جنة فيحاء

تمت بحمد الله

